تاريخ الدول الإسلامية السودانية

بإفريقيا الغربية



تأليف : الدكتور عبد الرحمن زكي

الألف كتاب ٣٨٤

تاريخ الدول الإسلامية السودانية بإفريقيا الغربية

بإشراف
إدارة الثقافة العامة
بوزارة التربية والتعليم

تصـــدر هذه السلسلة بمعاونة
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

٣٨٤
الألف كتاب

تاريخ الدول الإسلامية السودانية

بإفريقيا الغربية

تأليف

الدكتور عبد الرحمن زكى

ملتزم الطبع والنشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
١٠ شارع كامل صدقي بالفجالة - القاهرة ت ٩١٤٥٥

١٩٦١

الفصل الأول

مقدمة جغرافية

صورة الأرض والشعوب فى غربى أفريقيا

لا يمكن كتابة تاريخ غربى أفريقيا دون أن نعالج جغرافيتها ، وذلك لما لها من تأثيرات واضحة على تاريخها خلال العصور . ولا يمكن أيضاً أن نتجاهل تأثير الصحراء الكبرى فى سير هذا التاريخ أثناء الألفى سنة الأخيرة على الأقل ، وذلك للعلاقة المستمرة المتبادلة بين أهالى الصحارى الكبرى وشعوب السودان الغربى .

تقع البلاد التى نؤرخ لها فى غربى أفريقيا وتطل على المحيط الأطلنطى غرباً وجنوباً (خليج غينيا) . وتحدها الصحارى الكبرى شمالا ، ومن الشرق خط يكاد يمر بالحدود الشرقية لنيجرية . وليس من اليسير تحديد الحدود الشمالية والشرقية لغربى أفريقية تحديداً دقيقاً بالمصطلحات الجغرافية التقليدية ، فليس هناك فى الشرق أو فى الشمال حواجز جغرافية طبيعية تعتبر علامات بارزة تحدد بجلاء اتساع الأقاليم التى تحتوى عليها أفريقية الغربية . ولم تكن الصحارى أو النهران الكبيران : النيجر والسنغال اللذان يجريان بمحاذاة حافة الصحارى الجنوبية فى أى يوم من الأيام لتصد أو تعطل انتقال الشعوب المختلفة أو تعرقل تجارتها .

وبالإضافة إلى ذلك فإننا إذا تقدمنا إلى غربى أفريقيا من الناحية الشمالية لاحظنا أن تغيراً جغرافياً يطرأ أثناء انتقالنا من الصحراء إلى الأماكن الآهلة بالسكان يسير تدريجياً للغاية ، كما نشاهد أيضاً أن بعض مناطق الصحراء ليست خالية تماماً من السكان وأنه ليس بشرقيها حواجز جغرافية طبيعية ، حتى نصل إلى مستنقعات النيل الاستوائية أو المرتفعات الحبشية ، وليس هناك أقل شك فى أن تلك الصورة الجغرافية العامة قد

أثرت تأثيراً ملحوظاً فى تاريخ وحضارات البلاد فى غربى أفريقيا عبر العصور كما سيتضح فى فصول الكتاب *

ونحن إذا استعرضنا تاريخ غربى أفريقيا فى العصور التاريخية لوجدنا أن صلاتها بالعالم الخارجى كانت فى الغالب عن طريق الصحارى الكبرى بصفة رئيسية . كانت تلك الصلات قليلة فى الجهات الساحلية . وقد تيسر النقل عبر الصحراء كثيراً منذ حوالى عام ٣٠٠ م حينما أصبح الجمل وسيلة النقل فى شمالى أفريقيا . أما فى جنوبى الصحراء أى بين الصحراء ومنطقة الغابات باستثناء فصل الأمطار القصير ، فكان لا يعرقل انتقال الأهالى والحيوان من مكان إلى آخر أى عائق . وذلك على طول امتداد الإقليم الكبير (غربى أفريقيا) من الغرب إلى البحر الأحمر . أما اختراق الإقليم من الجنوب والجنوب الغربى فقد كان مشكلة أخرى ، فإنه كان إذا أتيح للمسافر أن يطأ بقدميه بأمان على الشاطىء الجنوبى مثلا وما يحمله معه ثم استطاع بعد ذلك أن ينجو بنفسه عبر المستنقعات والسهوب لواجهته أصعب المشكلات . فقد كان عليه أن يخترق ومعه عتاده منطقة الغابات الكثيفة الاستوائية التى لم تمسها يد الإنسان من قبل . ليس هذا فحسب بل إن ذبابة تسى تسى كانت تقضى على ما يصحبه من الحيوان ولذلك كان يلجأ هذا المسافر إلى الأهالى لمعاونته فى حمل أثقاله مستعيناً بأحدهم على إرشاده لاختراق المسالك الملتوية ، ولذلك اقتصرت العروض التجارية على الأشياء النفيسة فقط كالذهب والعاج ، ومع ذلك فقد كان معرضاً ومن معه للإصابة بالأمراض المتوطنة كالملاريا والحمى الصفراء .

---

* J. D. Fage : An introduction to the history of West Africa . Cambridge 1959 .

الصحارى الكبرى

وسنتناول أولا الكلام على الصحراء الكبرى وشعوبها المختلفة ، فهى تمتد من ساحل الأطلنطى (موريتانيا) فى الغرب حتى السودان فى الشرق وتقدر مساحتها بحوالى ٦٫٧٠٠٫٠٠٠ كيلو متر مربع * وتقع على حافتها الجنوبية أصقاع يصعب فيها تحديد الصحراء وغير الصحراء . وبالصحراء عدة هضاب وجبال ، منها تبستى وتشيلى الشمالية وحجار وأهير (أير — اسبن) وجبال أورار الشرقية والغربية .

وترتفع بعض بقاع الصحراء إلى ستة آلاف من الأقدام فوق سطح البحر ، وتنخفض أخرى إلى مائة قدم تحت سطح البحر ، تتناثر فيها كثبان الرمال والواحات الكبيرة : توجور وغرداية وأدرار ولانوت وبنى عباس ووات . وفيها الهضاب الصخرية والمسالك الفسيحة وسلاسل الجبال غير المنتظمة . أضف إلى هذا . . الوديان التى كانت مغمورة بالمياه فى زمن ما . والصحراء الكبرى ليست بحراً من الرمال ولكن طبيعتها حجرية تهب عليها الرياح القاسية فتعرى الصخور . وتقدر مساحة جزء الصحراء الذى تغطيه الرمال بحوالى التسع فقط .

والأمطار التى تتساقط فى الصحراء قليلة ونادرة ، ومن هنا كان جدبها، ومع ذلك ففى بعض جهاتها يوجد الماء بعد حفر الآبار . وفى تلك الجهات تنهض الواحات ، ولقد حفرت آبار كثيرة واستطاع بعض العرب والبربر أن يستقروا فيها بالقرب من مزروعاتهم . وينمو فى الصحراء بعض النباتات ذات البيئة الصحراوية التى تعيش فى جو جاف جداً . وتميز

---

* من الصعب تقدير مساحة دقيقة للصحراء نظراً لوجود مناطق كبيرة فى الشمال وفى الجنوب تعتبر نصف صحراوية وأخرى ثلاثة أرباع صحراوية .

بأوراقها الغليظة كالصبار مثلا أو بأشواكها . وأهم نباتات الصحراء الصمغ والأثل والنخيل الذى ينمو بالقرب من مصادر المياه الغزيرة ، وعلى حافة الصحراء أى فى المناطق شبه الصحراوية وبالقرب من الواحات تنمو الحشائش الغليظة حيث يرعى الأهالى الماشية والجمال والماعز .

والصحراء غنية بمناجم الملح وقد عثر فى الأعوام الأخيرة على آبار غنية جداً بالنفط . ويستبدل سكان الصحراء بما عندهم اللحم المقدد والصوف والزبدة والجبن والحنطة التى يحصلون عليها من البلدان الساحلية ، وتعتمد التجارة على قوافل الإبل عبر عدة سبل تصل ما بين البلاد الساحلية والسودان الغربى .

سكان الصحراء

وسكان الصحراء أساساً من الجنس الأبيض ويرجعون إلى أصل من البربر أو العرب البربر، وغالبيتهم بصفة عامة من البدو الرحل ويقدر عددهم بحوالى مليون ونصف المليون . والبربر من الشعوب البيضاء بأفريقية ومواطنهم الحالية الزاوية الشمالية الغربية من القارة الأفريقية أى جهات أطلس ، والأقطار الوسطى والغربية من الصحراء بين أطلس وفزان وجهات ديوليبيا الوسطى وبلاد سنغال وساحل الأطلنطى، ويساكنهم العرب فى بعض هذه الجهات .

ويشغل قبائل الطوارق نحو نصف الصحراء ، وهم أقوام من البربر ينزلون الجهات الوسطى من الصحراء الغربية وينقسمون إلى أربعة أقسام سياسية كبرى كل منها يقيم فى أمكنة وأصقاع خاصة به وهى :

١ — قبائل أزقر وهى بالشمال الشرقى .

٢ — قبائل حجار بالشمال الغربى.

٣ — قبائل أيرا و اسبن(*) المتحالفة بالجنوب الشرقى من هضبة أير.

٤ — قبائل أولميدن بالجنوب الغربى وبعض بلادها جبلى هو بلاد أدرار وبعضه سهل .

ويعيش فى تبستى —وهى هضبة مؤلفة من مجموعة من الجبال شمال غربى تشاد وشمال مالى — شعب التبو ،ومع ذلك فإن التبو موزعون فى منطقة واسعة بين صحراء ليبيا فى الشرق وصحراء حجار فى الغرب وفزان فى الشمال وإقليم تشاد فى الجنوب . وتطلق لفظة تبو بصفه خاصة على أهالى تبستى ، ومعناها فى لغة الكانورى شعب تو أو تبستى ؛ ويطلق أهالى تبستى على أنفسهم اسم تيدا ، ويختلف التبو اختلافاً بيناً عن الزنوج من ناحية وعن البربر من ناحية أخرى،وأهم مواردهم مايزرعونه من النخيل والحبوب فى الوديان الرطبة ، ويقومون بتربية الماعز ويعمل البعض فى قيادة القوافل وتأجير الإبل ،ولا تدل تقاطيع وجوههم وسماتهم على أنهم من أصل سودانى، وهم خشنو الطباع أنانيون ، وتنقسم لغتهم إلى لهجة تبستى ولهجة دازا . ولا يعلم العصر الذى دخل فيه الإسلام بلادهم . ويظهر أنهم اعتنقوا الإسلام حديثاً ، وقد تأثروا إلى حد كبير بالسنوسية وقاوموا التوغل الأوربى فى مواطنهم ، وقد بدأت المواصلات فيما بين القرنين السابع عشر والثامن عشر بين طرابلس وأقوام التبو .

منطقة فيما يلى الصحراء

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الكلام على طبيعة السودان الغربى والبلاد المطلة على خليج غينيا ، لاحظنا أن أحوال المناخ والزراعة تختلف فى أنحائه تبعاً

---

* دائرة المعارف الاسلامية

لبعد كل منها عن الصحراء ، وأنه كلما بعدت المسافة عن الصحراء زاد هطول الأمطار وتبعاً لذلك زادت خصوبة الأراضى .

ويعمل أهالى السودان بصفة عامة فى الزراعة وهم يعنون بزراعة الصرغم بكميات وفيرة والقطن والنيلة لصباغة المنسوجات القطنية التى تنسج بالمناول اليدوية فى بعض الجهات، كما يزرعون الحنطة والذرة والفول وجوز الكولا ، ويعنون فى مناطق الغابات باستخراج زيت النخيل والمطاط والأغنام (*) Yams ويقومون أيضاً بتربية الماشية والإبل .

ويعود الفضل فى انتعاش المناطق الجغرافية فى غربى أفريقيا بصفة رئيسية إلى التأثيرات المناخية ، وبخاصة إلى سقوط الأمطار التى تحيا بها المزروعات. ونصيب الصحراء من المطر أقل من معدل خمس بوصات سنوياً . ولذلك لا يمكن القول إن هناك مزروعات مستديمة فى المناطق التى تعتمد على المطر . وكان من جراء ذلك أن الأهالى لا يمكنهم القيام بجنى ثمار ما يزرعونه، وصار من الصعب عليهم العمل فى رعى الحيوان. ومن هنا كان عدد سكان ، الصحارى قليلا ، وهم فى غالب الأحيان من الرحل . وفى الأجزاء الجنوبية المطلة على خليج غينيا تتراوح كمية الأمطار بين ما يقرب من ثلاثين ومائة بوصة فى السنة . ولذلك كانت معظم الأراضى الساحلية مغطاة بالغابات الكثيفة ، وتزرع غالبيتها بسهولة ، ولذلك ارتفعت نسبة تكاثف السكان .

ونتعرف فيما بين الصحراء ومنطقة الغابات الساحلية على مناطق زراعية مختلفة يمتد كل منها من المحيط الأطلنطى فى الغرب إلى وادى النيل فى الشرق، وتتداخل غالباً كل منطقة بالأخرى . ويمكن وصف تلك المناطق الزراعية بترتيبها من الشمال إلى الجنوب كما يلى :

---

* اسم يطلق على نبات استوائى وعلى جذوره الدرنية النشوية التى تزن الدرنة الواحدة منها حوالى ثلاثين رطلا وتؤكل الدرنات بعد خبزها أو غليها ثم طحنها الى دقيق كما تستخدم علفاً للماشية .

١ — تمتد على حافة الصحراء منطقة نبات شوكية .

٢ — وتتدرج هذه إلى منطقة حشائشية تتناثر فيها بعض الأشجار .

٣ — وتتحول طبيعة الأرض تدريجياً إلى منطقة ذات حشائش أطول وأسمك وأشجار أكبر وأكثر عدداً ، ثم تتحول هذه الأحراج والأدغال إلى غابات كثيفة فى أقصى الجنوب .

وتميز هذه المناطق الزراعية بعدم توفر المرتفعات فيها ، إذا استثنينا جبال كمرون فى الطرف الجنوبى الشرقى فى غربى أفريقيا وهضبة باوتشى فى شمال نيجيرية حيث يصل ارتفاعها إلى ما فوق ألفى قدم ، وهضبة فوتا جالون وامتدادها إلى الجنوب الشرقى إلى جبال نميا فى غينيا . وينبع من هذه المنطقة النيجر والسنغال وجامبيا أكبر الأنهار القابلة للملاحة فى غربى أفريقيا .

وتسير القوارب الصغيرة فى مجرى نهر النيجر الذى يبلغ حوالى ٢٦٠٠ ميل، كما تمخر السفن البخارية أجزاء طويلة منه . وهذا النهر طريق ملاحى هام لتجارة البلاد التى تقع فى حوضه ، وأهم فروعه نهر بنوى الصالح للملاحة إلى يولا Yola . أما نهر سنغال فإنه صالح للملاحة فى فصل الأمطار من جهة المحيط إلى كايس (٥٦٠ ميلا)، كما تمخر السفن الكبيرة نهر جامبيا إلى شلالات بارا كندا أى إلى مسافة ٣٥٠ ميلا من المحيط . أما نهر فولتا (فى غانة) الذى يبلغ طوله نحو سبعمائة ميل ، فيعتبر أقل أهمية من ناحية الملاحة التجارية إذ تعوقه الأماكن الضحلة والمساقط وتسد مصبه الرمال.

ويقع على ساحل غربى أفريقيا قليل من الموانىء الطبيعية باستثناء دكار (سنغال) ولاجوس (نيجرية) والأولى مرفأ طبيعى ممتاز للغاية وكذلك الثانية لا سيما إذا عنى بكسح الرمال التى تعيق السفن . ولأنهار جامبيا وسنغال وسيراليون دالات تسهل التجاء السفن إلى شواطئها . ويصب نهر النيجر فى خليج غينيا مكوناً عدة قنوات تؤلف فى مجموعها دلتا ضخمة .

شعوب مناطق ما وراء الصحراء الكبرى

قبل الإسلام

وننتقل بعد ذلك إلى سكان غربى أفريقيا جنوبى منطقة الصحراء. إنهم بصفة عامة من الزنوج ، سواء ممن يعيشون فى منطقة الغابات أو فى الأراضى المكشوفة الزراعية التى تقع فى شماليها بين الصحراء ونهرى النيجر والسنغال . والأقوام الذين يعيشون فى منطقة الغابات أكثر زنجية من ناحية الدم وسواد البشرة من إخوانهم فى الشمال ، ويرجع ذلك إلى أنه فى خلال العصور السالفة كان السودان الغربى معرضا لنفوذ وتأثير الشعوب غير الزنجية من سكان الصحراء وشمالى أفريقيا .

وأصل الزنوج مشكلة قلما يعنى بها المؤرخ ، ويكفى القول إن أقدم تاريخ للزنوج فى أفريقية يرجع إلى ما قام به المصريون القدامى على النقوش حول عام ٣٠٠٠ ق . م .

ويؤلف الزنوج اليوم غالبية السكان الوطنيين فى أفريقية جنوبى الصحراء، باستثناء أثيوبيا وصوماليا ،وسكانهما يتحدثون لغتين ترتدأصولهما إلى الحامية والسامية كالتى يتكلم بها سكان شبه الجزيرة العربية وشمالى أفريقية ، والمنطقة القاحلة التى تقع فى الطرف الجنوبى الغربى من القارة ، حيث يعيش بعض البوشمان والهوتنتوت يمثلون أجناساً كانت تنتشر هناك منذ عصور ما قبل التاريخ .

وقد اعتاد علماء الأجناس على تقسيم الزنوج الأفريقيين إلى مجموعتين رئيسيتين : زنوج غربى أفريقيا الذين يتحدثون ما يطلق عليها اللغات السودانية **Sudanic** وزنوج شرقى ووسط وجنوبى أفريقيا الذين تتصل

لغاتهم بعضها ببعض وتسمى لغة البانتو . وهؤلاء الزنوج الذين يتحدثون لغة البانتو ، من المعروف عنهم بصفة عامة أنهم تأثروا بالشعوب غير الزنجية ولاسيما الحاميون (الذين يتكلمون اللغات الحامية) أكثر من زنوج غربى أفريقيا الذين يطلق عليهم تبعا لذلك الزنوج الحقيقيون ، ومع ذلك يقول بعض الباحثين إن لغات البانتو فروع من اللغات السودانية . وتبعا لذلك يمكن القول إن البانتو هم أصلا من الزنوج الحقيقيين جاءوا من جنوب شرقى نيجرية حيث يتكلمون اليوم لغات شبيهة بالبانتو .

ويمكن القول بأن المنطقة التى يعيش فيها الزنوج اليوم فى غربى أفريقيا لم تتغير عما كانت عليه منذ خمسة آلاف سنة باستثناء واحد وهو احتمال استيطان الزنوج فى المنطقة الجنوبية من الصحراء الكبرى . وهناك عاملان يرجع إليهما ارتداد الزنوج من الصحراء (الجزء الجنوبى منها) إلى منطقة السهول التى تقع فى جنوبيها فى الألفى سنة الأخيرة . العامل الأول هو أن توغل الصحراء وتوسعها إلى الجنوب قد أجبر الزنوج على الانتقال جنوبا بعد أن أصبحت الحياه أشد قسوة، وكانوا قد اعتادوا على أعمال الزراعة أى صاروا زراعيين . وسبب هذا التوسع الصحراوى لا يرجع إلى انعدام هطول الأمطار ، بل يعود فى الواقع إلى وصول أفواج عديدة من أهل شمال أفريقيا الرعاة إلى مواطن الزنوج الصحراوية ومن ثم أتلفت قطعان ماشيتهم وإبلهم وماعزهم الحشائش النباتية التى كانت تمنع التبخر السريع لما تحتوى عليه التربة من الرطوبة ، فجفت الأرض وصارت أقل خصباً وتعرضت للتعرية بتأثير الرياح والمياه . وفى أعقاب ما حدث فى الصحراء انتقلت القطعان إلى أراضى الزنوج الزراعية فى السهول وسرعان ما تحولت إلى مناطق للرعى وأتلفت بذلك محصولاتهم . والدليل على ذلك أن إمبراطورية غانة القديمة كانت تشغل فى الشمال منطقة امتدت مساحات كبيرة فى الأراضى الصالحة للرعى والزراعة ، على عكس الدول

التى قامت فى أعقابها ،وذلك بعد أن قضى المرابطون على سيادتها فى القرن العاشر ، كما أن قبائل الهوسا عاشت سنين طويلة وهم يعملون بالزراعة حتى اضطروا تحت تلك الظروف القاسية إلى أن ينتقلوا إلى الغرب وأن ينتشروا فى سهول نهر النيجر الشمالية .

ونحن لا نعرف سوى القليل عن تاريخ أو نمط الحياة لزنوج غربى أفريقيا قبل وصول المقتحمين بلادهم من شمالى أفريقيا واتصـــالهم بهم والتأثير فى أساليب حياتهم وطرق معيشتهم . ولا يخفى أن الشعوب الزنجية لم تترك الوثائق المدونة التى تكشف الضوء عن ماضيها البعيد ، كما أن هناك حدوداً لا نستطيع تجاوزها لتقدير مدى صحة ما تناقلوه من أخبار الماضى ، ومع ذلك فإن بعض القبائل الكبرى احتفظت بالكثير من الأقاويل والأخبار التاريخية بدقة تامة لمدة أربعمائة سنة أو أكثر ، فإذا طالت تلك المدة وجدنا أنفسنا أمام مجموعة متناقضة من الأنباء والأحداث المتراكمة ،مما يزيد فى حيرتنا ويجعل تفسيرها أمراً صعباً . وإننا نلاحظ أن معظم الأخبار غير المدونة عبارة عن الحوادث الحربية والسياسية وأسماء الزعماء وظروف الهجرات . وتلك لا تتحدث عن أنماط معيشة القبائل والشعوب أو أساليب الإدارة الحكومية .. الخ . وإذا رغب المؤرخ أن يلم بمعلومات وثيقة تتصل بأحوال الناس فعليه أن يلجأ إلى ما يمده به علم الآثار أو ما كتبه المؤلفون العرب أو غيرهم — ومعظم ما وصل إلينا كتبه المؤلفون من عرب ومغاربة قبل القرن الخمس عشر — أو ما كتبه الأوربيون بعد ذلك حينما اتصلوا لأول مرة بالزنوج . ومن سوء الحظ أن أعمال التنقيب عن الآثار التى تمت فى غربى أفريقيا ما زالت ضئيلة وتنهض بها الجامعات ومعاهد الآثار المنشأة حديثا . والواقع أن أهم ما ألف عن شعوب تلك المنطقة كتب بعد ما وقعت تلك الشعوب تحت تأثير الأفريقيين الشماليين والتبادل التجارى.

ومع ذلك فإننا ، إذا أردنا استخدام أية معلومات من هذا القبيل ، فعلينا أن نحصل على صورة تبين لنا توزيع مواطن الشعوب الزنجية الهامة فى غربى أفريقيا قبل وقوعهم تحت التأثير الأجنبي فى فترة سابقة ، ولنقل فى القرن السابع الميلادى مثلا .

مواطن شعوب غربى أفريقيا قبل دخولها الإسلام

وتدلنا هذه المعلومات على تكوين الصورة التالية : ـ

فى شمال منطقة الغابات فى الغرب — فى فوته وعلى امتداد شاطىء نهر سنغال كان يعيش التكولور * Tuculor والسيرر ** Serer والولوف *** Woloff وفى الشرق على امتداد الشاطىء الأيسر لنهر النيجر

---

* تكرور بالانجليزية Tuculor وهي تحريف بسيط لاسم هذا الشعب كما تنطق به قبائل ولوف . وهو شعب زنجي يسكن الجزء الأكبر من وهاد فوتة السنغالية ومن بندو . وبلاد فوتة على جانبي نهر سنغال وان كان أكثرها على الجانب الأيسر من هذا النهر . وتنتشر مواطن التكرور أيضاً فى أنحاء من أفريقية الغربية وبخاصة فى كايس على السنغال الأعلى ، وفى نيورو فى ساحل السودان ، وفى سيجو على النيجر وفى ماسينة الشرقية ، وفى دنكراى الى الشرق من فوتة جالون . وهم يعيشون كذلك فيما بين نهر نيجر وبحيرة شاد وخاصة فى سكوتو بنيجرية . وأهل تكرور جميعهم مسلمون بل انهم من أسبق الشعوب السودانية الى الاسلام .

** السيرر قبائل تحتل شقة من الأرض تمتد فيما بين نهرى جمبيا والسالوم جنوبى الرأس الأخضر ، وكانت فيما مضى تحتل مناطق أخرى الى الشرق والجنوب من مواطنها الحالية مما جعلها فى وقت ما تجاور قبائل تكرور وألفت حينذاك مع قبائل ولوف قسما من امبراطورية تكرور .

*** قبائل الولوف يحتلون مع قبائل سيرر معظم الأراضى التى تشغل الشقة فيما بين نهرى سنغال وجمبيا . وتحتل قبائل ولوف الشقة الساحلية بين سنت لويس والرأس الأخضر بما فى ذلك دكار والشقة الجنوبية لنهر سنغال ، وينتشر توزيعهم الى الداخل فى منطقة متسعة ، وغالبيتهم تدين بالاسلام اسما وقليل منهم مسيحيون .

بين مدن تلابرى وبوسة الحاليتين عاش شعب سنغاى * Songhai ينقسم فى جماعات من الزراعيين أو صائدى السمك وبين السنغاى والتكولور عاشت المجموعة الكبيرة التى تتكلم لغـــة الماندى والمالنكة فى الجنوب والسوننكة ** فى الشمال يسكن هؤلاء منطقة واسعة بين نهر السنغال الأعلى فى الغرب وبحيرات النيجر فى الشرق ومنطقة الغابات فى الجنوب . وقبل عام ٢٠٠ ق . م كان السوننكة قد أسسوا مستعمرات لهم على حافة الصحراء وفى منطقة الحوض Hodh وأوكار Aukar بالصحراء الكبرى ***ويقع فى شرقى الماندنجو **** بين سنغاى فى الشمال ومنطقة الغـابات أجداد الشعوب الذين يتكلمون اليوم لغات فولتا أو لغـــات جور Gur وهم الموشى ***** Mossi والداجومبا والجورما وسنوفو Senufo والبوبو Bopo والكونكمبا Konkomba وغيرهم .

---

* تحتل بلاد سنغاى الاقليم الواقع فى جنوبى تنبكتو ومنحنى نهر النيجر . وأصل السنغاى زنوج اختلطوا بالكثير من الدماء الحاميـــة ، وبرغم اختـــلاطهم بالطوارق والفولة فانهم يؤلفون شعبا واحدا فى جميع مظاهره ويتكلم لغة واحدة ويتخذ من الاسلام دينا له ـــ سلجمان السلالات البشرية فى أفريقيا (الترجمة العربية) ص ٥٦

** السوننكة أو السركولة ، ويعرفون بأسماء أخرى، قبيلة زنجية كانت تعيش فى الصحراء ، واليوم بالقرب من ساحل المحيط اختلطت بالبربر والفولة وأفرادها يشتغلون بالزراعة وقد اعتنقوا الاسلام مبكرا وكان لاسلامهم رد فعل كبير على القبائل السودانية .

*** الحوض منطقـــة شبه صحراوية تقع غربى الصحراء الكبرى وتمتـــد الى الشرق من تنبكتو مسافة تقرب من مائتى ميل ويتجول فى طول الحوض وعرضه قبائل عربية أو بربرية مستعربة . أما أوكار فناحية صغيرة تقع شمالى ولاته والحوض عنـــد حافة الصحراء حيث تمس حدود مملكة غانة الشمالية .

**** الماندنجو ويسمون باسم الماندى من أهم الشعوب التي يتألف منها السنغال ويحتلون الاقليم الممتد بين المحيط الأطلنطي وأعالى نهر النيجر، وهذا هو الحد الشمالى، وخط عرض ٩ شمالا تقريبا وهو الحد الجنوبى ، وتضم الماندى قبائل عديدة منها دويلا وكاسونكي وجولنـــكي وبمبارة والسوننكة والمالينكة وفاى .

***** تؤلف قبائل موشى موصى Mossi شطرا كبيرا من سكان أفريقية (الفرنسية سابقا) حيث يتمركز توزيعهم حول واجدوجو ويصل الي الأطراف الشمالية القريبة من

أما معرفتنا بالشعوب التى كانت تعيش فيما بين شرقى سنغاى وفى منطقة الغابات من جمبيا إلى دلتا نهر نيجر فقليلة جداً . ويظهر أن شعوب شمالى أفريقية لم تسع إلى إقامة صلات دائمة مستقرة معهم قبل القرن العاشر. ولا يخفى أيضاً أن هؤلاء لم يحاولوا إطلاقا اختراق الغابات، ومع ذلك فإنه يبدو من الأمور المحتملة أنه حتى قبل غزوات البربر فى القرن العاشر ، تلك التى جاء فى أعقابها قيام دول الهوسا ****** Hausa كانت الشعوب التى تسكن المنطقة بين النيجر غربا وبحيرة شاد شرقا ؛ وفيما حول نهر بنوى جنوبا كانوا قد وقعوا تحت تأثير مهاجرين يتكلمون إحدى اللغات الحامية جاءوا من الشرق أو الشمال الشرقى من مواطنهم المجاورة لمنطقة نهر النيل أو الحبشة أو جنوب غربى شبه الجزيرة العربية. وهؤلاء المهاجرون الجدد امتصتهم القبائل الزنجية إلى حد كبير، ومع ذلك يظهر أن مؤثراتهم كانت قد وصلت إلى قبائل اليوربا * الذين يؤلفون اليوم غالبية سكان جنوب غربى اتحاد نيجيرية.

= ساحل غانة وهذه القبائل تشتغل فى الزراعة ولا يملكون من الماشية الا قطعان قليله وهم وثنيون (سليجمان ص ٥٧)

****** ينتمي الهوسا الى الجنس الزنجي رغم أنهم يتكلمون لغة حامية ولا تستطيع أن تعتبر الهوسا شعبا واحدا، فهم يمثلون خليطا من شعوب تنتمى الي أصول مختلفة . ويمتد الاقليم الذى يتركز فيه الشطر الأكبر من الشعوب الناطقة بتلك اللغة من زارية الى كتسينا وسكوتو فى شمال نيجيريا اليوم . ويقدر عددهم بخمسة ملايين ونصف المليون وهم يدينون بالاسلام .

* اليوروبا أكثر قبائل نيجيرية الوثنية أهمية ، تحتل شطرا كبيراً من الساحل الجنوبى لنيجيرية ، وهم أكثر شعوب غربي أفريقية تقدما، ويتمتع الفرد فى سلوكه بقسط كبير من الحرية، وهم تجار ناجحون ولهم آلهة كثيرة .

بين شمال أفريقيا وغربيها قبل الإسلام

لو أن العلاقات بين شعوب شمالى أفريقيا والزنوج ظلت مقتصرة على التجارة ، فمن المحتمل كثيراً أن يكون تاريخ غربى أفريقية شيئاً آخر يختلف عما آل إليه اليوم . فمنذ زمن قديم جداً أخذت بعض قبائل شمالى أفريقية فى الهجرة إلى داخل الصحراء وجنوبيها ، ثم اتصلوا مباشرة بالزنوج . وقد اقتصر هذا الاتصال قبل بداية العصر المسيحى على الغارات للاستيلاء على الرقيق الأسود . ولم يكن للتطورات السياسية التى حدثت فى شمالى أفريقية سوى صدى ضعيف فى مجرى الأحداث بالسودان الغربى. ولكن منذ القرن الأول إلى القرن الثالث عشر أجبرت الأحداث السياسية فى شمالى أفريقيا بعض الأهالى على اختراق الصحراء والاستيطان بين زنوج السودان . ثم بدأت تتضاءل أهمية هجرة الشماليين إلى غربى أفريقيا بعد القرن الثالث عشر ، ومع ذلك فإنها لم تتعطل تماماً .

ومنذ القرن الخامس عشر وما بعده بدأت جماعات من الأجانب الوافدين من أوربا عن طريق البحر يتدفقون باستمرار ،فكان لمجيئهم أثر واضح فى غربى أفريقيا وجنوبيها ، بلادا وشعوبا . وكانت تلك المؤثرات الأوربية فى بادىء الأمر لغرض التجارة ، تماما كما بدأ الأفريقيون الشماليون ، وكانت تجارتهم تنحصر فى الرقيق والذهب . وسرعان ما تطورت الأغراض التجارية إلى استعمار سافر دعامته القوة ونهب البلاد .

والملاحظة التى تسود تاريخ غربى أفريقيا فى خلال الألفى سنة الأخيرة هى فى الحقيقة اتصال ونضال الشعوب الزنجية بالقادمين الجدد من أفريقيا الشمالية وأوربا ، وما كان لنشاطهم المتدفق من تأثير على تطور أحوال

الزنوج . وجدير بنا أن نكرر القول بأن كتابة تاريخ غربى أفريقيا لا يكمل مطلقا دون العناية بدراسة وبحث طبيعة وتاريخ شعوب شمالى أفريقية ،وذلك كما ذكرنا فيما سبق لشدة اتصال المنطقتين حتى الأزمنة الحديثة. هذا التأثير الذى كان أعمق بكثير من تأثير الأوربيين .

إن أمامنا ثلاثة أقوام مختلفة جديرة بالبحث تتميز بعضها عن بعض وهؤلاء هم البربر والعرب واليهود . وهم ينتسبون جميعاً إلى الفرع القوقازى فى الأسرة البشرية كالأوربيين ، أما البربر فمن الشعوب الحامية . ومن المحتمل جداً أنه قد مر على كل من الحاميين والزنوج فى أفريقيا نفس المدة التى مرت على الآخر . وقد حافظ البربر الحاميون الذين يعيشون فى المنطقة الممتدة بين برقة إلى غربى القـارة على خصائصهم الجنسية ،ويكاد لم يمسها شيء ، وهم ما يزالون إلى اليوم مجموعة جنسية سائدة وبشرتهم تكاد تـكون بيضاء اللون وقامتهم تقل حوالى بوصة واحدة عن قامة الزنوج . أما العرب واليهود فهم ساميون يشتركون فى سمات مماثلة مع الحاميين ، وهم ينتسبون إلى أصل واحد ، لأنهم جاءوا إلى أفريقيا فى جماعات كثيرة حتى عصر انتشار الإسلام فى القرن السابع . فقد غزا العرب مصر فيما بين ٦٣٩ م ٦٤٢ وانطلقوا مساحلين عبر الصحراء والتقوا بالبربر فى موجات متتالية. وكانت الغارات الإسلامية العربية فى شمالى أفريقية فى البداية مؤلفة من جماعات من الفرسان قليلة العدد ، ولم يستطيعوا التغلب نهائياً على البربر إلا بعد عشرات السنين . وكانت الأحوال فيما بين القرنين الحادى عشر والثانى عشر قد استتبت نوعا فى شمالى أفريقيا فى أعقاب غارات عنيفة جداً ،وكان قوامها عدة قبائل بدوية من العرب القادمين من شبه الجزيرة العربية منها بنو هلال وبنو حسان . ومن المحتمل أنه وصل إلى تلك البلاد ما لا يقل عن ربع مليون عربى فى الفترة المذكورة . وكان من نتائج تلك

الغزوات استعراب البربر وقبولهم اللغة العربية ودخولهم أفواجاً فى الإسلام.

أما تاريخ اليهود فى شمالى أفريقيا فليس واضحاً كل الوضوح، وتوضح بعض المراجع الرومانية استقرار بعض الطوائف اليهودية فى برقة ولا سيما فيما بين القرنين الأول والثانى. ولما بدأ العرب غزو شمالى أفريقيا فى القرن السابع اتصلوا بالمستعمرات اليهودية المتناثرة بين قبائل البربر إلى الغرب حتى المغرب الأقصى. وكان غالبية البربر فى شمالى أفريقيا زراعيين مستقرين، وكان اليهود يقيمون بينهم يزاولون بعض الحرف وأعمال التجارة وتربية الماشية. وكان بين البربر بعض القبائل التى تشتغل فى الرعى، ومن هؤلاء من كانوا رحلا فى السهوب يتنقلون بين المنطقة الزراعية فى شمالى أفريقيا والصحراء. ومن المحتمل أن بعض هؤلاء البربر وقعوا تحت تأثير اليهود وهؤلاء البربر الذين يشبهون كثيراً الطوارق كانوا أول المتصلين بزنوج السودان، وقد اندفعوا فى أثناء بحثهم عن الأراضى الصالحة لرعى قطعانهم فى قلب الصحراء وفى موريتانيا، وكانت طوائف منهم قبل بداية العصر المسيحى قد انطلقت نحو الجنوب وهم يغزون القبائل الزنجية فى منطقتى حوض وأوكار*

ويذكر المؤرخ دى لافوس De lafosse أن أول استقرار دائم لأقوام من شمالى أفريقيا فى بلاد الزنوج تم فى أعقاب الثورات اليهودية ضد الحكم الرومانى فى برقة فى القرنين الأول والثانى الميلاديين، مما أدى إلى خروج جماعات كبيرة قاصدة الجنوب والغرب. وقد عبر هؤلاء اليهود أو البربر المتهودون من الرعاة الصحراء ثم أقاموا بين شعب السوننكة المزارعين الذين يعيشون عند منحنى النيجر فيما بين المكان الذى تشغله

* Fage : المصدق السابق ذكره ١٤ — ١٣ ص

تنبكتو * وما سينة ، ثم طردوا فى زمن ما من تلك المنطقة واتجهوا إلى الغرب فى أوكار ولحق بهم فيما بعد جماعات أخرى كبيرة العدد مروا بطريق فى غربى القارة فى جنوب مراكش . ويظن أن هؤلاء القادمين هم الذين أسسوا مملكة غانة القديمة . أما شعب هذه المملكة فكان غالبيته من السوننكة ، وبمرور الزمن تصاهرت الأقوام : البيض والسود واندمجوا سويا بل امتصهم فى الواقع الشعب الزنجى ، أما الذين لم يندمجوا تماما فى البيئة السوداء فقد طردهم السوننكة فيما بعد ، واتجه هؤلاء إلى أقصى الغرب فى تكرور وفوتة وكان ذلك فى القرن الثامن الميلادى .

وكان انتشار الأفريقيين الشماليين فى بلاد الزنوج حتى القرن الثامن عبارة عن حركة لقبائل بربرية من الرعاة اعتمدوا على الغزو لا على الإقامة الدائمة أو جماعات صغيرة نسبياً ممن فضلوا الاستيطان بصفة دائمة . وكان لهؤلاء تأثير أعمق مما يظن بالرغم من قلة عددهم .

فلما زاد ضغط الفتوح العربية فى شمالى أفريقيا منذ القرن الثامن اشتدت بطبيعة الحال حركة التوغل العربية فى اتجاه الجنوب ومن ثم اتسع نطاق تأثيرها فى محيط أفسح واكتسب الدوام والاستقرار . وفيما بين القرنين الثامن والحادى عشر حلت بعض قبائل البربر ممن لم يعتنقوا الإسلام واستقروا فى أدرار بالقرب من ساحل المحيط وتاجنت فى جنوبيها والحوض واستولوا على مناجم الملح فى تغازا شرقى موريتانيا وتاوديني واستغلوها بمعاونة العبيد الزنوج . وعلى مر الأيام قويت العناصر السوداء بين البربر فى تلك الجهات التى ذكرناها ومن ثم أصبحت لهم كلمة مسموعة.

كان هذا من عواقب غارات البربر الصغيرة ، أما نتائج غزواتهم

---

* لم تصبح تنبكتو مدينة اكتسبت صفة الدوام حتى عام ١١٠٠ م بالرغم أن موقعها كمركز تلتقي فيه طرق القوافل الصحراوية ونهر النيجر أدى الى اقامة معسكرات للبربر هناك .

الكبرى لغربى أفريقيا أثناء القرنين الحادى عشر والثانى عشر فقد كانت حقاً بعيدة الأثر والأهمية . فقد وصلت بعض القبائل العربية إلى جنوبى الصحراء ومن هؤلاء قبائل بنى حسان ، فإنهم بعد أن انطلقوا من جنوبى المغرب الأقصى وغزوا إدرار ، وصلوا إلى سنغال السفلى فى نهاية القرن السادس عشر ثم اتجهوا إلى الشرق حيث تاجنت والحوض . وكان على قبائل البربر الذين يسكنون المناطق الواقعة شمالى سنغال والنيجر أن يختاروا بين اثنتين ، إما الخضوع للعرب وقبول سيادتهم وإما اجتناب الاصطدام بهم والرحيل إلى مناطق أخرى ، والواقع أن ما حدث هو قبول غالبية البربر الدخول فى الإسلام ومن ثم تعربوا . . . واستطاعت بعض القبائل النائية النجاة فلم يلحق بها الأذى ، وهؤلاء كانوا قبائل الطوارق . أما قبائل جدالة فقد عبروا نهر النيجر قاصدين بلاد السودان (الغربى) .

وهكذا تتجلى لنا تأثيرات شعوب شمالى أفريقية (من العرب والبربر) فى السودان وشعوبه فى خلال القرون الثمانية عشرة الأولى ، ويمكن إيجاز تطور تلك التأثيرات فى الصورة التالية :

أولا : بدأت شعوب أفريقيا الشمالية تتاجر مع الزنوج ولا سيما فى تجارة الرقيق .

ثانيا : وتحولت بعد ذلك إلى الإقامة فى الجهات الشمالية من السودان الغربى شمالى نهر النيجر وسنغال ، لهم الكلمة السياسية العليا على الزنوج فى البداية ثم اختلطوا بهم ووسعوا نشاطهم التجارى نحو الجنوب إلى حافة منطقة الغابات الشمالية .

ثالثا : وأخيراً غزا العرب تلك الأقوام المندمجة شمالى سنغال والنيجر وأدخلوهم فى الإسلام . وفى نفس الوقت بدأت تنتقل إليهم بعض

القبائل غير الإسلامية للإقامة معهم ثم اختلطوا بالزنوج جنوبى نهرى سنغال والنيجر .

ولقد تطورت أخلاق بل ودماء الجنس الزنجى فى كل مكان غربى أفريقيا شمالى منطقة الغابات وكان ذلك نتيجة الاتصال بالقادمين من الشمال ومصاهرتهم . وفى شمالى السنغال والنيجر كان التأثير « الأجنبى » جليا وسائداً ، وجاء فى أعقاب ذلك اعتناق غالبية من الزنوج الدين الإسلامى وتعلمهم اللغة العربية واتخاذ العادات والتقاليد الوافدة عليهم . أما فى جنوبى النهرين فقد ظل للعنصر الزنجى السيادة ولكنه تأثر بتجارتهم ودينهم وعاداتهم أيضاً . . .

الفصل الثاني

انتشار الإسلام فى أفريقيا

انتشار الإسلام فى أفريقيا

كان للفتوح العربية أثر جلى فى انتشار الدين الإسلامى فى الأقاليم التى فتحها العرب خارج شبه الجزيرة العربية ، فدخل الإسلام تلك البلاد مع الجيوش العربية . وما لبث أن حل محل الأديان التى استقرت قبله ، ثم أصبح المسلمون أغلبية فيها . ومع ذلك فالثابت أن الدولة العربية التى قامت على أساس الدعوة الدينية والتى كان هدفها حماية الإسلام لم تضطهد أحداً من أهل الذمة أو ترغمه على ترك دينه . ذلك لأن القرآن الكريم لا يرضى الإكراه للدخول فى الإسلام . وفى هذا يقول الله تعالى :

« لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى »

وقد رأينا العرب فى مصر وفى غيرها من البلاد التى فتحوها يخيرون أهالى البلاد المفتوحة بين ثلاثة أمور : الإسلام أو الجزية أو الحرب . ولم يبالغ العرب فى تقدير الجزية بل راعوا فى تقديرها ثروة الفرد . فالغنى لا يجبى منه مثل الفقير أو متوسط الحال ، ويقول الكونت دى كاسترى *

« إن الإسلام لم يكن له دعاة مخصوصون يقومون بالدعوة إليه وتعليم مبادئه كما فى المسيحية ، ولو أنه كان للإسلام أناس قوامون لسهل علينا معرفة السبب فى انتشاره السريع ، فقد شاهدنا الملك شارلمان يستصحب معه على الدوام فى حروبه ركباً من القسس والرهبان ليباشروا فتح الضمائر والقلوب بعد أن يكون هو قد باشر فتح المدن والأقاليم بجيوشه التى كان يصلى بها الأمم حرباً لا هوادة فيها ، ولكننا لا نعلم للإسلام مجمعاً دينياً ولا رسلا وأحباراً وراء الجيوش فلم يكره أحد عليه بالسيف ولا باللسان » .

---

* الاسلام وخواطر وسوانح .ص ٣٩ — ٤٠

دخل الإسلام القارة الأفريقية بصحبة الجيش العربى الذى غزا مصر بقيادة عمرو بن العاص عام ٢٠ هـ — ٦٤٠ م ، وأخذ الدين الحنيف ينتشر تدريجياً فى مصر كلما تقدم العهد بالعرب فيها ، على أنه وجدت فترات معينة كان التحول فيها إلى الدين الإسلامى بكثرة ، وما ذلك إلا تحت تأثير ظروف وعوامل مختلفة ناشئة عن سياسة الخلفاء وولاتهم الذين يمثلون تلك السياسة . وهكذا لم يكن انتشار الإسلام بمصر راجعاً كله إلى تأثير الحكومة المركزية بدار الخلافة ، فقد اعتنق بعض القبط الدين الإسلامى منذ البداية حبا فى الانتماء إلى دين الطبقة الحاكمة والتمتع بما لها من الحقوق. ولا ريب فى أن فريقاً من القبط أقبلوا على اعتناق الإسلام عن إيمان واقتناع . ولعل فريقاً كان قد مل الخلافات الدينية التى كانت تقسم العالم المسيحى فى ذلك الوقت والاضطهاد الذى كان يتعرض له أصحاب المذهب الذى لا تؤيده الحكومة السائدة .

وإذا كان من اليسير أن نقف على مدى انتشار الإسلام فى مصر وبعض أجزاء الشريط الساحلى لأفريقيا فإنه من الصعب أن نصور انتشاره فى كافة أرجاء تلك القارة تصويراً دقيقاً يقوم على نظام تاريخى فقد كانت هناك عوامل كثيرة ساعدت على درجة انتشاره كما سنرى ولا سيما بعد هدوء حركة الفتوح العربية.

ويمكن القول إن الإسلام فى انتشاره بين شعوب أفريقيا مر بثلاث مراحل رئيسية :

المرحلة الأولى

تبدأ من عام ٦٤٠ وتنتهى حوالى ١٠٥٠ م. تم فى تلك الفترة فتح المسلمين شمالى أفريقيا وإدخالها فى دينهم ، وفى بقاع تمتد من ساحل البحر المتوسط شمالا إلى السودان جنوبى الصحارى الكبرى .

بعد أن تم فتح مصر اتجه العرب نحو الغرب واستطاعوا أن يحرزوا

النصر على جيوش الروم ومن ساعدهم من الأهالى ولا سيما البربر، ولكن وقف هؤلاء طويلا فى وجه الغزاة المسلمين ، وكانت سنة ٧٣٠م آخر وقفة لهم بعد مقاومتهم العنيدة حين أوصتهم زعيمتهم الكاهنة بأن يسلموا ويجتنبوا القتال . أما هى فقد اختارت لنفسها أن تموت وهى تحارب فى جانب مواطنيها . وعقـد الصلح بين العرب والبربر على شريطة أن يقدم الأخيرون اثنى عشر ألف محارب إلى صفوف الجيش العربى . وبانضمام هؤلاء إلى القوات العربية أمل القواد أن يدخلوهم فى الإسلام ، ومن هؤلاء البربر تألف قسم كبير من الجيش الذى أبحر من أفريقيا عام ٧١١ م ليفتح اسبانيا بقيادة طارق بن زياد البربرى .

وعنى موسى بن نصير باختيار العلماء والفقهاء من العرب ليفسروا للبربر آيات القرآن ويعلموهم ما فرضه الدين الجديد من واجبات .

ولا يمكن القول بأن دخول البربر فى الإسلام كان سريعاً ، بل كان عمل قرون عديدة ، ولم ترسخ قدم الإسلام بينهم إلا بعد أن اتخذ شكل حركة قومية وأصبح مرتبطاً بتولى البربر الحكم .

وكان ينطوى ظهور المرابطين (فى القرن الحادى عشر) على حركة قومية عظيمة جذبت عدداً كبيراً من قبائل البربر نحو الاندماج فى الأمة الإسلامية ، وذلك عندما قام فى مستهل القرن الحادى عشر الميلادى يحى بن إبراهيم شيخ قبيلة صنهاجة إحدى قبائل الصحراء بعد عودته من تأدية فريضة الحج للبحث عن شيخ فاضل ليعاونه على تعليم رجال قبيلته أصول الدين . ثم وجد أخيراً فى عبد الله بن يس الشخص الذى يليق لهذا العمل .

وأجاب عبد الله الدعوة وكرس نفسه لهداية هؤلاء الناس ، ولكن العنف الذى كان يستخدمه معهم حولهم عنه وشعر أنه أخفق فى رسالته .

وقرر أن يهجر هذا الشعب ويقصر جهوده على هداية بعض شعوب السودان إلى الإسلام وفى طليعتها شعب غانة . ولما استحث على ألا يترك عملا كان قد زاوله من قبل ، لجأ مع من جمعتهم حوله دعوته من تلاميذ إلى جزيرة فى نهر السنغال حيث بنوا بها رباطاً وأسلموا أنفسهم فيه لعبادة متصلة .

أما هؤلاء البربر الذين هجرهم فقد شعروا بوخزة الضمير وجاءوا إلى جزيرته يلتمسون منه العفو . ويبدون استعدادهم لتلقى التعاليم الدينية ، وعلى هذا النحو تجمعت حوله هناك جماعة صلبة من تلامذته أخذت فى النمو حتى بلغت حوالى ألف شخص .

ورأى بعد ذلك عبد الله بن ياسين — وقد بارك الله فى عمله — أن يطلب إلى أتباعه بأن ينقلوا العلم إلى غيرهم من الناس والخروج إلى محيط أفسح ومن ثم ذهب كل رجل إلى قبيلته وعشيرته للوعظ والإرشاد . ولكنهم لم ينجحوا فى هذه السبيل . وأخيراً قاد أتباعه فى سنة ١٠٤٢ م — وكان قد أطلق عليهم المرابطين — وهاجم القبائل المجاورة وأرغمها على قبول الإسلام وكان النجاح حليفه.

ومات عبد الله بن ياسين فى عام ١٠٥٩ م ولكن الحركة النبيلة التى كان قد بدأها لم تمت بموته . بل جاءت قبائل كثيرة من البربر لتزيد فى جموع أبناء وطنهم المسلمين وتدفقوا من الصحراء على إفريقيا الشمالية ثم فرضوا سيادتهم على أسبانيا .

المرحلة الثانية

كان الإسلام قد توقف قليلا فى أخريات القرن العاشر بسبب ثورات البربر وحروب الروم وفتن ملوك المغرب . ولكنه فى القرن الحادى عشر استأنف همته ودخلت فى حظيرته قبائل الصحراء وأسست

فى السودان ممالك ومراكز كبيرة كان لها أثر خطير فى نشر الدعوة الإسلامية . ويمكن القول إن هذا الدور كان بين القرن الحادى عشر والسابع عشر وكان مجاله الرئيسى غربى أفريقيا والسودان الغربى بين الزنوج .

ويكتنف الغموض تاريخ دعوة الإسلام بين الزنوج . ويظهر أن البربر كانوا أول من أدخلوا الإسلام فى البلاد التى يرويها نهر السنغال والنيجر حيث اتصلوا بممالك وثنية كان بعضها مثل غانة وسنغاى عريقاً فى القدم . وكانت القبيلتان البربريتان لمتونة وجدالة اللتان تنتميان إلى صنهاجة تتميزان بحماستهما الدينية فى تحويل الناس إلى الإسلام ،وبجهودهم أثرت حركة المرابطين فى قبائل السودان الوثنية . وكان عهد يوسف بن تاشفين مؤسس مراكش (١٠٦٢ م) وثانى أمراء دولة المرابطين حافلا جداً بدخول الناس فى الإسلام . وفى عام ١٠٧٦ م طرد البربر الذين ظلوا وقتاً ما ينشرون الإسلام فى مملكة غانة الأسرة الحاكمة وأسلم كثير من أفراد الشعب .

وفى القرن الثالث عشر فقدت غانة استقلالها الداخلى واحتلها المندنجو (مالى) .

أما عن دخول الإسلام مملكة سنغاى ، فالذى يعرف أن أول ملوكها المسلمين كان يسمى زاكس من أسرة زا وقد اعتنق الإسلام فى عام ٤٠٠ هـ (١٠٩٠ — ١٠١٠ م) واصطلح على تسميته فى لغة سنغاى مسلم دام .

وهؤلاء السنغاى من الجنس النوبى ويقال إنهم رحلوا عن مصر العليا عند الفتح العربى وقد قضى على دولتهم المنصور السعدى سلطان مراكش *

(*) فتح المنصور صاحب المغرب تنبكتو والسودان والنيجر وهو من أشهر الملوك الذين عمروا فى الاسلام وقد شيد فى حاضرة مراكش القصر المسمى بالبديع واستغرق بناؤه ست عشرة سنة وحشد له الصناع وجلب له الرخام من بلاد الروم .

الذى مد سلطانه إلى أبعد من منعطف النيجر وجميع البلاد المعروفة الآن بغانة وداهومى ونيجيريا. وكانت هذه السلطنة منقسمة إلى أربع ممالك وكانت قاعدتها جنى (أو دينية وقد تأسست عام ٤٣٥ هـ - ١٠٤٣ م) مركز التجار والعلماء الوافدين عليها من المغرب الأقصى والجزائر ومصر. ولم تكن تنبكتو سوقاً لتجارة أواسط أفريقية فحسب. بل كانت دار علم يقصدها الراغبون فى تحصيله وفى عام ١١٢٠ م كان أهل النيجر قد دخل معظمهم فى الدين الحنيف.

وقد أسلم كنبرو ملك جنى حوالى نهاية القرن السادس الهجرى (حوالى ١٢٠٠ م) وحذا حذوه سكان المدينة. ثم هدم قصره وشيد فى مكانه مسجداً عظيما. وقد أثنى ابن بطوطة الذى وصل إلى تلك البلاد فى أواسط القرن الرابع عشر على حماسة الزنوج فى أداء عباداتهم وفى دراسة القرآن * وفى عصره كانت مالى أقوى دولة فى السودان الغربى، وكان شأنها قد علا قبل ذلك بقرن وشعبها الذى عرف باسم المندنجو كان من أنشط الدعاة إلى الإسلام، وبواسطتهم انتشر الدين الحنيف بين الجماعات المجاورة لهم.

ومملكة مالى هى التى تعرف فيما كتبه المسلمون باسم بلاد التكرور. وقد تكلم عنها بإفاضة القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى وابن خلدون فى تاريخه الكبير (العبر) وقد جاء فيه أنها تشتمل على خمسة أقاليم وكل إقليم منها مملكة بذاتها. الإقليم الأول مالى واقع بين إقليم صوصو وإقليم كوكو وإقليم غانة وإقليم التكرور.

كانت هذه الممالك بين ملوك متفرقة، وكان من أعظمها مملكة غانة، فلما أسلم الملثمون من البربر تسلطوا عليهم بالغزو حتى دان كثير منهم بالإسلام، ثم ضعف بذلك ملك غانة واضمحل فتقلب عليهم أهل صوصو المجاورون وملكوها.

(*) ابن بطوطة — الرحلة ج ٤ ص ٤٢١ — ٤٢٢

وكان ملوك مالى قددخلوا فى الإسلام من زمن قديم. وقيل إن أول من أسلم منهم ملك اسمه « برمندانة » ثم حج بعد إسلامه فاقتفى سنته فى الحج ملوكهم من بعده. ثم جاء منهم ملك اسمه « مارى جاطه » (الأمير الأسد) فقوى ملكه وغلب على صوصو وانتزع ما كان بأيديهم من ملكهم القديم.

وملك من بعده — « منساولى » (منسا أى السلطان) ومعنى ولى على — وكان من أعظم ملوكهم وحج أيام الملك الظاهر بيبرس. ثم ملك بعد أخوه « والى » ثم خليفة وكان أحمق، فوثب عليه أهل مملكته وقتلوه. ثم أبو بكر وساكبوره، وفى أيامه تم فتح بلاد كوكو وأضافها إلى مملكته واتصل ملكه من البحر المحيط الغربى إلى بلاد التكرور وحج أيام السلطان الناصر محمد ابن قلاوون ثم قتل فى أثر عودته.

ومن أهم ملوكهم « منسا موسى » بن أبى بكر وكان رجلا صالحاً وملكا عظيما له أخبار فى العدل تؤثر عنه وعظمت المملكة فى أيامه.

كانم :

رأينا أن أقدم الممالك الإسلامية فى غربى أفريقيا نشأت فى سنغال فى حدود القرن الحادى عشر. وقد دخل الدين الحنيف إلى كانم عن طريق مصر، وهى مملكة واقعة إلى الشمال والشمال الشرقى لبحيرة تشاد. وبعد اعتناق أهلها الإسلام أصبحت دولة ذات أهمية وبسطت سلطانها على بعض قبائل السودان الشرقى إلى حدود مصر وبلاد النوبة. ويقال إن أول ملوك كانم المسلمين، حكم إما حوالى نهاية القرن الحادى عشر وإما فى النصف الأول من القرن الثانى عشر. وفى نهاية القرن الرابع عشر نقل عمر بن إدريس قاعدة بلاده إلى غرب بحيرة تشاد فى منطقة برنو التى أصبح اسم مملكة كانم معروفاً بها منذ ذلك الحين.

دارفور :

ولم تدخل دار فور فى الإسلام إلا بجهود أحد ملوكها ويدعى سليمان، وقد بدأ حكمه حوالى سنة ١٥٩٦ * ولم ترسخ قدم الإسلام فى الممالك الأخرى الواقعة بين كردفان وبحيرة تشادكواداى وباجرمى إلا فى القرن السادس عشر .

المرحلة الثالثة

وننتقل بعد ذلك إلى المرحلة الثالثة من انتشار الإسلام فى أفريقيا، وتمتد من عام ١٧٥٠ إلى عام ١٩٠١، وفيها نهض الإسلام نهضة قوية على أيدى مشايخ الطرق أو الإخوان . وذلك أنه فى أواخر القرن الثامن عشر لما دخلت الدعوة البروتستانتية إلى أفريقيا وضاعفت الكنيسة الكاثوليكية فيها مجاهديها — كان لابد من أن يتنبه الإسلام لمقاومة المسيحية. وأكثر أسباب هذه النهضة راجع إلى التصوف والاعتقاد بالأولياء وبظهور المهدى فى السودان .

ويمتاز هذا الدور بظهور عدد كبير من المصلحين الدينيين من الجنس الأفريقى وهم :

عثمان دان فوديو ومحمد الأمين الكانمى والحاج عمر بن إدريس ومحمد المهدى وإمام الصمد ، فالأول يعود الفضل اليه فى نشر الإسلام بين قبائل الحوسا وهو ينتمى إلى قبائل الفولة ** وكان قد تلقى علومه الدينية فى

Slatin : Fire and Sword in the Sudan. pp. 38, 40 *

** الفولة أو الفلبي ومفردها فول اسم أطلقه الشعب على نفسه ويطلق عليهم جيرانهم أسماء مختلفة تربو على المائة أشهرها فلا وفلاني .

مكة والمدينة وتأثر بمبادىء الوهابيين ، وبعودته إلى بلاده عمل على نشر لواء الإسلام بين مواطنيه ،وكان مبشراً من الطراز الأول ثم أسس دولة فى شمال نيجيريا والكاميرون وبنى مدينة سوكوتو عام ١٨٠٢ (دفن فيها عام ١٨١٦/ ١٨١٧) .

وإن ما لدينا من أخبار الفولة (الفلبى) فى مستهل القرن الثامن عشر ليصورهم لنا فى صورة أناس مسلمين نشيطين فى أعمالهم دانوا بالإسلام فى وقت مبكر ، وهم شجعان كأى شعب فى أفريقية ومهرة جداً فى استعمال أسلحتهم ، وقد وحد عثمان الفودى جماعات كثيرة من الفلبى المتناثرة فى شتى أقاليم الهوسا وجعل منهم جماعات قوية، وسرعان ما قادهم إلى الأقطار الوثنية المحيطة بهم فسقطت الواحدة بعد الأخرى وأصبحت كل أراضى الهوسا تحت حكم عثمان قبل وفاته ، وهكذا استطاع أن يرأس دولة كبيرة فى شمال نيجيرية واتخذ له عاصمتين هما سوكوتو وكانو وأعلن نفسه أميراً للمؤمنين ، وقد قسم الفودى مملكته بين ولديه اللذين زادا كذلك فى توسيع حدود دولة الفولة ،وتعين مدينة أدماوا التى أسست عام ١٨٣٧ على أنقاض عدة ممالك وثنية حدود فتوحاتهم تجاه الشرق ، وكانت مدينة أيلورين فى بلاد اليوروبا التى تأسست فى عهد عثمان هى الحد الجنوبى الغربى لإمبراطورية الفولة، وقد ظلت السيطرة على هذه البلاد طوال القرن التاسع عشر فى أيدى الفولة حتى قامت الإدارة البريطانية فى نيجيرية سنة ١٩٠٠

على أن الإسلام لم يدخل فى الجزء الجنوبى من نيجيريا إلا فى سنة ١٨٩٣ ، ومنذ ذلك الحين نلاحظ انتشار الإسلام على طول ضفتى نهر النيجر فى نيجرية الجنوبية .

الحاج عمر

كان الحاج عمر ابن شيخ مرابط من قبيلة توكولير ولد سنة ١٧٩٧ فى قرية الغار من بلاد ديمار فى السنغال على الضفة اليسرى من النهر بين والو من الغرب وتورو من الشرق . فرباه أبوه وعلمه ثم حج البيت الحرام (١٨٢٧) وزار المدينة وقرأ مدة فى الأزهر وعاد إلى برنو سنة ١٨٣٣ ثم ذهب إلى بلاد الهوسا وأخذ يعظ الناس بالرجوع إلى عقيدة السلف ويطعن فى تساهل القادرية . وفى أثناء ذلك جاء أخوه أحمد ومضى به إلى بلاد فوتاجالون بالسنغال فعرج على بلاد — البامبارة وحصلت معه هناك حوادث كثيرة تغلب عليها وانضم اليه فى بلد كنكان (مدينة فى السودان الفرنسى السابق جنوبى النيجر الأعلى) رجل يقال له محمد وصار على طريقته وأدخل فى الإسلام شعباً من الفولة يقال لهم الواسولونكه *

ولما علت كلمة الحاج عمر حشد جيشاً صغيراً وأثار جميع مسلمى بلاد غابون (فى بلاد الكونغو الفرنسى) ووطد فيها دعائم الطريقة التيجانية . وفى سنة ١٨٤٧ عاد إلى نواحى فوتاجالون وبنى قلعة حصينة فى دينقيراى (Dinguiray) فى (السودان الفرنسى شمال النيجر) وهزم البامبارة الوثنيين شر هزيمة فى تومبا واستولى بعدها على كونياكرى (من بلاد غنيا) وفى سنة ١٨٥٤ جعل مقره العام فى نيورو (من السودان شمالى السنغال الأعلى) ثم استولى على مملكة سيغو (من السودان على الضفة اليمنى من متوسط النيجر قاعدة ملك احمد وقد افتتحها الفرنسيون سنة ١٨٩٠) وعلى بلاد ماسينه .

ولم يحتمل الفوله تحكم الحاج عمر فحاصروه فى مغارة كان التجأ اليها وأطلقوا عليها الدخان فمات فيها مختنقا .

(*) حاضر العالم الاسلامى ص ٢٧٦

وكانت وفاته سنة ١٨٦٥ وقد خلف لطريقة التيجانية سلطنة إسلامية كبيرة فى وسط بلاد الزنوج الوثنيين ، وخلف الحاج عمر ابن أخيه ومريد آخر اسمه أحمدو شيخو بن عمر . ويقال إن أحمدو هذا كان ابنه وقد ظل ملكا فى عاصمته سيفو حتى وقع فى قبضة الجيوش الفرنسية .

امام الصمد (صمودو) :

وفى حوالى الثلث الثانى من القرن التاسع عشر قامت فى جنوب سنغامبيا على يد أحد الماندنجو حركة نشيطة لنشر الدعوة الإسلامية ويدعى رائدها صمودو وقد اشتهر باسم صمدى ، وكان فى الأصل جنديا وثنياً ولد حول سنة ١٨٤٦ واعتنق الإسلام وجمع حوله القبائل وأسس حكومة قوية فى جنوب سنغامبيا فى البلاد التى يرويها الحوض الأعلى من نهر النيجر وروافده .

وإن تتبع سلسلة فتوحات هذا الجندى الباسـل ليس بالأمر اليسير ولكنها تميزت بكثرة المذابح وبشاعتها ، والمعروف أن إمام الصمد بلغ أوج قوته حوالى سنة ١٨٨١ ، وبعد ذلك بقليل تنازع مع الفرنسيين فأسروه عام ١٨٩٨ — ومات عام ١٩٠٠ .

الإسلام فى الحبشة

استقرت المسيحية فى الحبشة منذ القرن الرابع الميلادى وكان للكهنوت أثر كبير فى المجتمع الحبشى والمعروف أنه كان للعرب صلات تجارية قديمة بهذه البلاد ، كما كان للأحباش مثلها فى اليمن وشبه الجزيرة العربية .

ولما انبثق نور النبوة ولاقى قوم سيدنا محمد « صلى الله عليه وسلم » الأذى أشار على أصحابه بالهجرة من مكة إلى الحبشة ليسلموا من أذى مواطنيهم وقال لهم : إن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لهم فرجاً مما هم فيه * .

فى السنة الخامسة من النبوة خرج المهاجرون الأولون، وكانوا أحد عشر أو إثنى عشر شخصاً وأربع نسوة أو خمساً . . خرجوا خفية فى شهر رجب . فوصلوا إلى ساحل البحر حيث ركبوا سفينتين إلى الحبشة وما كادوا يستقرون حتى أشيع بينهم أن كفار قريش فى مكة قد آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم فعاد المهاجرون ثانية إلى مكة فى شوال من نفس السنة ** .

وفى هذه السنة ذاتها بدأت هجرة ثانية إلى بلاد الحبشة ، فيها عدد كبير من الصحابة ، قيل إن عددهم بلغ الثمانين عدا النساء والأطفال ، ولما وصلوا رحب بهم النجاشى وأسكنهم مجتمعين ليقيموا شعائر دينهم ، ويقال إنه أسلم على يد جعفر بن أبى طالب .

---

* تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٢٢٢

** هناك رأى يقول أن أفراد هذا الفوج الأول لم يكونوا مهاجرين بل كانوا بعثة اسلامية أرسلها النبي الى ملك الحبشة للتعرف على مدى رغبة النجاشي واستعداده لقبول المهاجرين .

خشي كفار قريش أن يؤلف المهاجرون قوة للدعوة للإسلام فى الحبشة وأنهم قد يعودون بصحبة جيش حبشي لنصرة الرسول ، ولم يكن القرشيون قد نسوا حملة أبرهة الأشرم على بلادهم ، فجمعوا هدايا نفيسة ليقدمها وفد منهم إلى النجاشي والبطارقة وكان الوفد مؤلفاً من عمرو ابن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة وغيرهما .

واجتمع الوفد بالنجاشي وطلب أعضاؤه منه ألا يصغى إلى كلام المهاجرين ولكنه أبى أن يبت فى مطالبهم قبل أن يسمع كلام المهاجرين ، وكان جعفر بن أبى طالب أول المتكلمين ، فوصف للنجاشي فضائل الإسلام وأهدافه وكفر القرشيين وعبادتهم الأصنام .. إلخ *

ولما تغلبت حجته على خصومه ، قال النجاشي لعمرو ورفيقه : انطلقا والله لا أسلمهم إليكما . ورد إليهما الهدايا وقال للمهاجرين : اذهبوا فأنتم آمنون .

بقى المهاجرون فى الحبشة إلى العام الثانى للهجرة (٦٢٩م) حتى أرسل النبي فى طلبهم فعادوا إلى المدينة بعد أن أقاموا نحو ست عشرة سنة . ولم يستطع المهاجرون فى أثناء إقامتهم بالحبشة أن يحولوا أحدا إلى دينهم .

وأراد عمر بن الخطاب نشر الدعوة الإسلامية فى الحبشة فوجه إليها سرية من المسلمين عام ٢٠ هـ - ٦٤١ برياسة علقمة بن مجزز المدلجى فلم توفق ونالها الأذى ، ثم عاد من بقى من أفرادها .

ومنذ ذلك الحين ظل المؤرخون والجغرافيون من العرب يجهلون

---

* ابن هشام — السيرة ج ١ ص ٣٥٨ — ٣٥٩

جغرافية الحبشة وأخبارها حتى جاء المقريزى (٨٤٥ هـ) فكان أول مؤرخ ذكر أخباراً صحيحة عن الحبشة وتاريخها فى عصره * .

* * *

وفى عام ٨٣ هـ — ٧٠٢ م أغار الأحباش على جدة وأثروا على تجارة مكة مما كان له رد فعل عند العرب — فقرروا لحماية متاجرهم فى البحر الأحمر أن يحتلوا جزائر دهلك المواجهة لميناء مصوع ، وبذلك أقام المسلمون رأس جسر يعينهم فيما بعد على احتلال قواعد على ساحل الحبشة تمهيداً للتسلل التدريجى فى داخل البلاد ، فاستولوا على مصوع وزيلع وجزء كبير من الساحل واستطاعوا العمل بهمة لنشر الإسلام بين القبائل الوثنية .

وقد كان لقبائل البجة التى تعيش فى المناطق المتاخمة للحبشة أثر فى تسرب الإسلام إلى شمالى الحبشة (مملكة أكسوم) وكان لهؤلاء خمسة مسالك مستقلة تشغل البقاع الواقعة بين البحر الأحمر والنيل ، انتشرت فيها مناجم الذهب والأحجار الكريمة ويعمل فيها المسلمون ، وكان بداية انتشار الاسلام بين البجة على يد هؤلاء المسلمين . وفى أعقاب عام ٢١٦ هـ ٨٣١ م يمكن القول باعتناق البجة الإسلام .

وفى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) رحل رجل اسمه الشيخ أبادير إلى مدينة هرر بالحبشة ونشر الإسلام بين أهلها . ومنذ ذلك الحين أصبحت هذه المدينة مركزاً لنشر الدعوة الإسلامية .

* * *

* الالمام بمن فى أرض الحبشة من ملوك الاسلام ، طبعة مصر عام ١٩٠٨. كتب المقريزى هذه الرسالة فى أثناء اقامته بمكة عام ٨٩ هـ (١٤٣٤ — ١٤٣٥)

وكان فى أثر تبادل التجارة بين اليمن والحبشة رحيل التجار اليمنيين والحجازيين إلى الحبشة ، وكان من بينهم جماعة من قريش من سلالة « عقيل بن أبى طالب » سكنوا فى « جبرت » (أوفات) من أراضى زيلع وسموا بعد ذلك بالجبرتية . قام هؤلاء بإنشاء أول دولة إسلامية فى الحبشة وأخذ نفوذهم يمتد حتى إذا جاء القرن الرابع عشر كان قد تم لهم تأليف سبع ممالك زاهرة سميت « الطراز الإسلامى » على سواحل الحبشة وهى - مملكة أوفات ودوار وأرابينى وهديا وشرحا وبالى ودارة .

وقد تكلم عنها شهاب الدين العمرى فى مؤلفه « مسالك الأبصار » ونقل عنه القلقشندى فى كتابه المعروف « صبح الأعشى » * .

ومع أن ملوك هذه الأقاليم كانوا يدينون بالإسلام إلا أن كلمتهم كانت متفرقة ، والظاهر أنه كان بينهم شىء من التنافس فى إظهار الطاعة لملك أمهرة .

وعلى أيام النجاشى اسحق بن داود الذى حكم الحبشة عام ٨١٢—١٤٠٩ اتفق مع رجال دولته على انتزاع ممالك المسلمين وإجلائهم من البلاد ** فأوقع بهم فى عدة معارك قتل فيها وسبى واسترق ، ثم كتب إلى ملوك الإفرنج يحثهم على مساعدته لإزالة دولة الإسلام من بلاده ولكنه مات عام ١٤٢٩ .

وبالرغم مما فجع به المسلمون فى الحبشة فقد استمرت مراكز تجارتهم الساحلية فى الازدهار .

ويتسم القرن السادس عشر بأعمال القتال المتواصلة بين مملكة الحبشة

---

* صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٥ - ٣٣١

** المقريزى - الالمام بما بأرض الحبشة من ملوك ص ٥

ضد المسلمين فى الجنوب والجنوب الشرقى وقد بلغت أشدها حين تولى النجاشى « لبنادنجل » وولده « كلاود يوس » من بعده فنهض المسلمون لدفع اعتداء الأحباش وفى سبيل ذلك عانوا شديداً ، وكادت دولتهم (وحاضرتها هرر) تنهار لولا أن قام شاب مسلم مقدام اسمه احمد بن ابراهيم جرانى ووحد كلمة المسلمين وتولى زعامتهم وعزم على فتح الحبشة * وقد استطاع بمؤازرة الترك فى اليمن وجده التوغل فى الحبشة حتى وصل إلى أقاليمها الشمالية من « تيجرى » ودارت بينه وبين الحبش عدة معارك كان منها معركة بادفى ومعركة صمبركورى (٩٣٥ هـ — ١٥٢٨) ** ولقد استعان الأحباش بالبرتغاليين الذين كانوا احتلوا جزءاً على ساحل شرقى أفريقيا فأمدوهم بالمدافع والجنود المدربين .

وبقى احمد يقاتل الحبش بجيشه من سنة ١٥٢٨ — ١٥٤٣ ثم استشهد فى إحدى المعارك (١٥٤٣) وخلفه ابن أخته الأمير (نور بن مجاهد) على قيادة المجاهدين فكان من أقدر القادة وسماه المسلمون (صاحب الفتح الثانى) .

وينبغى هنا أن نلقى بعض الضوء على أعمال هذا البطل المسلم احمد الجرانى، فنقول إنه غزا بلاد الجالا وسائر الشعوب التى تجاور مدينة هرر، ثم وصل إلى، هرر ثم زحف إلى شوا ، وسار شمالا إلى غندار فأكسوم ولبنا دنجل ، فى هذه الأثناء ظل ينتقل هارباً من مدينة إلى أخرى وجرانى يطارده ويقتل من الأحباش خلقاً كثيراً ويخرب الكنائس وقد كان لغزوته أثر كبير فى نشر الإسلام فى البلاد***

---

* عرب فقيه « احمد بن عبد القادر شهاب الدين » فتوح الحبشة جـ ١ نشرة رينيه باسيه عام ١٩٠٩

** يوسف أحمد — الاسلام فى الحبشة ص ٣٥/٣٩

*** عبد الحميد عابدين — بين الحبشة والعرب ، القاهرة

ولم ينقض حكم لبنادنجل سنة ١٥٤٠ حتى كان العرب قد جعلوا من أنفسهم سادة على الحبشة .

وإننا لندين إلى أحمد بن عبد القادر شهاب الدين المؤرخ العربي المعروف بعرب فقيه إلى ما كتبه عن تاريخ غزوة جرانى فى القرن السادس عشر وقد ذكر لنا أماكن كثيرة فى الحبشة قلما نعثر عليها فى المراجع العربية الأخرى .

وكان لتدخل البرتغاليين فى شئون الحبشة عقب معاونتهم للأحباش أن ثارت مقاومة عنيفـة بين مسيحيى الحبشة وأعلن بعض القادة صراحة أن من الخير لهم أن يخضعوا للحاكم المسلم عن أن يظلوا على محالفة البرتغاليين. وسرعان ما اتخذت الحركة شبه الدينية وشبه الوطنية التى استقرت هنـاك مثل هذه الخطوات الواسعة التى أدت حوالى عام ١٦٣٢ إلى طرد البرتغاليين وإخراج المسيحيين الأجانب من البلاد ، وسرعان ما أصبحت حالة الحبشة فى ذلك الحين ضرباً من الفوضى وسوء النظام .

ومن العوامل التى ساعدت على نشر الإسلام فى الحبشة الجهود التى قام بهـا التجار المسلمون الذين كانوا كثيرى التردد على الحبشة. كان هؤلاء من اليمنيين أو الحضارمة أو من الأفريقيين أنفسهم . وكانوا ينتشرون فى بلاد الصومال والحبشة يتاجرون ويعملون للدعوة إلى الدين الحنيف .إلا أن الفضل الأكبر فى نشر الإسلام فى الحبشة عن طريق التجارة ، كان يرجع إلى طائفة من التجار المسلمين نشأت فى مدينة قوص المصرية ، تألفت من مهاجرين من أهل التكرور وبعض الهنود والعرب، وقد اتخذت لنفسها إسم الكارمية أو الكانمية نسبة إلى بلاد كانم حول بحيرة تشاد وإلى الشرق من برنو ، وقد أخذت تشتغل فى تجارة التوابل

وسرعان ما تضاعفت ثروتها وانضم إليها المسلمون التجار من جميع البلاد . وكان التجار الكارمية على جانب كبير من الورع والتقوى ، جعلوا من أنفسهم دعاة للإسلام إلى جانب اشتغالهم بالتجارة . وقد دخل هؤلاء الكارمية بلاد الحبشة تحت ستار التجارة ووجدوا من الأمراء والحكام ترحيباً بسبب نشاطهم التجارى الجم . واشتغالهم بتجارة الرقيق بمساعدة ملوك الحبشة أنفسهم ، وساعدهم على بث الدعوة طول إقامتهم فى البلاد واختلاطهم مع الأهالى ومعرفتهم بعاداتهم وتقاليدهم حتى أسلم على أيديهم كثير من أهل الحبشة . ومما ساعد على نجاح هؤلاء الدعاة أن الحبشة فى القرن السابع عشر قد انقسمت إلى إمارات تكاد تكون مستقلة وسادتها الانقسامات والحروب الطائفية . وكانت الطبقات الفقيرة من المسيحيين المثقلة بالضرائب أكثر الناس تحولا إلى الإسلام هذا إلى ما كان ينعم به المسلمون من مكانة اجتماعية وحرية موفورة .

وفى خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أحرز الإسلام تقدماً بطيئاً . وعلى الرغم من محاولة الملوك المسيحيين عزل المسلمين وإقصائهم عن الوظائف الرئيسية فى البلاد لم يتوقف انتشار الإسلام فى الحبشة بل إنه تغلغل فى صفوف الزعماء من أهل الحبشة ، وكان أحد رءوس (نواب) الملك فى القرن التاسع عشر واسمه « الرأس على » مثلا لتغلغل هذا النفوذ بين الطبقة الممتازة ، ففى أثناء حكمه تحول نصف أهالى الولايات الوسطى من بلاد الحبشة إلى الإسلام . وبرغم العداء الذى ساد بين الحبشة ومصر طوال القرن التاسع عشر ، ظل انتشار الإسلام سائراً فى طريقه .

ولما تولى « ليج أياسو » حفيد منليك الحكم ، أنكر الدين المسيحى وادعى أنه من سلالة النبى (صلى الله عليه وسلم) وتزيا بزى المسلمين ونقش على العلم الحبشى « لا إله إلا الله محمد رسول الله » بل إنه فكر فى إعلان الجهاد والقضاء على المسيحيين . وأعد جيشاً لتنفيذ خطته وقرر فى عام ١٩١٦ تبعيـة بلاده لتركيافى الشئون الدينيـة . فتدخلت فى الحال الدول الأوربيـة وأرغمته على النزول عن العرش . ومن ثم عمل خلفاؤه على الحد من النفوذ الإسلامى .

الإسلام فى الصومال

نعنى هنا أولا الإقليم الذى كان معروفا بالصومال البريطانى إلى عام ١٩٦٠ ، فقد ذكر ابن حوقل الجغرافى العربى أن أهالى زيلع كانوا يدينون بالمسيحية فى النصف الثانى من القرن الثانى وكان يرجع ذلك إلى أنهم كانوا تحت سيطرة الحبشة ، ثم تحول أهلها إلى الإسلام فى القرن الثانى عشر وألفوا ما يشبه رابطة إسلامية قوية ضمت أمراء أفات وهادية — ودوارو (الطراز الإسلامى) وليس من المستبعد أن يكون الدعاة والتجار العرب الذين قدموا إلى الصومال هم الذين حملوا الإسـلام معهم إلى تلك الجهات .

ويقال إنه فى القرن الخامس عشر جاءت من حضرموت جماعة مؤلفة من أربعة وأربعين عربياً نزلوا فى بربرة ثم انتشروا فى بلاد الصومال يدعون للإسلام ، وقد شق أحد هؤلاء وهو الشيخ ابراهيم أبو زربای طريقه إلى هرر حول عام ١٤٣٠ واستطاع أن يحول كثيراً من الأهالى إلى الإسلام ، ولا يزال قبر هذا الشيخ موضع تبجيل فى تلك المدينة .

وفى القرن السادس عشر ازدهرت زيلع حينما أصبحت عاصمة دولة

عدل الإسلامية التى ناوأت الحبشة ودخلت معها فى نضال مرير ، وتمكن أميرها أحمد بن إبراهيم الغازى الذى عرف بالإمام احمد جران بمساعدة اتباعه الصوماليين المتحمسين وبمعاونة القوات العثمانية من غزو أجزاء كبيرة من الحبشة واستمر فى غزوها ما بين عامى ١٥٢٩ — ١٥٤٣ حتى تحالف البرتغاليون مع الأحباش وفاجأوا أحمد جران وهزموه ، ثم قتل وقضى على حركته ، واسترد النجاشى المناطق التى غزاها الصوماليون * .

كانت نتائج حركة أحمد جران بعيدة الأثر فقد تبعها دخول كثير من الأحباش فى الإسلام وكان ضغط الأحباش على الصوماليين بعد هزيمة أحمد دافعا لهم إلى الهجرة إلى مناطق الأنهار فى الجنوب حيث اتصلوا بقبائل الجالا والبانتو الوثنيين ونشروا الإسلام بينهم ويمكن القول إنه فى القرن السابع عشر كان الإسلام قد عم جميع أرجاء الصومال .

وفى أوائل النصف الثانى من القرن التاسع عشر سيطرت مصر على شواطىء الصومال الشمالى والشرقى، وفى عام ١٨٧٥ ضمت هرر إلى أملاكها وفى تلك الفترة عمل المصريون على تدعيم الإسلام بل وعلى انتشاره بين القبائل الوثنية .

وفى عام ١٨٨٤ أجبرت الحكومة البريطانية مصر عقب الثورة العرابية على إبعادها عن شرقى أفريقية ، وضمت الصومال الشمالى إليها ثم تسربت قواتها إلى الداخل ، وأخضعوا قبائله تدريجا ، وكان أحد زعماء الصوماليين وهو محمد بن عبد الله قد شن المتاعب فى وجه المستعمرين وأعلن الجهاد ضدهم وضد الحبشة ، فى الوقت الذى كان المهديون فى السودان يقومون بثورتهم . وقد حشد هذا الزعيم أتباعه الكثيرين لمحاربة

Trimingham : Islam in Ethiopia, pp .84-89 *

الإنجليز وظل يدعو لمبادئه الإسلامية ودعا قومه إلى الوحدة لطرد الإنجليز من البلاد ، فلقيت دعوته أذنا صاغية . *

عمت الفوضى فى داخل الصومال ، ولم تسيطر الحكومة إلا على البقاع الساحلية وتعطلت المناطق الرعوية ، ولم تيأس انجلترا فى توجيه الحملات لقمع حركة محمد بن عبد الله حتى عام ١٩٢١ فأخمدتها بعد أن كلفتها خسائر فادحة فى الرجال والأموال . **

وقد ساهمت الطرق الصوفية فى إنشاء المراكز الدينية لتدريس أصول الدين وأكثر الطرق الصوفية انتشارا فى صوماليا ، الطريقة القادرية وتليها الصالحية ثم الأحمدية والرفاعية ،والطريقة الأولى أقدم الطرق التى دخلت الصومال وذلك بفضل اليمنيين والحضارمة الذين استقروا فى مقديشو وزيلع وغيرها من المناطق الساحلية ،ثم توغلت هذه الطريقة إلى داخل البلاد منذ عام ١٨١٩ حينما أسس الشيخ إبراهيم حسن جبرو مركزا لها مكان بلدة برديرة الحالية على نهر جوبا .

أما الطريقة الأحمدية التى أسسها أحمد بن إدريس الفاسى ؛ فقد أدخلها إلى شرق أفريقية الشيخ « على ميه درجبا » الصومالى وكرس نفسه لنشرها فى الصومال والتف حوله عدد كبير من المريدين وخاصة من سكان وادى شبيلى الأوسط .

وهناك الطريقة الصالحية (نسبة إلى محمد بن صالح أحد تلاميذ احمد ابن إدريس الفاسى) ومركز دعوتها فى منطقة الشدلة بين بلدتى جوهر وبلعد على نهر شبيلى وكان من أهم أتباعها « محمد بن عبدالله حسن» ويلقب

---

* أدى محمد بن عبد الله فريضة الحج أكثر من مرة واندمج فى سلك احدى الطرق الصوفية واستقر فى بربرة عام ١٨٩٥ وأعلن نفسه خليفة الطريقة الصالحية

** Trimingham : . pp 133 - 135

بمهدى الصومال ، الذى ثار فى وجه بريطانيا كما ذكرنا . وتنتشر هذه الطريقة بين سكان الإقليم الواقع بين مديرية مجرتين وبين الصومال البريطانى ، وفى منطقة الأوجادين ،وفى بعض مناطق جنوبى صوماليا .

مسالك الإسلام الى أفريقيا

ونلاحظ بعد دراسة المراحل التى اجتازتها الدعوة الاسلاميـة فى أفريقيا أنها سلكت عدة سبل وهى :

(١) طريق شمال أفريقيا مجتازة مصر ، برقة ، طرابلس ، تونس . المغرب الأوسط . بلاد السوس الأقصى إلى مصب نهر سنغال ، وبعد نمو البحرية الإسلامية اشترك معها طريق بحرى من مرافىء الشام ومصر إلى مرافىء المغرب الأقصى .

(٢) طريق صحراوى : يبدأ من أسيوط مارا بواحات مصر فى الصحراء الغربية ويجتاز جنوب بلاد المغرب حتى يصل إلى غرب أفريقيا .

(٣) طرق القوافل من طرابلس وبلاد المغرب بقسميها الأوسط والأقصى إلى شمال السودان، ونخص بالذكر الطريق الذى يبدأ من جنوب تونس إلى بلاد برنو غربى بحيرة تشاد ، ومن جنوب الجزائر إلى بلاد الهوسا شمالى نيجيريا ، ومن جنوب مراكش إلى مصب نهر السنغال ومنحنى النيجر .

(٤) طريق وادى النيل عبر الصحراء الشرقية إلى بلاد النوبة وشمال السودان.

(٥) طريق السفن من جنوب شبه الجزيرة العربية إلى ساحل أفريقيا الشرقى (الصومال بلاد الزنج) ومنه إلى قلب القارة .

ويتضح لنا أن ينابيع الدعوة الإســـلامية فى أفريقيا استمدت حيويتها الدينية من :

السبيل الأول — يخرج من الأزهر بمصر فيتبع النيل إلى كردوفان ومنها إلى مديريات خط الاستواء وأوغنده .

السبيل الثانى — الينبوع المراكشى الذى يتكون من زوايا المغرب العديدة ومدارس فاس ومراكش إلى بلاد السنغال فى غرب القارة .

السبيل الثالث — هو الذى يخرج من مدارس طائفة القادرية فى تنبكتو ومن بعض زوايا طائفة التيجانية ، ويتبع مجرى نهر النيجر إلى بلاد صانقا (الكونغو الفرنسى) فيلتقى بمراكز التبشير المسيحى فى ملتقى نهرى النيجر وبينوى .

السبيل الرابع — هو الذى يخرج من زوايا السنوسية فى جغبوب وغدامس منتحيا جهات بحيرة تشاد وبه أصبحت واداى وبرنو مراكز تتأجج فيها حماسة الدعوة الإسلامية .

السبيل الخامس — يقوم به رجال الدعوة الاسماعيلية ومعظمهم من الهنود والباكستانيين من الساحل الأفريقى الشرقى إلى أوغنده وإلى المناطق التى يقطنها البانتو فى الكونغو .

الفرق الدينية

قامت الدعوة الإسلامية فى غرب أفريقيا بهمة رجال ثلاث طوائف وعلى جهود جماعات التجار المسلمين فى شرق القارة . وتلك الطوائف هى :

(١) القادرية – وهى أوسع الفرق الدينية انتشاراً وقد تأسست فى القرن الثانى عشر (م) على يد عبد القادر الجيلانى وتسربت إلى أفريقية

الغربية فى القرن الخامس عشر الميلادى على أيدى مهاجرين من توات وهى واحه فى الشطر الغربى من الصحراء . واتخذوا من ولاته أول مركز لطريقهم إلى أن طردوا منها ثم لجأوا إلى تنبكتو . وفى أوائل القرن التاسع عشر نشطت جهود الطريقة وانتشر اتباعها فى أرجاء السودان الغربى من السنغال إلى مصب النيجر وكثر إرسال البعوث إلى مدارس القيروان وطرابلس أو إلى فاس والأزهر للتعمق فى الدراسات الدينية . ولما عاد أفراد تلك البعوث أسست المدارس لتعليم الدين على طريقة منظمة مثمرة وهداية الوثنيين إلى الإسلام — وأهم مراكزها فى كنكا وتمبو (فى جبال فوتوجالون) ومسردو (وموطنهم على نهر جامبيا)

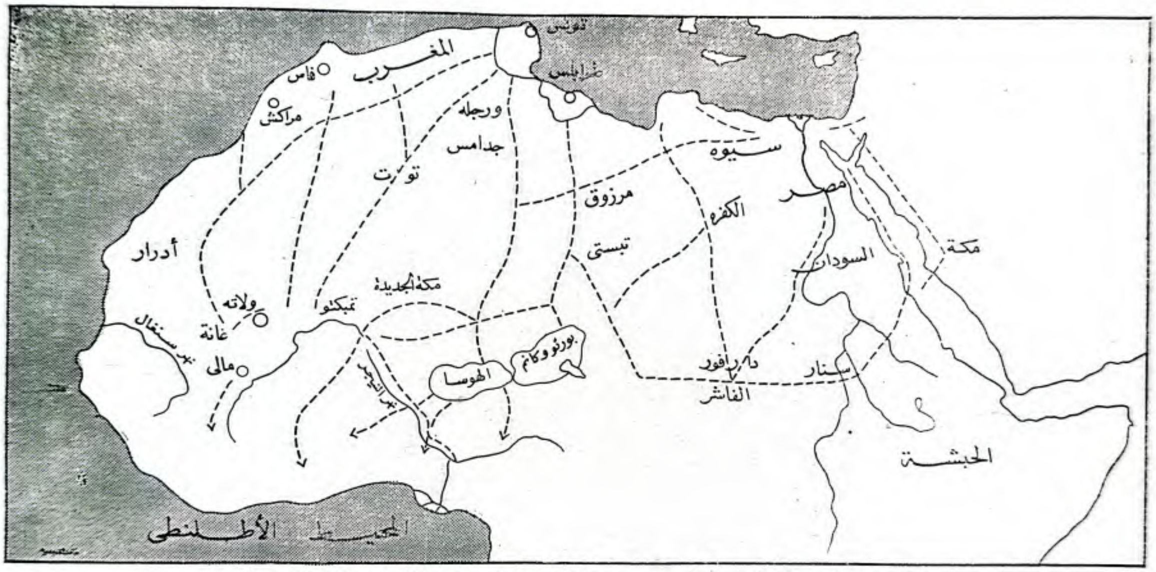
(٢) التيجانية ـ وتنسب إلى منشئها أبو العباس احمدى محمد المختار بن سالم التيجانى (١٧٣٧ — ١٨١٥) إحدى أهالى قرية « عين ماضى » بالجزائر وقد تعمق فى دراسة الدين الحنيف فى شتى المراكز الدينية بمصر وبلاد العرب وبعودته إلى الجزائر أسس طريقته التى تعد فرعا من الطريقة الخلوتية .

ومن دعاتها محمود بن على التونسى ومحمد الكبير ومحمد الصغير (ولدى أبى العباس) والحاج على بن عيسى ومحمد العائد (حفيده) — ونشط فى دعوتها الحاج عمر وتم على يديه انتشارها فى ربوع السودان الكبير — وقد أختلفت التيجانية عن القادرية من حيث اعتمادها على السيف * .

(٣) السنوسية — وتنسب إلى مؤسسها الفقيه الجزائرى سيدى محمد بن على السنوسى وقد بدأ بها فى عام ١٨٣٧ لإصلاح شأن الإسلام ونشر العقيدة وهذه الطريقة متأثرة بالتعاليم الوهابية . ولم يمت سنة ١٨٥٩ حتى كان قد نجح فى تأسيس دولة دينية ، وقد انتشرت الطريقة فى أفريقيا الشمالية وتتناثر زواياها من غربى الدلتا إلى مراكش ، كما تمتد إلى الداخل فى واحات

---

* كتاب الدعوة الى الاسلام : لتوماس أرنولد ترجمة ص — ٢٧٨



سبل الاتصال بين شمالى إفريقية ودول غربى إفريقية فيما بين القرنين الخامس والثالث عشر

الصحراء الكبرى وفى السودان وكان مقر السنوسية واحة جغبوب فى صحراء ليبيا * .

التجار والدعاة

وكان من أهم عوامل نشر الإسلام فى القارة الأفريقية التجار والدعاة. كان هؤلاء يكملون عمل الفاتح أو يبدءون بنشر الدعوة . فالتاجر مثلا سواء أكان من العرب أم من الفولة أم من الهوسا أم من باكستان يجمع بين سلعته ونشر الدعوة ، وإذا ما دخل مثل هذا الرجل قرية وثنية فسرعان ما يلفت النظر بوضوئه وانتظام أوقات الصلاة والعبادة . وإن ما يتحلى به من سمو عقلى وخلقى ليفرض احترامه والثقة به على الأهالى الوثنيين الذين يبدى لهم فى نفس الوقت استعداده ورغبته فى إمدادهم بمزاياه ومعارفه **

وإلى جانب التاجر المسلم يقابلنا المعلم، فهناك يلقى تكريما باعتباره رجل علم تفقه فى الدين والشريعة الإسلامية . وقد درس كثير من المعلمين فى مدارس القيروان وفاس وطرابلس والقاهرة ، فإذا أتموا دراستهم وعادوا إلى بلادهم الأصلية تحولوا إلى دعاة ، ويساعدهم على النجاح فى رسالتهم أن عاداتهم وطباعهم فى الحياة تشبه عادات الأهالى وطباعهم فى كثير من الوجوه. وبالتزاوج مع السكان الذين يرحبون بهم بدخولهم فى نظامهم الاجتماعى ، يتوطد نفوذهم ويستقر ، وهكذا تنتشر بينهم المعارف الإسلامية شيئاً فشيئاً ***.

---

* الدعوة الى الاسلام : لتوماس أرنولد ترجمة ص ٢٨١ — ٢٨٢

** الدكتور حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى . منشورات معهد الدراسات العربية العالية : ص ٣٣ — ٣٥

*** المرجع السابق : ص ٣٤

المسلمون فى افريقيا الغربية

اليـوم

انتشر الإسلام فى الصحراء الكبرى والجزء الشمالى من سودان المغرب نتيجة ظروف جغرافية وتاريخية واقتصادية أيضاً ، ولعله من الأوفق أن نبـدأ باستعراض تلك الشعوب التى اعتنقت الإسلام متبعين فى ذلك ترتيب المناطق المناخية ، أما فى داخل المناطق نفسـها فسنتبع ترتيب المجموعات اللغوية .

ويستحيل تقدير أثر الإسلام بين شعوب السودان فى غربى أفريقيا دون أن ننظر بعين الاعتبار إلى سكان جنوبى الصحراء الكبرى ،ذلك لأن السود يؤلفون عنصراً هاماً بين سـكان تلك الصحراء التى يتوقف اقتصادها الزراعى عليهم ، ولأنهم يشتركون مع المغاربة والطوارق وقبائل التيدا فى نظمهم الاجتماعية ويتكلمون لغاتهم أيضاً ، علاوة على أنهم من النواحى الثقافية يتبعون عالم الصحراء لا عالم السودان ، ولذلك كله لا نستطيع أن نتجاهلهم .

يعرف سكان الصحراء الكبرى الغربية باسم المغـاربة ، وهى تسمية غامضة ، وكثيراً ما أطلق عليهم اسم البيضان أى البيض ، كما يطلق على السود السودان ، وهم ليسوا شعباً من جنس واحد متجانس ، مع أنهم يتكلمون اليوم إحدى اللهجات العربية وهى الحسانية ، بل هم خليط من البربر والعرب والسود ارتبطوا معاً بروابط الصلات الاجتماعية واللغة .

فمنذ القرن الثالث عشر ، غزا بعض طوائف العرب الحسـانية جنوبى مراكش ثم تقدموا تدريجاً إلى الجنوب ، حتى وصلوا إلى السنغال فى بداية القرن الخامس عشر ،وسرعان ما انتقل إليهم الإشراف السياسى

على البربر فى الغرب .وكان أن استعرب هؤلاء بدورهم. وهم مثل جميع سكان الصحراء والمغابة تضمهم نظم مجموعات اجتماعية أهمها الزوايا * أو عشائر خاضعة لرئاسات دينية .

ويتكلم الطوارق أو الملثمون لغة مشتركة معروفة باسم تماهك إحدى فروع لغةالبربر، ويحتفظون بأبجدية ليبية بربرية وينقسمون إلى مجموعتين : رحل يرعون الجمال ويعيشون فى جبال أواسط الصحراء. وهؤلاء رحل نيجيريون يسكنون الصحراء شمال منحنى النيجر ومنطقة جرمة الداخلة فيه ، وقد تغيرت خصائص هؤلاء الطبيعية وأساليب معيشتهم وعاداتهم لأنهم يعيشون فى بيئة مختلفة عن البربر ويختلطون بالسود ولقد اكتسبوا لوناً أسود حتى أصبح من الصعب جداً تمييزهم عن السنغاى والهوسا .وهم يعيشـون فيما يشـبه الاتحادات القبلية تحت حكم زعيم يعرف باسم أمينوكال له سيادة اسمية ،ولهم نظام طبقى يقسم القبيلة إلى نبلاء وتوابع وعشائر خاضعة لنظم دينية وعبيد سود ، وطبقـة أصحاب الحرف. ويقنع الطوارق بالزواج من امرأة واحدة ،وللمرأة فى مجتمعهم حظوة ومكانة .

وقد مضى وقت طويل حتى اجتذب الإسلام هذه القبائل إليه كما أن تأثيره فيهم لم يتغلغل فى نظم معيشتهم الاجتماعية .

ومن سكان الصحراء ، التيدا أو التوبو ** كما يعرفون عند أهل كانم أما الذين يعيشون فى الشمال فيعرفون باسم تيدا ، والذين يقطنون الجنوب يعرفون باسم دازا . ويعرف عرب شوه وأهل واداى باسم قراعان ، ويطلق الكانميون على الطوارق أكراده ويعيش التوبو فى بقعة كبيرة من الصحراء الكبرى الشرقية . تمتد من صحراء ليبيا فى الشمال إلى منطقة بحيرة

---

* يدخل تحت هذا التخصيص : فى جنوبى موريتانيا ، القبائل العربية السائدة : ترزة وبركنة ، وقبائل البربر الخاضعة لهم : زناتة وهرتين،وفى الحوض يقابلنا أولاد دليم والرجيبات والمشضوف وطلب مختار وجرجنكة وشرفاء تشيت وولاته ونيمة ، وفى شمال منحنى النيجر وفى أزواد يوجد حوالى ٣٠ر٠٠٠ من السكونتة والبرابيش

** أى أهل تو أو تيبستى

تشاد فى الجنوب ولا يزيد عددهم على مائة ألف نسمة ، وتسكن مجموعاتهم الهامة السلسلة الجبلية من تبستى وبوركو وجزء من ايندى ومجموعة واحة كوار والأجزاء الشمالية من كانم ووادای. وهم سود نحاف الأجسام قصار القامة سماتهم لطيفة وشفاههم رقيقة وشعرهم ناعم ، يتكلمون لغة سودانية من لغات الكانورى وتربطهم الصلات الثقافية مع الطوارق ولكنهم يمتازون عنهم ، والذين يعيشون منهم فى الغرب رحل ورعاة، أما الذين يعيشون فى الشرق فيشتغلون بالزراعة ويعنون بأحراش النخيل ويعتمدون على تجارة القوافل. ويهيمن على السلطة التنفيذية مجلس من الشرفاء، وغالبية التيدا يتزوجون من امرأة واحدة ،وتمتاز المرأة باستقلالها ولها حظوة مبجلة ،وقد غيرت النظم الإسلامية الكثير من أوضاع معيشتهم التقليدية .

فإذا انتقلنا إلى شعوب السودان الشمالى قابلتنا الشعوب الآتية :

الفولة أو الفلبة ويطلق الهوسا عليهم اسم فلانى وكذلك المغاربة . أما الكانورى فيعرفونهم باسم الفلاتة وكذلك التيدا وفى شرقى السودان ، ويطلق عليهم الماندى اسم الفولة ، وللفولة مجتمع طبقى يضم أشتاتاً مختلفة من المجموعات ويشتركون فقط فى اللغة التى يتحدثون بها ، وينقسمون إلى حمر وسود .والفولة الأصليون ليسوا سوداً وهم رعاة ورحل ويظهر أن هؤلاء اتصلوا بالرحل السود فى جنوبى الصحراء (لوبى)وا كتسبوا الغنهم. وتعيش جماعات قليلة منهم فى مناطق لا يقطنها غيرهم مثل سهوب فرلو فى السنغال ، أما الغالبية فتعيش بين الزنوج الزراعيين، ويدفعون لهم ما يشبه الجزية ، أو يتفقون معهم على أن يرعوا غنمهم فى الأراضى غير المزروعة،ويقدمون لهم فى مقابل ذلك اللبن والزبدة. ويربى الرحل الماشية

ثم يبيعونها لدفع ما عليهم من الضرائب ، وهم يقيمون فى أكواخ داخل ما يشبه المعسكرات وليس للإسلام سوى أثر دينى قليل. وهم فى نظر الفولة السود وثنيون حتى يعتنقوا الإسلام. والعنصر الأسود من المزارعين المقيمين هو الغالبية ، وهم أقوى المسلمين فى غربى أفريقيا وهم فقراء إلا أن شعورهم القومى قوى ويضيف الإسلام لهم السيادة الدينية . وسرعان ما يلبون نداء الجهاد ضد الوثنيين ويؤسسون دولة كما حدث فى فوتا وتورو وبندو وجالون ومسينا وبلاد الهوسا وادماوه، وتكون النتيجة أن يصبح الزعماء الدينيون قادة الجهاد طبقة ارستقراطية ، أما الزنوج المغلوبون على أمرهم فيتوزعون على الطبقات الاجتماعية المختلفة .

ثم تقابلنا مجموعة الشعوب السنغالية وتشمل الولوف والتوكولر Tocolor والسرر والجولة. فالولوف والتوكولر مسلمون، والسرر والجولة يعتنقون المسيحية ويزرع الجميع الدخن وينتجون الفول السودانى ،والطبقة الحاكمة فى السرر ومثيلتها المحاربة تحولوا إلى الإسلام أما الغالبية فبقوا على الوثنية مع أن المسيحية تنتشر بين القوم ، والولوف وهم أكثر الشعوب تطوراً كانوا يؤلفون مجموعة من خمس ممالك هى السالوم والججور والبثول والوالو والجولوف وهم يسكنون مساحة كبيرة بين السنغال وغمبيا . ومع أن نفوذ الإسلام فى تلك البقعة بدأ منذ القرن الخامس عشر فإن هذا الدين الحنيف حتى القرن التاسع عشر لم يجتذب الغالبية من السكان .

ويمكن تمييز التوكولر * عن الفولة بالنظر إلى الدور الذى قاموا به فى تاريخ نشر الإسلام وهم مجموعة من نوع مختلط من الزنوج يضم الفولة

---

* توكولور أو توكورور مصطلح يطلقه الولوف على الزنوج الذين يتصلون بهم ويتحدثون نفس اللغة التي يتكلم بها الفولة أطلقه المؤلفون العرب على جميع الزنوج فى السودان الغربى .

وقلة من المغاربة وقد اعتنقت طبقتها الحاكمة الإسلام فى القرن الحادى عشر وموطنهم الرئيسى فى فوتا السنغالية حيث يقيمون على شاطىء النهر من دجانة إلى منتصف المسافة المؤدية إلى ماتم وباكل، ثم تقابلنا قبائل الماندى الشمالية وتضم الماندنكة والبمبارة والديولا والسوننكى والكاسونكى والبوزو .

ويعيش السوننكى فى مناطق الساحل وقد سكنوا قديماً الصحراء وامتزجت بهم عناصر البربر والفولة وهم رحل أو يشتغلون بالزراعة ، وكان تجار السودان الغربى هم السكان الأصليين جنوبى الصحراء فى مملكة غانة وقد اعتنقوا الإسلام فى زمن مبكر وقاموا بنشره فى السودان وأثر الإسلام كثيراً فى حياتهم الاجتماعية .

أما الماندنكة (الماندنجو والمالينكى) فيقدر عددهم بحوالى مليون وربع مليون نسمة و ينقسمون إلى مجموعات تتخذ كل منها اسماً مشتقاً من اسم المكان الذى تعيش فيه .

ويتكلم البمبارة (باماثة) والديولا نفس اللغة ويشتركون فى النظم الاجتماعية والخصائص الثقافية ولكنهم يختلفون بعضهم عن البعض الآخر من نواحى التاريخ والدين والموطن إلى حد ما ،ويعتبر هؤلاء وثنيين أما الماندنكة فأشباه مسلمين،والديولا مسلمون . وكان الماندنكه هم الشعب المسيطر على المنطقة بين نيجر والأطلسى ،وبالرغم من اعتناق حكام مالى والتجار الدين الإسلامى فقد ظل زارعو الأرض متمسكين بعقائدهم الوراثية ،وفى السنوات المائة والخمسين الأخيرة انتشر الإسلام ، ويعتنقه اليوم حوالى ٥٠ ٪ من السكان ،ومع أن البمبارة قد اتصلوا بالإسلام منذ قرون ، فلا يعتنقه منهم سوى ٢٠ ٪

أما الديولا ومعناها التاجر في لغات السوننكة والماندنكة والبمبارة فيقطنون البقعه بين منحنى النيجر ومنطقة فولتا .

ومن الماندى الشماليين — البوزو والسمونو والكاسونكى . ويقوم الأول بصيد السمك والزراعة ويقنطون شواطىء النيجر وبنى بين سيجوو وديؤولا ونيافونكى . وقد انتشر الإسلام بينهم منذ القرن الرابع عشر وأسلموا جميعاً فى القرن التاسع عشر، وأما السمونو فقد اعتنقوا الإسلام حوالى عام ١٨٦٠ وهم اليوم يدعون إليه على الشاطىء الأيمن للنيجر وينتشر الإسلام بين الكاسونكى الذين يعيشون فى كايسر وبافولابى وينورو منذ أزمان بعيدة .

وننتقل بعد ذلك إلى قبائل فولتا الشمالية فنجد أنه ليس لهؤلاء أى استعداد لقبول الإسلام وأنهم لم يتأثروا بالدعوة بالرغم عن اتصال جماعاتهم الشمالية بالمسلمين منذ قرون عدة ويعيش بين قبائل فولتا شعب « موشى » ويمتاز هؤلاء بتكوينهم السياسى والاجتماعى ومعنى موشى طبقة المحاربين المهاجرين وقد انقسموا فى القرن السادس عشر إلى مملكتين الواجادوجو والواهيجويا ، واستقرت دولتاهما فى القرن التاسع عشر، وقامت على جانبى منطقتهما دولة الفولة وماسينه وجواندو ، واعتنق الإسلام حوالى تسعين ألفاً من الواهيجويا وعشرين ألفاً من الموشى Mossi

ويجىء من بعدهم السنغاى والزيرما والدندى وهؤلاء يعيشون فى الأراضى التى تحف بالنيجر الأوسط التى تفصل بين عالم الماندى والسودان الأوسط

والسنغاى (يطلق على البلاد وليس على الناس) يبلغ عددهم ٢٥٠٫٠٠٠ نسمة يعيشون فى محاذاة منحنى النيجر من موبتى عبر المنطقة البحيرية

وتنبكتو إلى جاو (جاغ) ويعيش الزرما (٨٠٫٠٠٠ نسمة) جنوبى جاو ويعيش فى الجنوب منهم الدندى(٢٤٫٠٠٠نسمة) والسنغاى زنوج يقطن الحضريون منهم فى جنى وتنبكتو وجاو ، وقد امتصوا الطوارق والمغاربة الذين وفدوا عليهم وهؤلاء يؤلفون العناصر الارستقراطية ومنها الرماة سلالة الجنود المغاربة والأندلسيين الذين قضوا على إمبراطورية سنغاى .

أما أهالى زيرما الذين هاجروا إلى النيجر الأوسط منذ أربعة قرون فلم يتأثروا بالإسلام إلا قليلا حتى قامت ثورة الفولة مبتدئة فى نيجيرية فى أوائل القرن التاسع عشر .

والهوسا إحدى اللغات الحامية الشادية ويتكلمها حوالى ٥٫٤٨٠٫٠٠٠ نسمة فى شمالى نيجيرية كما أنه فى جمهورية النيجر نصف مليون يتحدثون بها، ويشتغل الهوسا بالزراعة ,وصناعة الحصر والجلود وفى التجارة ،وقد اعتنقوا الإسلام فى أعقاب ثورة الفولة وغزوا أقاليم الهوسا فى أوائل القرن التاسع عشر وسرعان ما انتشر بينهم ، وهو يحظى بنسبة ٧٥ — ٨٠ ٪ أما البقية الوثنية فواقعة تحت تأثير المسلمين .

ويؤلف شعوب تشاد عناصر متباينة نجدهم فى برنو وباجرمى ووادای وهم زنوج اختلطوا بطوائف التيدا والفولة والعرب ويتحدثون عدة لهجات اتصل بهم الكانمبو والكانورى والبجرميون وأهل وادای واعتنقوا الإسلام ما عدا بعض الأقليات فى الجنوب .

ويشتغل الكانمبو بالزراعة ويعيشون فى كانم شمال شرقى بحيرة تشاد وفى منطقة ضيقة حول شواطىء البحيرة الغربية والشمالية وقد دخل الإسلام بلادهم فى القرن الثانى عشر واضطر زعماؤهم فى القرن الرابع عشر إلى الرحيل إلى برنو حيث اختلطوا بالسو (ساو) واستقر الكانورى

وهم أغلبية كبيرة فى برنو ويبلغ عددهم فى نيجيرية ١٫٢٩٧٫٠٠٠ نسمة منهم ٧٥٢٫٦٨٠ نسمة فى مديرية برنو ، ويعيش منهم عدد كبير فى النيجر الفرنسى وجمهورية تشاد . وتطلق اليوم الكانورى على الذين يتحدثون لغة الكانورى .

عرف الإسلام باجرمى فى القرن السابع عشر وأسلم أهل تشادفى السنوات السبعين الأخيرة ثم تأثرت به عدة قبائل تسكن بالقرب من مستنقعات نهر شارى .

وننتقل إلى الكلام عن عرب السودان الأوسط فنجد أن تأثير العرب كان شديداً فى بقاع الصحراء الكبرى الغربية حيث استعرب البربر على عكس الطوارق والتيدا فى الوسط . وكان أثر الإسلام أقوى بين سودانى النيل . وقد تسربت منهم بعض القبائل العربية إلى واداى وباجرمى وبرنو ويعرف شعب برنو هؤلاء القبائل بعرب شوه . وتتألف من مجموعتين الإبالة والبقارة وقد استوطنوا البقاع الصالحة لتربية حيوانهم ولم تتأثر نظم معيشتهم،أما الذين ذهبوا إلى الجنوب حيث لاتصلح تربية الجمال فقد عنوا بتربية الماشية كالزنوج مثلا وتأثرت نظم حياة البقارة بما استمدوه من نظم الزنوج المحليين بالرغم من تمييز العنصر العربى عنها .

ويميز أولادسليمان عن عرب الشوا فقد هاجر الأول من فزان بعد عام ١٨٤٢ ثم استقروا عند تخوم كانم وكانوا يجولون من إير إلى أبشه ومن بوركو إلى إيندى وهم يعيشون كعرب الشمال ويتكلمون لهجتهم . وهناك نوع آخر من العرب يسمى بالجعليين جاءوا من النيل وهم تجار يعرفون بالجلابة ،وهناك التنجور وهم حاميون وفدوا من الأقطار النيلية وتكلموا

العربية ثم اتجهوا إلى الغرب ويعيش غالبيتهم فى كانم (٣٠٫٠٠٠) كما أن هناك غيرهم فى برنو ووادای ودارفور .

أما المنطقة السودانية الجنوبية حيث تهب رياح السعار * فتشبه الأرض الحرام ، وتقع بين الأقطار السودانية وغينيا ، نلاحظ أن الحضارة السودانية الحديثة لم تنفذ بعمق شديد إلى هذه الشعوب ولذلك نرى أنه لم يكن للإسلام سوى أثر ضئيل مع أنه امتد إلى تلك المنطقة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

أما غينيا الغربية فقد تأثرت إلى حد كبير بالإسلام ،وبالرغم من أن معظم الأهالى الذين يعيشون عند مصاب الأنهار فى المنطقة الساحلية قد حافظوا على الوثنية فلم يتسرب الإسلام إلا إلى قلة منهم .

وقاوم قبائل فولتا فى النطاق السودانى الجنوبى الإسلام وأسلم فى ساحل العاج حوالى ٤٥٠٫٠٠٠ نسمة من الديولا وغيرهم ولا تزال الغالبية وثنية وقد خطا الإسلام خطوات وئيدة بين طبقات داجومبة الحاكمة ونفذ إلى مجموعات المامبروزى وانتشر بين الوالا وأثر على داجاين ولوبى كما تأثر به بعض سكان مدن بوبو ديولاسو (فولتا العليا) والبندوكو (ساحل العاج) ويقال نفس الشىء عن مقاطعات غانة الشمالية حيث تقدر نسبة المسلمين بحوالى ٥ ٪ .

فإذا انتقلنا إلى نيجيرية وجدنا أن منطقة ايلورين قد أصبحت إمارة للفولة وأن ٦٠ ٪ من اليوروبا فى المنطقة الشمالية تحولوا إلى الإسلام ويمكن أن نعتبر نوبى مثلا لشعب فى حالة انتقال من الوثنية إلى الإسلام

---

* دائرة المعارف الاسلامية — الطبعة الجديدة

ويسكن هذاالشعب المنطقة التى تقع شمالى وجنوبى ذلك الجزء من نهر النيجر الذى يخترق إقليم نيجر ، ويبلغ عددهم ٣٥٠٫٠٠٠ نسمه تجمعهم لغة واحدة وإن اختلفوا من الناحية الجنسية والثقافية وقد خضع النوبى لقبائل الفولةفىأثناء ثورتهم الكبرى فى بداية القرنالتاسع عشر وهم اليوم مسلمون.ونلاحظ أن الإسلام قد انتشر بين قبائل اليوروبا (Yoruba) فى جنوب نيجيرية الغربى كما دخل الإسلام إلى الجزء الشمالى من الكمرون واستقر فيه وزاد عدد أتباعه *

*Trimingham, J.S.: Islam in West Africa.Oxford.1959

دول غربى أفريقيا
اليـوم

تمخضت الحركات السياسية فى غربى أفريقية فى منتصف القرن العشرين عن ميلاد دول جديدة ، أصبح لها كيان سياسى مستقل ، وهى فى سبيل استعادة أمجادها القديمة وقد انضمت غالبية تلك الدول إلى هيئة الأمم المتحدة فيما بين ١٩٥٦ و١٩٦١ .

وفيما يلى ثبت بهذه الدول الناهضة .

جمهورية موريتانيا الإسلامية
(بلاد شنقيط)

نالت موريتانيا الاستقلال فى عام ١٩٦٠ ضمن مجموعة الاتحاد الفرنسى وتقدر مســاحتها ١٫٠٨٥٫٨٠٥ كم٢ وعدد سكانها ٦٤٠٫٠٠٠ نسمة غالبيتهم من المغاربة وتضم قبائل من التوكاور والســاركولة والفولة والبمبارة والولوف . عاصمتها نوا كشوط . وقد اعترضت المملكة المغربية على انضمام موريتانيا إلى هيئة الأمم المتحدة حينما تقدمت إليها وذلك لأنها تعتبرها امتداداً للمغرب ، كما حال الاتحاد السوفييتى دون قبول تلك الجمهورية عضواً فى هيئة الأمم المتحدة .

جمهورية السنغال

نالت استقلالها عام ١٩٥٨ وقد تكون منها . والسودان (الفرنسى سابقاً) الذى يعرف اليوم بمالى اتحاد فيدرالى فى أبريل عام ١٩٥٩ ولكن

انفصم هذا الاتحاد بعد عام واحد وتقدر مساحة السنغال بحوالى ١٩٧٫١٦١ كم٢ وعدد سكانه ٢٫٢٦٩٫٠٠٠ نسمة وعاصمته دكار

سيراليون

ظفر باستقلاله عام ١٩٦١ وتقدر مساحته بحوالى ٢٧٫٩٢٥ كم٢ ويبلغ عدد السكان ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ نسمة والعاصمة فريتون.

جمبيا

تشتمل البلاد على قسمين : جمبيا المستعمرة البريطانية ومساحتها ٢٩٫٤ م٢ وعدد سكانها ٣١٫٤٩٠ نسمة. ومحمية جمبيا ومساحتها ٣٫٩٤٨ م٢ وعدد سكانها ٢٨٩٫٠٠٠ نسمة وعاصمتها باتورست.

جمهورية غينيا

استقلت عن الاتحاد الفرنسى وتقدر مساحتها ٩٥٫٠٠٠ م٢ ويقدر عدد سكانها ٢٫٥٠٠٠٫٠٠٠ نسمة وعاصمتها كوناكرى

غينيا البرتغالية

مساحتها ١٤٫٠٠٠ م٢ ويبلغ عدد سكانها ٥٦٠٫٠٠٠ نسمة وعاصمتها بياو.

غينيا الأسبانية

مساحتها ١١٫٠٠٠ م٢ ويبلغ عدد سكانها ٢١٤٫٠٠٠ نسمة وعاصمتها سانتا ايزابيل.

جمهورية ليبريا

أقدم الجمهوريات المستقلة فى غربى أفريقية ، تقدر مساحتها بحوالى ٤٤٫٠٠٠م٢ وعدد سكانها ١٫٢٥٠٫٠٠٠ نسمة وعاصمتها منروفيا .

جمهورية ساحل العاج

تقدر مساحتها بحوالى ٣٢٢٫٤٦٣ كم٢ وعدد سكانها ٣٫٢١٤٫١٠٠ نسمة وعاصمتها أبدجان .

جمهورية غانة

ظفرت باستقلالها فى ٦ مارس ١٩٥٧ وكانت تعرف سابقا بمستعمرة ساحل الذهب تقدر مساحتها بحوالى ٩٢٫١٠٠م٢ ويبلغ عدد سكانها خمسة ملايين نسمة وعاصمتها أكرا .

جمهورية داهومى

نالت استقلالها ضمن الاتحاد الفرنسى عام ١٩٥٨ وتقدر مساحتها بحوالى ١١٥٫٧٦٢ كم٢ وعدد سكانها ١٫٧٥٠٫٠٠٠ نسمة وعاصمتها بورتونوفو .

جمهورية اتحاد نيجيريا

ظفرت نيجيرية باستقلالها عام ١٩٦٠ كجمهورية اتحادية تضم ثلاث مناطق : الشمالية والشرقية والغربية . يقدر مساحتها ٣٧٣٫٢٥٠م٢ بما فى ذلك الكمرون (ما يزال تحت الوصاية البريطانية) ويبلغ عدد سكانها بحوالى ٣٦ مليون نسمة نصفهم من المسلمين وعاصمة الاتحاد لاجوس .

جمهورية مالى

كانت تعرف باسم السودان الفرنسى ونالت استقلالها فى عام ١٩٦٠ وانضمت بعـــد ذلك فى اتحاد مع غانه وغينيا تقدر مساحتها بحوالى ١٫٢٠٤٫٠٢١ كم٢ وعدد سكانها حوالى أربعة ملايين نسمة وعاصمتها باماكو .

جمهورية فولتا العليا

نالت استقلالها عام ١٩٥٨ وتقدر مساحتها بحوالى ٢٧٤٫١٢٢ كم٢ وعدد سكانها ٣٫٧٠٠٫٠٠٠ نسمة وتؤلف قبائل موشى Mossi غالبية السكان وعاصمتها أوجادوجو .

جمهورية النيجر

ظفرت باستقلالها ضمن الاتحاد الفرنسى عام ١٩٥٨ وتقدر مساحتها بحوالى١٫١٨٨٫٧٩٤ كم٢ وعدد سكانها٣٫٠٤٠٫٠٠٠ نسمةوعاصمتها نيامى .

جمهورية شاد

نالت استقلالها فى عام ١٩٥٨وتقدر مساحتهابحوالى ١٫٢٨٤٫٠٠٠ كم٢ وعدد سكانها ٢٫٦٠٠٫٠٠٠ وعاصمتها فورت لامى .

الكمرون

كان تحت الوصاية الفرنسية تقدر مساحته بحوالى ١٦٧٫٠٠٠ وسكانها ٣٫٢٠٠٫٠٠٠ نسمةوعاصمتها ياوندى .

توجو

كانت تحت الوصاية الفرنسية ، تقدر مساحتها بحوالى ٢٢٠٠ م ٢ وعدد سكانها ١٠١٠٠٠ر١ نسمة وعاصمتها لومى .

جمهورية أفريقية الوسطى

كانت تعرف باونجى شارى تقدر مساحتها ٦١٧٠٠٠ر كم٢ ويبلغ عدد سكانها حوالى ١٢٠٠٠ر١ وعاصمتها بانجوى .

جمهورية جابون

نالت استقلالها ضمن الاتحاد الفرنسى عام ١٩٥٨ وتقدر مساحتها بحوالى ١١٥٧٦٢ر كم٢ وعدد سكانها ١٧٥٠٠٠ر١ نسمة وعاصمتها بورتونوفو .

جمهورية الكنغو الأوسط

نالت استقلالها فى يناير ١٩٥٩ وتقدر مساحتها بحوالى ٣٤٢٠٠٠ر كم ٢ وعدد سكانها ٨٠٠٠٠٠ر نسمة عاصمتها بونت نوار .



دول غربي أفريقيا بعد تحررها ١٩٦٠ / ١٩٦١

الفصل الثالث

إمبراطورية غانا

(٣٠٠م – ١٠٧٦م)

إمبراطورية غانة

٣٠٠ م — ١٠٧٦ م

فجر غانة قبل الاسلام

اقتبست غانة اسمها من المدينة ، التى كانت حاضرة الدولة قبل أن تصبح إمبراطورية ، كما أطلق أيضاً على الطبقة الحاكمة ، ولا يعنى هذا الاسم ، الشعب . وتتفق كلمة المؤرخين على أن مملكة غانة ، تأسست حول عام ٣٠٠م ثم نمت واتسعت رقعتها ، وكان أول ملوكها « كاز » الذى اتخذ أوكار فى الإقليم الذى يعرف بهذا الاسم عاصمة له . أما إقليم أوكار فهو إقليم رملى يقع جنوبى موريتانيا ، شكله متعدد الأضلاع ويضم الحذية وتيشت وولاته ونيمة وتجبيدرا . وقد ذكره البكرى الجغرافى (١٠٦٧ م) .

وحينما اتسعت غانة ، امتدت من نهر النيجر إلى ساحل الأطلسى غربا ، وشمالا عند حافة الصحراء الكبرى ، وقد ذكر الإدريسى الجغرافى (حوالى ٥٤٨ هـ — ١١٥٤م) أن أرض غانة تتصل من غربها ببلاد مقزارة ، ومن شرقيها ببلاد الذهب ونقارة ، ومن شمالها بالصحراء المتصلة التى بين أرض السودان وأرض البربر وتتصل من جنوبها بأرض الكفار من اللملمية (أكلة لحوم البشر) وغيرها (*) .

وقد تمكنت الأسرة الأولى ، التى تألفت من أربع وأربعين ملكا فى المدة الممتدة من القرن الرابع إلى القرن الثامن الميلادى أن تبسط حكمها بين أوكار وحوض (٢) ، ثم استطاع أحد شعوب الماندى وهو السوننكة وكانوا تابعين لغانة ، فى آخر القرن الثامن أن يخلع نير غانة ويرثها ، ويستولى على الحكم سنة ٧٧٠ م .

---

* انظر التعليقات فى نهاية الفصل

غانة فى مؤلفات العرب :

يرجع أول نص عربى لا لبس فيه ، عن السودان الغربى فيما دونه ابن عبد الحكم المؤرخ العربى (٨٠٣ — ٨٧٠ م) وذلك عندما تحدث عن حملة جردت إلى سوس جنوبى مراكش والسودان (٧٣٤ م) فقال : «وغزا عبيد الله بن أبى عبيدة الفهرى السوس وأرض السودان فظفر بهم ظفرا لم ير مثله وأصاب ما شاء من ذهب، وكان فيما أصاب جارية أو جاريتان من جنس تسميه البربر أجان (٣)

وفى أقل من عشرين سنة بعد ذلك ، نظم عبد الرحمن بن حبيب طريق القوافل بين جنوبى مراكش وأودغشت ، وذلك بأن حفر عدة آبار ماء جديدة (٤) ، وقد تكلم عن هذا الطريق مؤلف كتاب الاستبصار (حوالى ١١٩٢ م) * قائلا إنه يخرج من نهر درعة إلى غانة . ونلاحظ أن عبد الحكم لم يذكر صراحة غانة فيما كتبه ، مع أنها كانت موجودة فى أيامه (قبل عام ٨٧٠ م) . وكان أول من ذكرها من العرب ، الفزارى الفلكى الذى ذكر قبيل عام ٨٠٠ م عدة بلاد أفريقية منها إقليم غانة بلاد التبر(٥) ثم الخوارزمى الجغرافى (قبيل عام ٨٣٣ م) الذى حدد غانة فى خريطته التى نقلها عن بطليموس .

وذكر اليعقوبى الجغرافى (عام ٨٧٢ م) « ملك غانة ملك عظيم » ، وفى أرضه معادن التبر وهو صاحب عدة ممالك كثيرة (٦) ، ثم كتب ابن حوقل الجغرافى (حوالى ٩٧٧ م) بعد قرن من الزمان وكان زار أودغشت ، فقال « إن لملوك هذه المدينة صلات بملك غانة ، أغنى ممالك العالم لذهبها (٧) .

---

* مؤلف هذا الكتاب مجهول .

وجاء البكرى (١٠٦٧ م) فزودنا بأحسن المراجع عن السودان الغربى فى العصور الوسطى (٨) ، فذكر موقع غانة ووصف أحوال الشعب وملوكها .

ولم يكتب الإدريسى الجغرافى (١١٥٤م) شيئاً جديداً عن غانة ، ولكنه جمع ما كتبه السابقون (٩) وأضاف إليه بعض المعلومات التى كانت فى حاجة إلى الدقة والتمحيص . ولم يكن ما كتبه ابن خلدون الفيلسوف والمؤرخ المغربى (قبيل عام ١٤٠٠) إلا صدى لما جاء فى كتاب الإدريسى (١٠)

أما ابن بطوطة الرحالة المغربى (حوالى ١٣٥٣ / ٥٤ م) فقد كان ثانى المؤلفين العرب الذين زاروا السودان الغربى،أولهم ابن حوقل ، ونلاحظ أنه لم يذكر شيئاً عن غانة ، وكانت قد زالت عن الوجود ولكنه وصف أحوال وعادات شعبها وأحوال ملكها .

وهناك اثنان من المؤرخين السودانيين . كتبا عن تاريخ بلادهم بعد مؤرخى العرب ، وقد زودانا بمعلومات طيبة عن غانة ومالى ، هما محمود كعت(١١) الذى كتب تاريخ الفتاش فيمابين (١٥١٩ و١٦٦٥)،وعبدالرحمن السعدى(قبيل عام ١٦٥٥) الذى ألف تاريخ السودان (١٢) .

وقد ذكر محمود كعت « ... أن دولة مالى (ماندنجو) قامت بعد سقوط أسرة كايا ماجه * Kayamaga التى امتد نفوذها على جميع الأراضى الغربية بدون استثناء ... وقبيل ذلك كان كبير مالى من توابع كايا ماجه ، وكان اسم حاضرتهم كومبى ...... »

ولم يصل إلينا من أحوال شعب غانة إلا القليل ، كان يزرع الدخن

---

* كايا ماجة فى لغة أوواكورى معناها ملك الذهب ، وكلمة Kaihou معناها الذهب و Maga ملك

وبعض الحاجات ويشتغل فريق من الأهالى فى صيد الأسماك ، وكانوا يلبون نداء الملك لحمل السلاح فى أثناء الأزمات . ويصف الإدريسى أحوال ملوك غانة فيقول :

« ... وغانة (الحاضرة) مدينتان على ضفتى النيجر وهى أكبر بلاد السودان طرا وأكثرها خلقا وأوسعها متجرا وإليها يقصد التجار المياسير من جميع البلاد المحيطة بها من سائر بلاد المغرب الأقصى وأهلها مسلمون وملكها فيها يوصف من ذرية صالح بن عبد الله بن الحسن ابن الحسين بن على بن أبى طالب وهو يخطب لنفسه ، وله قصر على ضفة النيل (النيجر) قد أوثق بنيانه وأحكم إتقانه وزينت مساكنه بضروب من النقوشات والأدهان وشمسيات الزجاج ، وكان بنيان هذا القصر فى عام ٥١٠ ﻫ . وتتصل مملكته وأرضه بأرض ونقارة وهى بلاد التبر ، والذى يعلمه أهل المغرب الأقصى علما يقينا لا اختلاف فيه أن له فى قصره لبنة من ذهب وزنها ٣٠ رطلا من ذهب تبرة واحدة خلقها الله تعالى خلقة تامة من غير أن تسبك فى نار أو تطرق بآلة ، وقد نقر فيها ثقب وهى مربطة لفرس الملك ، وهى من الأشياء المغربة التى ليست عند غيره وهو يفخر بها على سائر ملوك السودان . وهو أعدل الناس فيما يحكى عنه ، ومن سيرته فى قربه من الناس وعدله فيهم أن له جملة قواد يركبون إلى قصره فى صباح كل يوم ، ولكل قائد منهم طبل يضرب على رأسه ، فإذا وصل إلى باب القصر سكت ، فإذا اجتمع إليه جميع قواده ركب وسار يقدمهم ويمشى فى أزقة المدينة ودوائر البلد ؛ فمن كانت له مظلمة تصدى له فلا يزال حاضرا بين يديه حتى يقضى مظلمته ثم يرجع إلى قصره ويتفرق قواده ، فإذا كان بعد العصر وسكن حر الشمس ركب مرة ثانية وخرج وحوله أجناده فلا يقدر أحد على قربه ولا على الوصول إليه ، وركوبه فى كل يوم مرتين ، ولباسه إزار حرير يتوشح به أو بردة يلتف بها وسراويل فى

وسطه ونعل شركى فى قدمه وركوبه الخيل، وله حلية حسنة وزى كامل يقدمه أمامه فى أعياده وله بنود كثيرة وراية واحدة وتمشى أمامه الفيلة والزرائف وضروب من الوحوش التى فى بلاد السودان. ولهم فى النيل زوارق وثيقة الإنشاء يتصيدون فيها ويتصرفون بين المدينتين بها، ولباس أهل غانة الأزر والفوط والأكسية، كل أحد على قدر همته»

وذكر لنا الإدريسى أن أهالى غانة يعتمدون فى معاركهم على القسى والنشاب والدبابيس وهذه الأخيرة يتخذونها من شجر الأبنوس ولهم حكمة وصناعة متقنة، وأما قسيهم فإنها من القصب الشوكى وسهامهم منه، وكذلك أوتارها من القصب.

ويصف محمود كعت مؤلف تاريخ الفتاش جانباً واحداً من جوانب البذخ الذى كان يتسم به بلاط كانيسا أى أحد ملوك غانة فى نهاية القرن السابع فيصف الإسطبلات الملكية قائلا :

«لم يكن هناك جواد واحد من جياد الملك الألف، لا ينام إلا إذا فرشت طنفسة تحته، وكان يوثق الجواد برباط من الحرير المجدول حول عنقه وفى قدميه وكان لكل جواد ثلاثة أشخاص لخدمته، يأخذون أماكنهم فى جواره، يعنى أحدهم بطعامه وثانيهم بسقيه وثالثهم بما يخرج منه» ويذكر مرة أخرى مؤلف تاريخ الفتاش أن فى كل ليلة كان يجلس الملك على عرش من الذهب الأحمر، ويحيط به حاملو الشعلات النارية، بينما يشاهد عشرة آلاف من رعاياه وهم يتناولون طعام العشاء من مطابخ القصر. تلك هى إحدى صور البذخ التى كان يعيش فيها أباطرة غانة، وكان الملك يتوسط دائماً أبهة بلاطه الرائع، تلك الأبهة التى تعكس بدون مبالغة بذخ دولته وفرط ثروتها، كان يتخذ مجلسه فى إيوان الملك، وقد رصعت ملابسه بالجواهر ويضع على رأسه ما يشبه التاج الذهبى. ويحف به طاقم من الجياد

المطهمة بالحلى الذهبية بينما يقف خلفه عشرة من الغلمان الوصفاء يمسكون الدرقات والسيوف المذهبة . وإلى اليمين يقف أبناء الأمراء التابعين لسلطانه. وهم مرتدون الملابس الجميلة وقد رصعوا شعورهم برقائق الحلى ، ويجلس الوزراء أمام الملك . ويقف حاكم المدينة عند قدميه ويحرس كلاب الصيد الإيوان الملكى. وحول رقابهم الأطواق والنواقيس الذهبية والفضية ، وتلك كانت تتبع الملك دواما أينما ذهب وطوف .

وكانت تقرع الطبول الملكية عند بداية أى حفل يشترك فيه الملك . وكانت تعرف « بالدبة » . أما أتباعه من الوثنيين فيركعون أمامه ، ثم يأخذون التراب من الأرض ويضعونه على رءوسهم . ويبدى المسلمون من رعاياه الاحترام بالتصفيق له ، فإذا مات الملك ، وضعت جثته على الطنافس والوسائد تحت قبة من الخشب ، وتوضع الأثواب وألوان الطعام والشراب إلى جانبها . وكان يدفن معه المقربون من الخدم والأتباع الذين يشرفون على خدمته الخاصة فى أثناء حياته ، ثم تغطى المقبرة بالحصير ويشترك الجمع المحتشد بإلقاء التراب على القبة حتى تصير كومة عالية ثم يحيطونها بخندق .

وكانت لبنـــة الذهب الضخمة التى ذكرها الإدريسى رمز الملكية . اشتهر أمرها فى العالم المعروف إذ ذاك وقدرها بعض الخبراء بثلاثين رطلا ، وذكر ابن خلدون أن بعد ما سقطت مدينة غانة فى قبضة المرابطين (١٠٧٦ م) وبعد ثلاثمائة سنة بيعت تلك السبيكة إلى أحد التجار فى مصر .

* * *

وكانت صلات غانة التجارية مع العالم الخارجى من الأهمية بمكان ، ويرجع ذلك إلى توسط موقعها . فقد كانت تشغل رقعة الأرض التى تقع عند الطرف الجنوبى لطريق القوافل الغربية عبر الصحراء الكبرى ، الذى

امتد بين سلجماسة (١٣) فى بلاد المغرب . مارا بتغازا التى اشتهرت بمناجم الملح ، وكانت تستورد غانة القماش والمنسوجات الحريرية والنحاس والملح ، وتصدر تراب الذهب وربما الجلود .

ولم يكن معظم ذهب غانة يعثر عليه فيها . لكن كانت ونقارة أهم الديار التى أمدتها به . وكان شعب الونقارة (١٤) يقطن بقعة فسيحة امتدت ثلاثمائة ميل طولا وخمسين عرضاً وفى جنوبها منطقة نهر سنغال . وليس من اليسير أن نعرف بالدقة موقع معادن الذهب فى ديار ونقارة وكان لغانة كما قلنا علاقات تجارية بينها وبين دول الشمال الأفريقى لا سيما تجارة الذهب . وقد ذكر ابن حوقل الجغرافى العربى (حوالى عام ٩٧٥ م) أنه شاهد فى « أودغشت » (١٥) على حافة الصحراء (وكانت على مسيرة ١٥ يوما إلى غربى مدينة غانة) صكا قيمته ٤٢٫٠٠٠ دينار كتب على ذمة التاجر السجلماسى إسحق إبراهيم بن عبد الله . (١٦)

مدينة غانة أو كومبى

ومدينة غانة أو « كومبى » كما أسماها شعب غانة هى عاصمة الإمبراطورية السوداء ، تألفت من قسمين هامين . يقع كل قسم منهما على تل . وتمتد نحو الوادى على رقعة سهل فسيحة . وكان يبعد كل قسم عن الآخر نحو ستة أميال يقطن المسلمون أحدهما ويسكن الوثنيون فى القسم الآخر . وقد أطلق المسلمون على ذلك القسم « الغابة » لأنها كانت تحيط بها الأحراش من كل جانب وهى موضع تقديس الأهالى وبها المقابر الملكية . ويعيش الكهنة والسحرة وعباد الأوثان فى الاحراش . كما أقيم فيها سجن عتيد ليقضى فيه المحكوم عليهم بالموت أيامهم الأخيرة .

وكان فى المدينة الإسلامية إثنا عشر مسجدا ، ويشهد هذا العدد بوجود طائفة كبيرة من المسلمين وقد عاش فيها كثير من العلماء ورجال الدين

والأدب والطلاب . وكانت العربية لغة التدوين، ليس عند المسلمين فحسب بل وفى جميع أنحاء الإمبراطورية وكان فى المدينة الوثنية مسجد واحد يؤدى فيه ضيوف الملك من المسلمين الصلاة ، يقع إلى جوار دار القضاء . وقد شغل مناصب الدولة المسلمون والوثنيون على السواء. ويذكر المورخ البكرى أن غالبية الوزراء كانوا من المسلمين ،وأن القائم بشئون الترجمة فى بلاط الملك ووزير الخزانة كانا أيضاً من المسلمين .

كان قسما المدينة أى كومبى مشيدين بعناية ، بنى بعض دورها بالحجارة وبعضها باللبن . وقد ذكر ابن خلدون أن عدد سكانها كان كبيرا وأنها أى المدينة كانت من أكثر مدن العالم وأزحمها بالسكان . وكان يرتدى أهلها الملابس الصوفية والقطنية والحريرية والمخملة . كما ازدهرت فيها صناعات نسج الأقمشة وزراعة التمر وصناعة النحاس والأحجار الكريمة والدروع والأسلحة المطعمة بالذهب والفضة .

وقد استمد البكرى وصف كومبى حاضرة غانة من المعلومات التى كان يحصل عليها من تجار البربر الذين عرفوا المدينة جيداً . وتتحدث معظم هذه المعلومات عن رخاء كومبى وأبهة القصر ونشاطها التجارى .

الطوارق والمرابطون وغانة

تلك هى نظرة شاملة لما كانت عليه أحوال غانة ومجتمعها فى الشطر الأول من تاريخها الوسيط وننتقل الآن إلى التحدث عن تاريخها ، وأهم الأحداث التى مرت بتلك الإمبراطورية السوداء .

كان لإسلام قبائل الطوارق (الملثمين) فى القرن الثالث الهجرى — التاسع الميلادى . أثر فى تطور الأحداث الهامة فى المغرب الأفريقى والسودان لا سيما بعد أن قام حلف لجمع شمل الملثمين بزعامة اللمتونى تيلوتان بن تيكلان الذى اعتنق الإسلام، وكان من أهداف الحلف التوسع نحو الجنوب لنشر الإسلام بين القبائل الزنجية بالسودان الغربى ، ولذلك كان لا بد أن يصطدموا بغانة التى كانت وصلت إذ ذاك إلى أوج مجدها وتوسعها حتى لقد وصفها ابن خلدون بقوله :

« كانوا أعظم أمة وأضخم ملك(١٧)امتدت منطقه نفوذهم من منعطف نهر نيجر جنوباً حتى مدينه آركى فى الشمال ، وتقع على مسيرة سبعة أيام من مضارب قبيلة لمتونة قرب وادى نون، ولكن كان من حسن طالع حلف الملثمين الصنهاجى أن دبت عوامل الضعف فى هذه الدولة الزنجية الكبيرة فى هذا الوقت بالذات . زحف الملثمون بجيشهم حتى استولوا على أودغشت واتخذوها حاضرة لهم وفرضوا الجزية على المغلوبين . وقد انتهز شعب صوصو فرصة هذا الاعتداء على جارته غانة فضربها من الجنوب . ثم تفككت روابط الحلف بين قبائل الملثمين عام ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م . فانتهزت غانة أحوال تفرق الحلف وبسطت ظلها على ما حول مدينة أودغشت مرة أخرى ،ولكنها لم تستطع رد أملاكها السابقه بعد استقرار الملثمين فيها ،ويبدو أن غانة قنعت بالسيطرة على أودغشت للتحكم فى طريق

التجارة بين بلاد السودان وسجلماسة والمغرب . وفى ذلك ربح طائل لاقتصادياتها ،ومن ثم وقفت غانة ثانية على قدميها طوال السنوات الخمسين التالية أعظم قوة فى السودان الغربى .

ولعل أهم آثار التصادم كان تسرب الإسلام إلى غانة المرة الأولى . .

ثم بدت عوامل جديدة أثرت على العلاقات بين قبائل الملثمين . فاتفقت كلمتهم على إعادة الوحدة والحلف مرة أخرى . فكروا على غانة ثانية،واستولوا على أودغشت (١٨) ويحتمل أن يكون ذلك قدتم حوالى عام ٣٥٠ هـ / ٩٦٠ م * فإن ابن حوقل (المسالك ص ٧١) طوف بديار الملثمين فى ذلك الوقت تقريباً ودخل أودغشت ووصف قوة ذلك الحلف الجديد . وعادت صنهاجة لبسط ظلها من جديد على الديار الممتدة من جبال درن فى الشمال إلى ثنية النيجر فى الجنوب ،ولم تهدأ ثائرة النضال، واستردت أودغشت ثم تفرقت كلمة الملثمين وعمتها الفرقة من جديد فى أوائل القرن الخامس الهجرى .وانتظروا فرصة مقبلة .

لم تنته أحداث الملثمين عند هذا الحد . كانت المعارك الأولى نقطة البداية حتى انطلقت دعوة دينية انبثقت فى صفوفهم . تلك الدعوة التى وحدت صفوفهم وأذكت فى نفوسهم الرغبة فى الجهاد .

وقبل أن نتحدث عن آثار تلك الدعوة على مهاجمة غانة ، نقول إن قبائل صنهاجة الجنوب لم تستطع العيش فى ظل الفرقة بين قبائلها . فقد كانت أحلاف زناتة والمصامدة فى الشمال لا تزال تسد مسالك المغرب والمحيط ،وكانت غانة تهدد تجارة السودان وهى مصدر رزق لقبائل صنهاجة الضاربة فى الصحراء فكان لزاماً أن يتحدوا ليقووا . وقد تم فعلا نوع من التحالف بين قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة بفضل الجهود التى بذلتها

* «يحتمل أن يكون ذلك على أيام أبى محمد بن تيلات المعروف باسم ترسينة اللمتونى ملك أودغشت»

لمتونة (١٩) ويبدو أن أهداف هذا الحلف الجديد كانت الهجوم على ملك غانة والسيطرة على طرق التجارة واسترداد ما فقده الحلف من مصالح تجارية . وربما كان هذا الحلف قد تم حول عام ٤٢٤ هـ / ١٠٣٢ م بزعامة ابن عبد الله بن نارشت اللمتونى (٢٠) ولكن لم يكتب لهذا الحلف أن تطول مدته ، فقد قتل زعيمه وهو يقاتل ملك غانة . وهزمت لمتونة وأخفقت فى استعادة أودغشت والسيطرة على مصادر ثروة السودان(٢١)

وكان من نتائج هذه الهزيمة أن تنحت لمتونة عن زعامة قبائل الملثمين ، ويرجع بعض أسباب هزيمتها إلى أن مضارب رجالها كانت فى أقاصى الشمال قرب حدود المغرب الأقصى ، وكان انتقالها إلى الجنوب وتخطيها حوض نهر سنغال للهجوم على السودان يطلب الجهود والأموال ، فلم تستطع أن تمضى فى هذا الجهاد حتى تبلغ هدفه ، وآلت زعامة الملثمين إلى قبيلة جدالة فأسرعت إلى المعركة التى كانت لا تزال مستمرة ، إذ أنها لو تخلت عن القيادة لذهبت قوة الملثمين ، وعادت غانة تتسرب إلى الشمال وتقضى على الجهود التى بذلت فى نشر الإسلام . وكانت جدالة أقدر على كفاح السودان لقرب ديارها من مملكة غانة ، وأعرف بأحوال البلاد وطباع أهلها ولغتها أيضاً .وكان زعيم جدالة فى ذلك الوقت يحيى بن إبراهيم .

* * *

فى يوم من الأيام كان الزعيم الطارقى يحيى بن إبراهيم ماراً بالقيروان عقب عودته من تأديته فريضة الحج . فتقابل بابن عمران الفقيه الفاسى ، الذى دهش حينما علم بجهل يحيى وأتباعه بشئون الإسلام ، فلمس حاجتهم إلى من يثقفهم ويهديهم إلى السبيل المستقيم ، ورأى أن يبحث له عن مرشد صالح ليمكن الإسلام القويم فى نفوس رجال يحيى ، فوقع اختياره

على عبد الله بن يسن السجلماسى ، وكان من آثار هذا الاختيار الموفق ، بداية امتداد نفوذ مذهب مالك من القيروان إلى المغرب الأقصى وتخطيه تخوم هذه الديار نحو الجنوب ، وانتشاره فيما بعد فى بلاد السودان الغربى .

رحل ابن يسن وأخذ يمهد للوحدة السياسية إلى جانب التمسك بأهداب الإسلام ولكنه لم يوفق كما أراد ، فاتبع طريقة أخرى ، رأى أن يهاجر نحو الجنوب مع بعض رفاقه إلى جزيرة تقع عند مصب نهر سنغال الأدنى واتبع عيشة الزهد والمرابطة ، وبدأ الناس يلتفون حوله وينضمون لرباطه واتخذوا اسم المرابطين ، والحق يقال إنه وقع على كتفى ابن يسن أن ينشىء جيلا جديداً من المسلمين ، ويعدهم للون من حيـــاة الجهاد ، ويغرس فى صدورهم فى الوقت نفسه ، مبادئ الإسلام الصحيحة ، حتى إذا مازاد عدد أنصاره من هؤلاء المرابطين ، خرج ليحقق أهداف السياسة التى صمم عليها ، وسار على رأس مجاهديه الشبان إلى السودان ، فاتجه إلى الشرق نحو ثنية النيجر ودخل مدينة أودغشت عام ١٠٥٤ م وانتزعها من ملك غانة (الذى كان استردها من الملثمين) بعد سقوط الحلف الصنهاجى ، ثم حمل أهل غانة على اعتناق الإسلام ، فدان به غالبيتهم .

كانت المعارك بين الجانبين مريرة جداً . . هذا يدافع عن عقيدته وذاك يدافع عن أرضه . . وفقد فيها مئات القتلى . وقد استشهد فى إحدى المعارك يحيى بن عمر ، ثم أوغل المرابطون فى تقدمهم إلى الجنوب ، وحالفوا زعيم التكرور (٢٢) فخاض غمار الحرب إلى جانبهم ، وكان من نتائج هذا النجاح أن انضمت قبيلة لمتونة إلى المرابطين . ثم عاد ابن يسن إلى الشمال ووحد عدة قبائل أخرى انضموا تحت زعامته .

وسوف لا نذكر هنا ، أعمال ابن يس وأتباعه فى المغرب الأقصى بعد انتصاره على جيش سجلماسة والأندلس . فهى كثيرة ومتشعبة ،

ومما يؤسف له أنه مات فى أشد اللحظات حرجاً ، إذ استشهد فى قتال برغواطة (١٠٥٧ م) وبموته فقد المسلمون زعيما ومجاهداً أفريقيا من كبار المناضلين فى نشر الدعوة . فقد وحد دولة واحدة — ما يقرب من الصحراء الغربية كلها — تحت لواء المرابطين ، والأقاليم الشمالية الخصبة التى تضم سوس وأغمات وسجلماسة وتوابعها ، وفضلا عن ذلك كان قد انتهى من تدعيم أسس ثابتة لإمبراطورية كبيرة تقع حدودها فى خارج أفريقيا . . .

اختار المرابطون خليفه لابن يس . ولم يعش طويلا ، فآل الآمر إلى أبى بكر بن عمر الذى جعل مقر حكمه فى أغمات فى المكان الذى قامت عليه فيما بعد مراكش الحالية ، واستطاع أبو بكر بعد جهاد دام أكثر من خمس عشرة سنة أن يهزم مملكة السوننكة الخاضعين لغانة ويضم بلادهم إلى دولة المرابطين وانكمش سلطان غانة وتفككت ممالكها واستقلت بعض أقاليمها .

وكانت غانة مع ذلك تنتهز الفرصة للانتقام من المرابطين وتهدد طريق سيادتهم بين كل حين وآخر . أليست الصحراء ميداناً فسيحاً لقتال الكر والفر ؟ ولذلك كان القضاء على غانة هدف الجماعات المتعصبة بين المرابطين ولا سيما فى خطة أبى بكر حينما قلد قيادة الجيش الشمالى من قواته عام ١٠٦٢ إلى يوسف بن تشفين وعاد إلى حرب الصحراء .

وجاء تنفيذ تلك الخطة بعد أربع عشرة سنة . فتمكن أبو بكر بمساعدة قبائل تكرور من الاستيلاء على كومبى (٢٣) وذبح أهلها وفرض الإسلام على جميع البلاد وقد تم له هذا النصر على إمبراطورية غانة عام ١٠٧٦ ومن ثم صارت إليه ورجاله حقول الذهب الغنية ، أهم مصادر الثروة السودانية فى ذلك الحين .

تبر غانة

كانت لتجارة الذهب المقام الأول فى ازدهار اقتصاديات العصور الوسطى فى غانة ، فكان يصدر إلى بلاد المغرب وإلى غربى أوربا ، وجاءها كثيرون من تجار مسلمى أفريقيا فاستقروا فيها لمزاولة التجارة أو للعمل فى الوظائف .

وقد مر بنا الحديث عن التبر فى غانة ومكانته فى رخائها، فقد كانت كما ذكر لنا ابن حوقل « أيسر من على وجه الأرض من ملوكها بما لديهم من الأموال والمدخرة من التبر المثار على قديم الأيام المتقدمين من ملوكهم » ، وكانت حاجة غانة إلى ملوك أو دغشت ماسة من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام ، فإنه لا قوام لهم إلا به ، وربما بلغ الحمل فى دواخل بلد السودان وأقاصيه ما بين مائتين إلى ثلثمائة دينار » .

وقال الإدريسى إن كومبى حاضرة غانة كانت أكبر أسواق السودان يقصدها التجار من المغرب ، ويجتمعون بها لمبادلة عروضهم، وكان التبر أهم منتجاتهم ولذلك كانت الحكومة تحتكر تجارته وتراقب أسعاره لكيلا يصيبه التلاعب والانخفاض ، ولا سيما سبائكه . أما التبر فكان يترك حراً فى الأسواق .

ويصف ياقوت الذى ألف معجمه بعد الإدريسى تجار الذهب فى سجلماسة ودرعة (٢٤) ممن يذهبون إلى السودان يحملون العروض الرخيصة ، ومنها الخرز وقطع المرجان ويحملون من تغازا (٢٥) الملح ، فإذا وصلوا إلى كومبى كان عملاؤهم فى انتظارهم ومعهم بعض الأهالى المحليين الذين لهم خبرة بأصول التجارة ، ثم يجوب التجار بصحبة عملائهم إلى الجنوب حوالى عشرين يوماً أو أكثر حتى يصلوا إلى سنغال فإذا

وصلوا إلى النهر قرع التجار الطبول الكبيرة لدعوة الأهالى ، وكان معظمهم عراة الأجسام ، يعيشون فى الكهوف أو الحفر .

وقد وصف ابن بطوطة والقلقشندى هذا الأسلوب التجـــارى فيما كتباه :

ولم يكن ذلك الأسلوب الذى يبدو عجيباً مقصوراً على أفريقية الغربية فإن تجارة الحرير كانت تجرى على هذا المنوال فى القرن الميلادى الأول بين الرومان والصينيين على ضفتى أحد الأنهار فى إقليم بارثية ، كما اتبع فى سيلان،وشاهده أحد الرواد الصينيين فى القرن الخامس ، ثم رآه مكتشف آخر بعد قرن فى الحبشة . . ألخ ولا يزال الأقزام فى الكنغو يتبعون الأسلوب نفسه (٢٦) .

وقد أثار البحث عن كشف مصادر الذهب فى غانة الكثيرين ، فقد كان لا يعرفها سوى طائفة قليلة العدد من أهالى البلاد ، ولذلك خفى أمرها عن الأجانب ، وساد الغموض حول ونقارة قرون طويلة ولم تكن تجارة غانة الخارجية مقصورة على التبر ، فقد كان التجار يرحلون من المغرب الأقصى وورجلة (٢٧) حاضرة مزاب فى أسفار طويلة وخطيرة عبر الصحراء لشراء الرقيق من العبيد ، وكان لهم سوق رائجة فى الشمال ، وقد اشتهرت كومبى بسوقها وكان التجار يمدونه عن طريق الغارات على قبائل الأحراش عند التخوم الجنوبية وقد اشترك فى هذا العمل أهالى السودان جميعاً بين أقاليم البحر الأحمر والمحيط الأطلسى . أما غانة فكانت تحصل على رقيقها من القبـائل أكلة لحوم البشر الذين كانوا يعرفون عند العرب بقبائل لملم أو دمدم ومنها قبائل نيام نيام (٢٨) .

وينبغى ألا نظن أن غانة كانت دولة لا تعرف ممالك الشمال الأفريقى عنها إلا قليلا ، ففى الواقع كانت دولة المغرب الأقصى تفيد كثيراً من قيام

مملكة قوية فى الجنوب ، تقع على تخوم الصحراء والسودان . فبالرغم من بعدها فيما وراء الصحراء الشاقة،كانت غانة والمغرب يتبادلان تجارتيهما ويتشاركان الثراء فكانت سجلماسة سوق الشمال فى واحة تفيليت ، جنوبى جبال أطلس زاهرة فى القرن العاشر .

نهاية إمبراطورية غانة

لم يكن لسقوط غانة ، الآثار البعيدة المدى المنتظرة التى كان يتوقعها الزعماء الأفريقيون فى ذلك الحين ، ذلك لأن انهيار المرابطين كان سريعا فى الجنوب بل أسرع من نهايتهم فى الشمال ، فقد عادت من جديد الخلافات القبلية ، تلك الخلافات التى كانت دواماً سبب ضعفهم وفشلهم ، وذلك لأن بعض قبائلهم بينها مسوفة ولمتة رفضتا العمـــل معاً تحت زعامة لمتونة — تلك القبيلة التى كانت بمثابة العامود الفقرى للدرابطين ، فى حين ظلت جدالة واقفة بعيدة عنهما .

وآل الأمر إلى يوسف بن تشفين بعد موت أبى بكر عام ١٠٨٦ م ولم يكن سيد شمالى أفريقيا فحسب ، بل كان صاحب الكلمة فى الأندلس ، حينما انتصر على الملك الفونسو السادس فى معركة الزلاقة ، (٢٣ أكتوبر ١٠٨٦) وخلال عشرة أعوام بعد هزيمة غانة ، كان المرابطون قد أسسوا إمبراطورية امتدت من السنغال غربى أفريقية إلى نهر الابرو فى الأندلس، وقد دامت تلك الإمبراطورية حوالى مائة عام إلى أن قامت فى أعقابها دولة الموحدين .

وفى أثناء تفكك المرابطين وانشغالهم بدولتهم فى الأندلس استطاع السوننكة ، شعب إقليم صوصو التابع لغانة أن يستعيدوا استقلالهم ، ولكنهم لما كانوا كالمرابطين تعوزهم الوحدة وتسودهم الروح القبلية ،

فإنهم لم يستفيدوا بمزايا الظروف والأحداث المعاصرة فعاد الشقاق إلى صفوفهم، ورغب كل إقليم أن يستقل ببلده، ولم يعملوا فى سبيل وحدتهم للصمود فى وجه عدوهم المشترك فى الشمال.

كان يقع إقليم صوصو (سوسو بتفخيم الواوين) ويسمى الإنكارية فى الغرب من إقليم مالى قبل أن تصبح الأخيرة دولة كبرى، وكانت تحمل قصبتها هذا الاسم سكنها وحكمها السوننكة، وكانت مملكة صوصو فى الأصل ولاية من ولايات غانة، استقلت فى أواخر القرن الحادى عشر عندما انهارت غانة تحت أقدام المرابطين (١٠٧٦) وكانت الأسرة التى تحكم صوصو فى ذلك الوقت فرعا من أسرة سركلة يسمى جرسو، وقد خلعها عن العرش حوالى عام ١١٨٠ جندى، كان هو أيضاً من السركلة إلا أنه كان وثنياً ينتمى إلى طائفة من الحدادين يدعى «جره كنته» وخلفه سوما نكورو فزاد كثيراً فى سلطان مملكة صوصو بأن أضاف إليها عدة ولايات شمالى حدودها القديمة وجنوبها وبخاصة وغدو وبفنة التى كانت تشمل كومبى حاضرة غانة، وماندنك أو مالى التى تقع على ضفتى نهر نيجر الأعلى فوق باماكو.

استولى جيش صوصو بقيادة سومانكورو الوثنى على قصبة غانة عام ١٢٠٣ م فاضطهد مسلمى غانة، وسرعان ما هربوا من جوره ومعهم بعض السوننكة الأغنياء وقصدوا الصحراء حيث بيرو أو ولاته على بعد بضع مئات من الأميال إلى شمالى كومبى، وجعلوا من ذلك المكان مركزاً للحياة الإسلامية (١٢٢٤ م) ثم نمت البلدة على مر الأيام وأصبحت من أهم الأسواق فى الصحراء الكبرى. أما كومبى فقد محى أثرها.

وشرع سوما نكورو فى غزو ماندنك (مالى) فى كنجابة بالجنوب وفتحها وتقول رواية إنه قتل أحد عشر ملكا من ملوك ماندنك بين عامى

(١٢٢٤ — ١٢٣٠) وكان يقتلهم بمجرد أن يعتلوا العرش، إلا أنه ألقى مقاومة عنيفة من الملك الثانى عشر ويسميه ابن خلدون « مارجته » كما يطلق عليه السودانيون سون جته، وقد أفلح هذا الشاب فى استمالة أتباع كثيرين لا فى ماندنك وحدها ، بل فى الولايات المتاخمة لها أيضاً ، وكانت هذه الولايات كبلاده ، تواقة إلى الخلاص من استبداد سومانكورو سفاك الدماء ، فامتشق الحسام فى وجهه ، والتقى الجيشان قرب نهر النيجر عند كيرينا قرب كولكورو حوالى عام ١٢٣٥ (٣٠) وتقول الرواية إن سون جته قضى على ملك صوصو بإصابته بسهم اتخذ رأسه من مهماز ديك أبيض ، ونفذ السهم فى جسمه وهكذا حرر « سون جته » أهل ماندنك من عبودية صوصو وفتح المدينة وجميع البلاد التى كانت قصبتها ماندنك ومد فتوحه شمالا حتى بلغ حاضرة غانة القديمة واستولى عليها عام ١٢٤٠ م ودمرها. ومن ثم استبدل بسلطان دولة صوصو سلطان مالى وبدأ فى تدوين صفحة جديدة لإمبراطورية مزدهرة فى غربى أفريقية عرفت باسم إمبراطورية مالى الإسلامية .

أما من بقوا من أهالى صوصو أحياء فقد فروا نحو تكرور حيث أسسوا أسرة أخرى ظلت على حكم البلاد التى نزلوا فيها إلى حوالى عام ١٣٥٠ م حينما تغلبت قبائل الولوف (٣١) عليهم .

تعليقـــات

(١) الإدريسى : وصف أفريقية الشمالية والصحراوية المقتبس عن كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، نشره هنرى بريس — الجزائر عام ١٩٥٧ص ٧ — ٧٠

(٢) حوض (Hodh) إقليم شبه صحراوى يقع شرقى الصحراء الكبرى الأفريقية ، ويمتد إلى الشرق من تنبكتو مسافة تقرب من مائتى ميل ، ويتجول فى طول الحوض وعرضه قبائل من العرب أو البربر المستعربة أهمها الإغلل وأولاد الناصر — دائرة المعارف الإسلامية.

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح أفريقيـة والأندلس ، نشر النص العربى والترجمة الفرنسية ألبرت جاتو — ١٩٤٨ — ص ١٢٢ .

(٤) أبو عبيد البكرى : المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب — طبعة عام ١٩١٣ — ص ٢٩٦ — ٢٩٨ .

(٥) يوسف كمال Monumenta Cartographica — القاهرة — أربعة مجلدات ١٩٢٦ — ١٩٣٨ . ج ٣ لوحة ١ عام ١٩٣٠ ص ٥١٠ .

(٦) المصدر السابق ص ٥٤٠و٥٤١ .

(٧) المصدر السابق ص ٦٤٧ .

(٨) البكرى : المصدر المذكور فى ٤ ص ٣٢٧ — ٣١٣ .

(٩) الإدريسى : طبعة عام ١٨٦٦ ص ٧ .

(١٠) ابن خلدون: المقدمة ترجمة دى سلين، باريس١٨٦٣ ص١١٥ .

(١١) محمود كعت التنبكتى : تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ، ترجمة هوداس وديلافوس ، باريس عام ١٩١٣ .

(١٢) عبد الرحمن السعدى : تاريخ السودان ، نشره وعلق عليه هوداس ، باريس ١٨٩٨ .

(١٣) سجلماسة كانت إذ ذاك مدينة حسنة الموضع جليلة الأهل على نهر يزيد فى الصيف كزيادة النيل .

(١٤) ونقارة هى بلاد التبر مشهورة بالخير تحيط بها الماء من كل جهة وعندما يفيض النهر (النيجر) يغطى أرضها وحينما يأخذ فى الرجوع يهرع الناس ، ويجد كل إنسان منهم الماء فى بحثه عن التبر ثم يبيعونه لأهل المغرب فيصرفونه دنانير ، والتبر أكبر غلة عند السودان وعليها يعولون وأرض ونقارة فيها بلاد ومعاقل وأهلها أغنياء وهم سود جدا ، عاش فيها شعب صوصو وماندينجو الشرق . (وصف أفريقية الشمالية والصحراوية ص ٩) .

(١٥) أودغشت وأودغست مدينة قيمة فى شمال غربى أفريقية ، لم يصبح لها أثر اليوم ، قال البكرى الجغرافى إنها كانت بين بلاد الزنوج وبين سجلماسة على مسيرة ٥١ يوماً من واحة سجلماسة وخمسة عشر يوماً من غانة (البكرى المسالك والممالك — ترجمة دى سلين ص٣٤٩ ومابعدها) .

كانت محطة تجارية للصنهاجيين على الحدود الشمالية لغانة ، ولما فتح بنو صنهاجه جزءا كبيرا من بلاد غانة حوالى آخر القرن العاشر الميلادى أصبحت أودغشت عاصمة لتلك القبيلة القوية ، وبين عامى ٣٥٠ — ٣٦٠هـ — (٩٦١ — ٩٧١) م كان يلى أمرهم تين بروتن وهو أمير صنهاجى وكان يتبعه أكثر من عشرين ملكا من ملوك السودان . وفى القرن التالى أغار ابن يس مؤسس دولة المرابطين على أودغشت فحاصرها وأعمل النهب فيها وذبح سكانها (٤٤٦ هـ — ١٠٥٤ / ١٠٥٥ م) وفى أوائل القرن الثالث عشر أغار الصوصو على بلاد أودغشت وأخرجوا بنى صنهاجة منها وأخضعوهم لسلطانهم .

وكانت أودغشت فى أيام البكرى لا تزال مدينة زاهرة وكان سكانها يتألفون من عرب المغاربة ومن حلفائهم من أفريقية ومن البربر ومن السودان وفيها مدارس ومساجد وأبنية عامة جميـــلة ومنازل وأسواق، وكانت فيها تجارة هامة فى الحبوب والفاكهة التى ترد إليها من الممالك الإسلامية وفى المصنوعات النحاسية والأقمشة الحريرية الموشاة وكان يدفع ثمنها تبراً ، واضمحلت تمـاماً فى عهد الإدريسى وقل سكانها وخمل شأن التجارة بهـا وأصبحت تربية الإبل الوسيلة الوحيدة لمعيشة سكانها (دائرة المعارف الإسلامية) .

(١٦) ابن حوقل : كتاب صورة الأرض ـــ الطبعة الثانية ـــ ليدن ص ٩٩ ـــ ١٠٠

(١٨) ابن خلدون : كتاب العبر جـ ٦ ص ١٩٩ .

(١٨) يقول ابن حوقل إن ملك أودغشت كان يخالط ملك غانة وهى أيسر من على وجه الأرض من ملوكها بمـا لديه من الأموال والمدخرة من التبر المثار على قديم الأيام للمتقدمين من ملوكهم ، وحاجتهم إلى ملوك أودغشت ماسة من أجل الملح الخارج من ناحية الإسلام فإنه لا قوام لهم إلابه ، وربما بلغ الحمل من الملح فى دواخل بلد السودان وأقاصيه ما بين مائتى إلى ثلثمائة دينار (صورة الأرض جـ ١ ص ١٠١) .

(١٩) دكتور حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٠١ ـــ القاهرة

(٢٠) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٨٩

(٢١) البكرى : المغرب ص ١٧٥

(٢٢) تكرورشعب من الزنج يسكن الجزء الأكبر من وهاد فوته السنغالية ومن بندو وبلاد فوته على جانبى نهر السنغال ويدخل فيها من الغرب إلى الشرق أقاليم أخرى وتكاور (Tuculor) تحريف بسيط

لاسم هذا الشعب كما تنطق به قبائل ولوف (Wolof) التى تقطن المجرى الأدنى لنهر الكنغو، وتقول العرب تكرور وبالنسبة إليه تكرورى والجمع تكارير (دائرة المعارف الإسلامية) .

(٢٣) أشار أبو الفداء وابن خلدون فى القرن الرابع عشر إلى كومبى التى يبدو أنها كانت لا تزال باقية إلى ذلك التاريخ ولا شك أنه ارتبك عليهما الأمر وخلطاها بولاته كما أثبت ذلك أحد الرواد الأجانب .

(٢٤) كانت تبعد درعة عن سجلماسة ثلاثة مراحل ، ودرعة ليست مدينة يحوطها سور أو خندق وإنما كانت قرى متصلة ومبان متقاربة ومزارع كثيرة يعيش فيها أخلاط من البربر وهى على نهر سجلماسة ويزرع فيها الحناء والكمون والكروياء والنيلج ويكثر الأول فيها (الإدريسى : نزهة المشتاق ص ٣٨)

(٢٥) مر ابن بطوطة بتغازا فى رحلته ووصفها بأنها قرية لا خير فيها وإن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقفها من جلود الجمال ولا شجر بها وإنما هى رمل نحتت ووضعت تحت الأرض ، يحمل الجمل منها لوحين ، ولا يسكنها إلا عبيد مسوفة الذين يحفرون على الملح ويتعيشون بما يجلب إليهم من تمر درعة وسجلماسة ومن لحوم الجمال ويصل السودان من بلادهم فيحملون منها الملح ،وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب ، والفضة يقطعونه قطعاً ويتبايعون به وقرية تغازا على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر ، وماؤها زعاق وهى أكثر المواضع ذبابا .

(٢٦) E.W. Bovill:The Golden Trade of the Moors p. 83

(٢٧) ورجلة عاصمة مزاب بالمغرب الأقصى وكانت من مراكزه التجارية .

(٢٨) انظر ص ٨٣ (هامش) فى الكتاب المذكور فى (١٧)

(٢٩) زار ولاته ابن بطوطة فيما بين ١٣٥٢ / ٥٣ م ـ كانت مركزاً تجارياً هاماً ولكن بعد حروب سنى على سلطان سنغاى ذكر الرحالة الحسن بن الوزان (ليو الأفريقى) أن التجارة تحولت إلى تنبكتو وجاغ (جاجو) حاضرة سنغاى .

J. D. Fage : An Introduction to the History of (٣٠)
West Africa 1959 pp 22-24 .

(٣١) الولوف أو الجولوف قبائل يحتلون مع قبائل سرر Serer معظم الأراضى التى تشغل الشقة فيما بين نهرى سنغال وجمبيا وتحتل قبائل الولوف الشقة الساحلية فيما بين سنت لويس والرأس الأخضر (بما فيها دكار) والشقة الجنوبية لنهر سنغال وينتشرون إلى الداخل فى بقعة متسعة وغالبية الولوف تدين اليوم بالإسلام.

(سلجمان — السلالات البشرية فى إفريقية — الترجمة العربية ص ٥٣)

الفصل الرابع

إمبراطورية مالي

(١٢٣٨ م – ١٤٨٨ م.)

إمبراطورية مالى*

١٢٣٨م — ١٤٨٨م

فجر مالى :

إن ما وصل إلينا من تاريخ مالى المبكر لقليل جداً ، ففى أواسط القرن الحادى عشر فى أثناء ازدهار غانة ، اعتنق حكام دولة كنجابة الصغيرة الدين الإسلامى وبدءوا فى الأعوام الأولى من القرن الثالث عشر يوسعون حدود دولتهم نحو الجنوب والجنوب الشرقى ، وقد مر بنا الحديث فى الفصل السابق كيف أثار قيام كنجابة حسد وعداء الملك سو ما نكورو ، فبدأ يتآمر ضد ملوكها واحداً بعد الآخر ، وقد أصابه النجاح فى بادئ الأمر حتى غلبه أحدهم وقضى عليـه . وقد تم هذا النصر على يد « سون جته ، « سنديانه » الذى تغلب عليه فى معركة كيرينه (١٢٣٥) . وقد حقق هذا بفضل جيشه المنظم . مما شجعه على امتشاق حسامه فى سلسلة من المعارك فتم له إخضاع إمبراطورية صوصو فى خمس سنوات . وخرب ما بقى من عاصمة غانة (١٢٤٠) ثم نقل فى نفس العام ، عاصمة ملكه من جريبة فى كنجابة ، إلى مدينة جديدة بناها أطلق عليها نيانى [1] أو مالى وذلك لتتوسط أنحاء إمبراطوريته ، وسرعان ما احتلت مكانة غانة القديمة كأشهر

---

* تعنى كلمة مالى « حيث يعيش الملك » ولذلك أطلقت على جميع العواصم التى عرفت فى امبراطورية مالى أو ملى ، وكلمة ماندى صورة أخرى لكلمة مالى ومعنى كلمة ماندنجو أو مالنكي شعب مالى أو رعايا مالى : ويقابل كلمة ماندنجو عند الهوسا ونقارة . والماندنجو من أم الشعوب التى يتألف منها السنغال ويحتلون فى السودان الفرنسى « سابقا » مكانة مماثلة لمكانة قبائل الهوسا فى نيجرية الشمالية ومن قبائل الماندى : دوبلة وكامونكي وجولونكي وعبارة « بنب » وسوننكس ومالينكي وفى .

وأغنى مدن السودان الغربى ، واجتذبت إليها تجار المغرب فاتخذوها مقاماً لنشاطهم قبيل نهاية القرن الثالث عشر .

قلنا إن الإسلام شق طريقه إلى أسرة مالى الحاكمة فى منتصف القرن الحادى عشر ، تم هذا حينما غزا المرابطون بقيادة ابن يس ديار غانة الخارجية (١٠٥٠ م) ونلتقى فى نفس تلك السنة المرة الأولى باسم « برمندانة » ملك مالى الذى اعتنق الإسلام ، ثم أدى فريضة الحج وتبعه خلفاؤه ، الواحد بعد الآخر .

ولم يصل إلينا شىء من تاريخ مالى فى القرنين التاليين ، حتى عام ١٢٣٥م وهى السنة التى تغلب فيها سندياته على سومانكورو وملكصوصو، ومن ثم بدأ يشيد إمبراطورية مالى الكبرى * بعد أن توفرت لهذه الدولة الفتية القوة بامتلاكها ناصية المجد الحربى وتجنيدها جيشاً يعتمد على الفرسان والإبالة ثم تبنيها حركة الجهاد الإسلامية .

مالى فى مؤلفات العرب

ذكر مؤلف مسالك الأبصار أن مالى تعرف عند العامة ببلاد تكرور ويطلق على سلطانهم فى مصر سلطان التكرور ، والواقع أنه لو سمع هذا لأنف منه ، لأن التكرور إنما هو إقليم من أقاليم مملكته والأحب إليه أن يقال « صاحب مالى » لأنه الإقليم الأكبر ، وهو به أشهر ، وليس بمالى من يطلق عليه اسم ملك إلا صاحب غانة دون غيره لعدم انتزاعها منه والاستيلاء عليها استيلاء كلياً .

وقال ابن خلدون : إن هذه الممالك كانت بيد ملوك متفرقة ، وكان من

---

* يعرف الى اليوم بين الماندنجو فى سيراليون باسم « مارى جتة » ويعتبرونه فى مقدمة أبطالهم فى تاريخهم الاولى .

أعظمها مملكة غانة ، فلما أسلم الملثمون من البربر تسلطوا عليهم بالغزو حتى دان كثير منهم بالإسلام ، وأعطى الجزية آخرون ، وضعف بذلك ملك غانة واضمحل ، فتغلب عليهم أهل صوصو المجاورون لهم ، وملكوا غانة من أيدى أهلها ، وكان أهل مالى قد دخلوا فى الإسلام من زمن قديم .

وحدثنا ابن خلدون فى كتابه العبر بأن مالى اشتملت على خمسة أقاليم وكل إقليم منها مملكة بذاتها .

الإقليم الأول : مالى

واقع بين إقليم صوصو وإقليم كوكو ، صوصو من غربيه وكوكو من شرقيه وقاعدته مدينة بنى ليس لهاسور ، بل يستدير بها عدة فروع من النيل من جهاتها الأربع بعضها يخاض فى أيام قلة الماء ، وبعضها لا يعبر فيه إلا فى السفن ، وللملك عدة قصور يدور بها سور واحد .

الإقليم الثانى : صوصو

وهم يسمونها الانكارية وهو فى الغرب من إقليم مالى .

الإقليم الثالث : غانة

وهو غربى إقليم صوصو تجاور المحيط الغربى ، قاعدته مدينة غانة التى أضيف إليها .

الإقليم الرابع : بلاد كوكو

وهى شرقى إقليم مالى وملكها قائم بنفسه ، له حشم وقواد وأجناد وزى كامل ، وهم يركبون الخيل والجمال ، ولهم بأس وقهر لمن جاورهم

من الأمم وقاعدته مدينة كوكو (٢) وموقعها فى الجنوب من الإقليم الأول،وهى مقر صاحب تلك البلاد وهو كافر .

الإقليم الخامس : بلاد تكرور

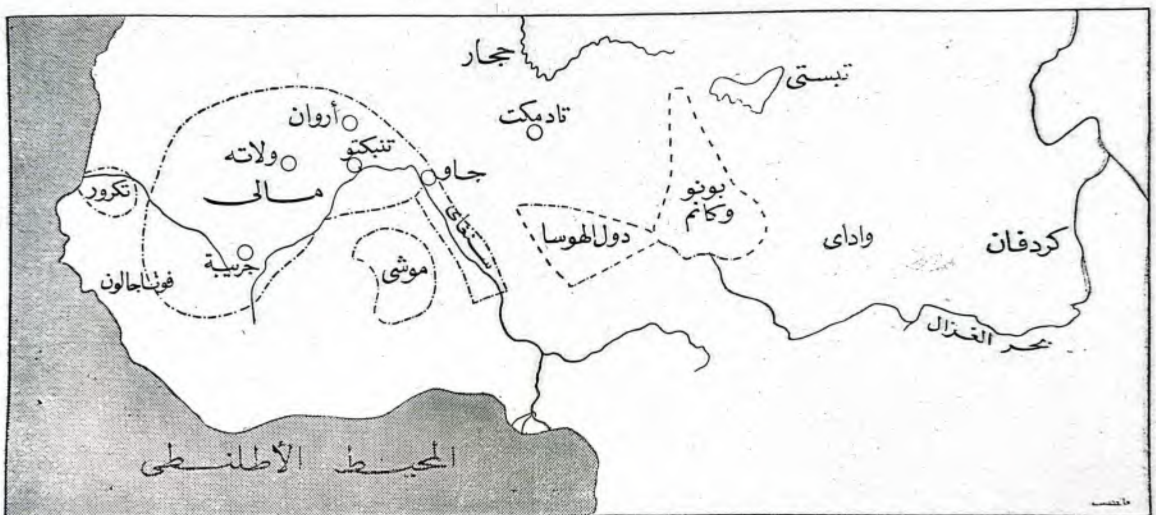
وهى شرقى إقليم كوكو وقاعدته مدينة تكرور وهى على النهر وطعام أهلها السمك والذرة والألبان وأكثر مواشيهم الجمال والمعز ، ولباس عامة أهلها الصوف ، ولباس خاصتهم القطن والمآزر ،وبينها وبين سجلماسة فى المغرب أربعون يوماً بسير القوافل ، وهذه المملكة تشتمل على أربعة عشر إقليما منها غانة وزافون وترنكا وتكرور..ألخ (٣)

وكان كل إقليم من هذه الخمسة مملكة مستقلة ، ثم اجتمع الكل فى مملكة صاحب هذه المملكة ،ومالى أصل مملكته .

* * *

وبالرغم من أن اسم تكرور قد شاع وذاع فى العصور الوسيطة غير أنه لم تصل إلينا معلومات كثيرة عنه لقلة أوندرة الوثائق التاريخية ولكن المعروف أن تكرور القرن الحادى عشر كان موطن التوكولور الذين اتخذوا فوتا فيما بعد موطناً لهم ، حيث يعرفون إلى اليوم باسم تكارير ، وهم مثل السوننكه الغانيين ، تجار نشطون اشتغلوا فى تجارة الرقيق إلى المغرب ، وحذقوا التجارة المحلية ، فكانوا يستوردون الملح من أوليل (٤) عند مصب نهر سنغال ويوزعونه فى بقاع كثيرة من السودان الغربى ، ومن أهم صناعاتهم نسج نوع من القماش الخشن أطلق عليه البكرى « شيجية » وكان يصنع فى البلاد حتى القرن التاسع عشر (٥) ويباع فى تنبكتو .

ومن القبائل التى غزاها التوكولور لجلب الرقيق، قبيلة الفيراوى وكانت فى شديد الحاجة إلى الملح ، يستبدلون به الذهب وزناً بوزن ! وكانت بلادهم غنية به .



أهم الممالك السودانية فى غربى إفريقية أثناء القرن الرابع عشر

أباطرة مالى

سندياته أو مارى جاطة * ملك مالى ١٢٣٠ م
وإمبراطور مالى ١٢٣٨ — ١٢٥٥م

يتسم عصر سندياته المؤسس الحقيقى لإمبراطورية مالى بالحروب المتعاقبة، فلما جلس على العرش ، لم يكن يتنبأ له أحد بما سيوفق إليه من أعمال البطولة والبناء ، ولم يكن محبوباً عند رعاياه فخشوا بأسه وبطشه ولكنه كان على أية حال بناء دولة .

وأحاطت به الأخطار فى بداية حكمه فالتجأ إلى بعض شجعان الرماة فى بلاده وجعلهم حراساً يقومون بحمايته من المعتدين . وقد ذكرنا عنه أنه قضى على صوصو ، ووجه ضرباته ضد الممالك المجاورة ومنها البلاد التى كان يحكمها عمه ، فأرغمه على أن يخضع له ونصبه قائداً فى جيشه الجديد، ثم اتجه إلى الغرب وغزا لبى التى تقع فى إقليم فوتاجالون ، ثم سار إلى الشرق عابراً النيجر وأخضع القبائل التى اعترضته فى طريقه إليها ، وبعد قتال استمر عدة أعوام عاد إلى جريبة** حاضرة مملكته الأولى على رأس جيشه الظافر فاستقبله الأهالى بحماسة (١٢٣٤)

وفى العام التالى تم انتصاره على صوصو ، فخلى له الجو فى تلك البقاع ثم دأب على تنظيم شئون دولته الفتية . واتجه سندياته(١٢٤٠) إلى عاصمة غانة القديمة وخربها تماماً ، لكنه استبقى ملكها الذى رضى بالخضوع له وسمح له بالاحتفاظ بلقب « ملك غانة » وحرم على جميع حكام الإقليم استعمال الألقاب الملكية .

---

* معنى مارى : الأمير الذى يكون من نسل السلطان، ومعنى جاطة الأسد.
** تذكرها بعض المراجع جليبة

وأمر سندياته بأن تنقل حاضرة دولته إلى « نيانى » [مالى] وقد رأى فى ذلك مظهراً جديداً لازدهار دولته وعلو شأنها السياسى ، لم يبق منها اليوم إلا قرية صغيرة حافظت على اسم العاصمة الكبيرة ، وتقع على الشاطىء الأيسر لنهر سنكرانى فى النيجر الأعلى وإلى الشمال الشرقى من جريبة .

ولم يمتشق سندياته الحسام مرة أخرى ولكن انتشرت حاميات جيشه بين ساحل الأطلسى إلى كانو وكتسينة وزارية فى الشرق ، وإلى قلب الأدغال فى الجنوب بل وأوغلت شمالا فى الصحراء ، وأصبحت مالى أقوى دولة فى السودان الغربى ، لها بأس وسيادة ونظم إدارية، فضلا عما كانت تملكه من مناجم الذهب فى ونقارة . وعلى ذكر هذا المعدن النفيس ، فقد حاول سندياته أن يحول قبائل ونقارة عن الوثنية إلى الإسلام ولكنهم لم يستسلموا وأوقفوا العمل فى البحث عن الذهب، فاضطر إلى مهادنتهم وتركهم لعباداتهم وتقاليدهم ، فاستأنفوا أعمالهم واستمرت أحوال دولته محتفظة بازدهارها التجارى .

كان سندياته قاهر غانة المؤسس لمجد وعظمة مالى فى القرن الثالث عشر ، وفى سبيل ذلك لم يتبع سياسة نشيطة حربية من أجل النهوض بمملكته الصغيرة والعمل على رفعها إلى مستوى الدولة القوية فحسب ، لكنه عمل جاهداً على تدعيم نظم الإدارة فى بلاده وتشجيع الزراعة ولا سيما القطن (٦)

ومات سندياته عام ١٢٥٥ م بعد حكم استمر خمسا وعشرين سنة وقد أثبتت أسرة سندياته أنها جديرة حقاً بمؤسسها .

منسا على — ولى *

١٢٥٥ — ١٢٧٠

جلس على عرش مالى بعد موت سندياته ابنه منسا ولى ، وكان من أعظم حكام بلاده ومحباً للسلم ، قام بتأدية فريضة الحج على عادة سلفه برمندانه عام ١٠٥٠ م . وقد أشار القلقشندى لخروج منسا ولى للحج فى أيام السلطان بيبرس فى قافلة كبيرة اجتازت الدرب الصحراوى المعروف بطريق غات والذى يمتد من هذه المدينة وينتهى عند أهرام مصر . وكان لهذا الحجيج صدى ودوى فى أنحاء أفريقيا وبعض بقاع العالم العربى .

جنح منسا ولى إلى السلم ، ولكن قادته لم يشاركوه فى سياسته ، ورأوا أنه لم يبق لهم عمل فى ظل راية الهدوء ، ولذلك قاد بعضهم جيوشه وغزوا أقاليم أخرى، فضم أحدهم بامبوك (٧) وقام آخرون بغزو كونكودوجو وجنجران وونقارة .

ولم يقف أحد من المؤرخين على أحوال مالى فى أيام هـــذا السلطان ولكنهم يتفقون على أنه فيما بين ١٢٧٠ و١٣٠٧ م تولى حكم البلاد ما لا يقل عن سبعة من الأباطرة ، نذكر منهم والى شقيق ولى ، ثم خليفة ،وكان يغلب عليه الحمق يرمى الناس بالسهام فيقتلهم ، فوثب عليه أهل مملكته وقتلوه وملك بعده سبط من أسباط « مارى جاطة » اسمه أبو بكر ، ثم تغلب على الملك مولى من مواليهم اسمه سا كبورة [١٢٨٥] ** فاغتصب العرش ونشط فى مد حدود دولته على حساب جيرانه ، فغزا تكرور فى الغرب ، وونقارة وجاو (٨) عاصمة سنغاى فى الشرق ، وكان نجمها بدأ يسطع بين الممالك

* تذكره المراجع العربية «منسا ولى » ومعنى منسا بلغة مالى : السلطان ومعنى ولى: على
** يذكر فى بعض المراجع العربية باسم سيكرة

الأفريقية، فقوى سلطانه وهابته شعوب السودان ورحل إليه التجار من بلاد المغرب .

وفى ظل هذا الحاكم انتشر الرخاء فى مالى وحافظت البلاد على رقعتها وعمها الهدوء وشملها الرق ، وفى عام ١٣٠٠ عزم ساكبورة على الحج إلى بيت الله ، وكان ذلك فى أيام السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون فى مصر، ولما أدى الفريضة قرر أن يتبع طريق أكسوم فى الحبشة والسودان الشرقى ولا ندرى سبب ذلك، وعلى أية حال فإنه لما ترك سفينته ووطأت قدماه البر الأفريقى هجم عليه بعض أهالى الدنا كل عند ساحل تاجورة فى الصومال وقتلوه وكانت مدة حكمه ١٥ سنة .

وتولى الحكم فى أعقابه ثلاثة ملوك خلال سبع سنوات ، كانوا ضعافا نذكر منهم «قو بن مارى جاظة» «ومحمد بن قو» ، ثم انتقل الملك من ولد مارى جاظة إلى ولد أخيه أبى بكر ولد منسا موسى العظيم.

منسا موسى *

١٣٠٧ — ١٣٣٢ م

تولى عرش مالى عام ١٣٠٧ م ودوى اسمه فى القارات الثلاث . ولم يتول حكم تلك الإمبراطورية من يدانيه فى القدر وعلو الهمة وقد جاهد لإعلاء شأن بلاده ، وكان مصلحاً بكل ما يشتمل عليه الإصلاح من معان .

سأله ابن أمير حاجب والى مصر فى أيام الناصر محمد بن قلاون فى أثناء مروره بالقاهرة للحج ، عن سبب انتقال الملك إليه ، فقال (٩) :

---

* يقول بعض المؤرخين ان أباه هو كنكاموسى أوجونجوموسى والحقيقة أنه ابن أبى بكر الثانى الذى كان ابنا لاحدى شقيقات سندياته ولذلك يمكن القول بان منسا موسى حفيد هذا العاهل العظيم وقد تحدثت عنه المراجع العربية بافاضة .

« إن الذى قبلى كان يظن أن البحر المحيط له غاية تدرك ، فجهز مئات السفن ، وشحنها بالرجال والأزواد التى تكفيهم سنين ، وأمر من فيها ألا يرجعوا حتى يبلغوا نهايته أو تنفد أزوادهم ، فغابوا مدة طويلة ، ثم عادت منهم سفينة واحدة وحضر مقدمها فسأله عن أمرهم فقال : سارت السفن زمانا طويلا حتى عرض لها فى البحر فى وسط اللجة واد له جرية عظيمة فابتلع تلك المراكب وكنت آخر القوم فرجعت بسفينتين . فلم يصدقه . فجهز ألفى سفينة ألفاً للرجال وألفاً للأزواد واستخلفنى ، وسافر بنفسه ليعلم حقيقة ذلك فكان آخر العهد به وبمن معه . . » ح . وهكذا آل الحكم إليه .

سياسة الفتح :

استولى جيشه فى مستهل أيام حكمه على ولته (ولاته) وتنبكتو ووصلت قواته إلى جاو فى منطقة النيجر الأوسط ، وامتدت دولته فى آخر حكمه إلى تكرور غربا وإلى دندى شرقا وبلغ نفوذه إلى قلب الصحراء حيث أروان وتادمكت (١٠) وأوغلت سيادته حتى فوتا جالون جنوبا .

ونلاحظ أن منسا موسى لم يعتد على استقلال ديارجنى المجاورة له وممالك موصى التى كانت تشغل حوض الفولتا فى جنوبى إمبراطورية مالى .

* * *

نبدأ الكلام على زيارته إلى مصر فى أثناء مروره بها فى رحلته الطويلة إلى بيت الله (١٣٢٤ م) لما تركته من الآثار الهامة فى أنحاء العالم الإسلامى بل وفى أوربا .

منسا موسى فى مصر :

تعتبر قافلة الحج التى أوفدت إلى مصر بصحبة السلطان منسا موسى من أروع مظاهر ثراء هذا العاهل الأفريقى . كان ذلك فى العام السابع عشر من حكمه (١٣٢٤ م) وقد رافق السلطان حشد كبير من الوزراء والعلماء والأتباع وقدر بعض المؤرخين عددهم حوالى ١٢٫٠٠٠ شخص .

مر بولته وتوات وربما ورجله فسرته على شاطىء البحر المتوسط فى برقة ، وانجه منها مساحلا إلى القاهرة ،وهى فى ذلك الحين مركز الحياة الإسلامية وكعبة العلماء ورجال الآداب . ولما وصل إليها استقبله الأمير أبو العباس أحمد بن الحاكى ، المهمندار الذى ندبه السلطان الناصر محمد للإشراف على ضيافة السلطان . ثم قدم للناصر محمد عدة هدايا منها حمل كبير من الذهب الخام ، ولم يدع أميراً أورب وظيفة إلا نفحه من هذا الذهب !

واستقبله الأهالى أينما سار بكل مظاهر الحفاوة التى تليق بمقام الضيف الجليل،وكان يرى ممتطياً ظهر جواد يسبقه خمسمائة من العبيد يحمل كل منهم قضيباً من الذهب ، زنة الواحد خمسمائة مثقال * وكان العاهل سخياً خيراً يتدفق المال من يديه ، ويهب المنح إلى كل من يتصل به ، وكأنه لم يسع من وراء ذلك إلا إلى الظهور بمظهر السلطان الكبير الذى يحكم دولة عظمى دون أن يكون له أى هدف سياسى .

ثم حدثت أزمة لكنها مرت بسلام ، فقـــد وجد رجاله صعوبة فى إقناعه بزيارة سلطان مصر ، وفازوا أخيراً بتنفيذ رغبتهم . وتقابل العاهلان وقد عمل الناصر محمد كل مافى وسعه لراحة ضيفه وحاشيته طوال مدة إقامتهم فى بلاده .

---

* المثقال ثمن أوقية من الذهب

ويمدنا القلقشندى (١١) بأخبار مفصلة لتلك الزيارة نقلها عن المهندار الذى كلف بمرافقة السلطان .

قال لى المهندار « خرجت لملتقاه من جهة السلطان فأكرمنى إكراما عظيما وعاملنى بأجمل الآداب ولكنه كان لا يحدثنى إلا بترجمان مع إجادته اللسان العربى قال . ولما جاء قدم للخزانة السلطانية حملا من التبر ، ولم يترك أميراً ولا رب وظيفة سلطانية إلا وبعث إليه بالذهب ، وكنت أحاوله فى طلوع القلعة للاجتماع بالسلطان حسب الأوامر السلطانية فيأبى خشية تقبيل الأرض للسلطان ويقول : جئت للحج لا لغيره ، ولم أزل به حتى وافق على ذلك .

فلما صار إلى الحضرة السلطانية قيل له : قبل الأرض . فتوقف وأبى إباء ظاهراً وقال كيف يجوز هذا ؟ فأسر إليه رجل كان إلى جانبه كلاما فقال أنا أسجد لله الذى خلقنى وفطرنى ، ثم سجد ، وتقدم إلى السلطان فقام له بعض القيام وأجلسه إلى جانبه وتحدثا طويلا ،ثم قام السلطان موسى ، فبعث إليه السلطان بالخلع الكاملة له ولأصحابه وخيلا مسرجة ملجمة وكانت خلعته طرد وحش بقصب كثير ، بسنجاب مقندس مطرز بزركش على مفرج إسكندرى ، وكلوته زركش وكلاليب ذهب ، وشاش بحرير ، ورقم خليفتى ومنطقة ذهب مرصعة وسيف محلى ، ومنديل مذهب خز ، وفرسين مسرجين ملجمين ، وأجرى عليه الإنزال والإقامات الوافرة مدة مقامه

ولما آن أوان الحج بعث إليه بمبلغ كبير من الدراهم وهجن جليلة كاملة العدة لمركبه وهجن لأصحابه وأزواد جمة ، وركن له العليق فى الطرق وأمر أمير الركب بإكرامه واحترامه .

ولما عاد ، بعث إلى السلطان من هدية الحجاز تبركا ، فبعث إليه بالخلع

الكاملة له ولأصحابه والتحف والألطاف من البز السكندرى والأمتعة الأخرى ، وعاد إلى بلاده .

وذكر ابن أمير حاجب والى مصر أنه كان معه مائة جمل ذهبا أنفقها فى سفرته تلك على من بطريقه إلى مصر من القبائل ثم بمصر ، ثم من مصر إلى الحجاز توجهاً وعوداً حتى احتاج إلى القرض ، فاستدان على ذمته من تجار مصر بما لهم عليه من المكاسب الكثيرة ، بحيث يحصل لأحدهم فى كل ثلثمائة دينار سبعمائة دينار ربحاً ، وبعث إليهم بذلك بعد توجهه إلى بلاده .

* * *

تألفت قافلة منسا موسى من مائة جمل ، على كل منها حوالى ثلثمائة من الأرطال التى اشتملت على الهدايا النفسية وكان يدفع لما يشتريه من العروض المصرية أضعاف أثمانها ، وأقبل على شراء الرقيق من النساء والأقمشة الحريرية . وفى أثناء إقامة منسا موسى فى مصر هبط سعر الذهب عن ثمنه العادى لوفرة ما وجد منه ، وظل منخفضـا مدة طويلة وقد انتهز السلطان الفرصة فابتاع جملة من الكتب الدينية ليوفر لأهل بلاده مناهل الثقافة الإسلامية ، وتبع ذلك تبادل العلماء بين القاهرة وتنبكتو .

وظل الناس فى مصر يذكرون ما أحاط تلك الزيارة كأنها من الأحداث العالمية النادرة ، ويتناقلون أخبارها سنين طويلة ، كما عنى المؤرخون بتدوينها .

ولم تكن مظاهر هذا الكرم مقصورة على القاهرة فقد أنفق المال بسعة فى كل مكان ذهب إليه ، حدث ذلك أيضاً فى أثناء زيارته المدينة المنورة ومكة المكرمة وغيرهما ، فلا غرو أن يذكر المؤرخون أن منسا موسى لما عاد ثانية إلى القاهرة كان قد أنفق كل ماله مما سبب له ارتباكا وحيرة

لم يخفيا على أحد ، ومع ذلك فقد ظل متمسكا بجميع مظاهر الأبهة بفضل العون الذى زوده به أحـــد تجار الإسكندرية * ثم صحبه إلى مالى ليسترد دينه وقد توفى هذا التاجر الثرى فى مسوفه ودفع منسا موسى ما كان عليه إلى ولده الذى انصرف عائداً إلى مصر (١٢) .

وفى أثناء إقامة منسا موسى فى مكة ، اتصل به الساحلى ، وهو شـاعر أندلسى (١٣) قبل أن يلحق بخدمة السلطان وقد عرف هـذا الأديب بكفاءته فى فن البناء ، ولا غرو أن يطلب إليه السلطان أن ينشىء مسجداً كبيراً فى مدينة جاو ، وقد بقى هذا المسجد نحو ثلاثمائة سنة وكان مشيداً بالآجر الذى لم يكن معروفا من قبل فى السودان حتى ذلك الحين .

وقبل أن يتم منسا موسى رحلة العودة إلى وطنه وصل إلى مسامعه نبأ استيلاء أحد قادة جيشه على جاو عاصمة سنغاى وكانت حينـذاك إحدى دول النيجر الأوسط،فقرر فى الحال أن يغير اتجاه عودته وعزم على زيارة جاو وفيها استقبل ملك سنغاى الذى قدم له فروض الولاء وأخذ معه اثنين من أبنائه إلى مالى على عادة الملوك الخاضعين وهما على كولن وسليمان نار . . . وسنقرأ عنهما بعد صفحات .

وكانت هناك مدينة كبرى أخرى فى سنغاى نافست جاو فى أهميتها كان على منسا موسى أن يمر بها فى طريق عودته شمالى النيجر تلك هى تنبكتو التى امتازت بموقع وسيط للمسافرين بطريق البر أو النهر ، واشتهرت فى ذلك الحين بتجارة التمر والملح وعروض المغرب والحنطة وجوز الكولة وتبر الذهب،وسرعان ما اقتفى العلماء أثر التجار فكانوا يشخصون إليها من مصر وغدامس وتوات وتافيلالت وفاس ، وقامت فى المدينة عمائر حسنة وحلت

---

* سراج الدين بن الـكويك وكان داره ببركة الحبش خارج مصر وبها نزل منسا موسى — رحلة ابن بطوطة ص ٣١٦ — ٣١٩

المساكن المبنية من اللبن محل الأكواخ المقامة من غصون الشجر والقش وبنى فيها مسجداً كبيراً وشيد مسجداً آخر شماليها فى سنكورة . وقد نافست تنبكتو ولاته فاجتذبت تجارتها وثقافتها وكانت من قبل فى جدالة ، بؤرة ثقافة الصحراء وفيها نشأ عالمها الكبير المؤرخ أحمد بابا (١٤) .

وفى أيام منسا موسى انتعشت التجارة والعلوم فى تنبكتو وقد شيد فيها الساحلى مسجداً وقصراً للملك وسرعان ما أصبحت أهم أسواق السودان الغربى ولا سيما بعد انتقال سوق الذهب إليها كما ،اجتذبت التجار من درعة وسوس وسجلماسة وفاس فى المغرب الأقصى ، ومن توات وغدامس وفزان وأوجلة فى الصحراء ومن مصر أيضاً .

وكان منسا موسى أول من عبر سلطانه من السودان مخترقا ستار الصحراء الحديدى ، وفتحه على مصراعيه لتبادل التجار والعلماء فصار الزنجى بعد ذلك طليقاً حراً يذهب إلى أين شاء .

وكانت أيام منسا موسى عصر ازدهار حقيقى وتوسع كبير لتجارة مالى فقد دعم علاقاته الخارجية مع بلدان كثيرة كما بعث بالسفراء إلى مدينة فاس وتوطدت على العموم العلاقات الثقافية مع المغرب ،واتصل بالسلطان أبى الحسن على المرينى وانتهز منسا فرصة استيلائه على تلمسان وبعث إليه بالتهنئة ثم امتدت صلاته بعد ذلك بالأندلس .

وكان رقعة مالى تضم تكرور فى الغرب جاو ،إلى فى الشرق ، وربما إلى اير (١٥) فى الصحراء وامتدت فى الجنوب إلى نطاق الغابات ، أما جنى (١٦) الصغيرة فقد احتفظت باستقلالها وكانت تقع على مسيرة عدة أيام من نيانى (مالى) وحافظت على مكانتها التجارية والثقافية،وربما يرجع ذلك

إلى ماكان يحيط بها من المستنقعات وما تخلل أرضها من الأنهار وجداول المياه .

* * *

ومات منسا موسى عام ١٣٣٢ م بعد حكم دام خمسا وعشرين سنة ، تاركا إمبراطورية مهيبة الجانب متقدمة على دول أفريقيا الزنجية ، فى اتساع رقعتها وفى منزلتها الاقتصادية والثقافية فضلا عن نظمها الاجتماعية .

ويمكن أن نقول بحق إن منسا موسى كان رائد فكرة إنشاء اتحاد أفريقية الغربية ، كان المالى فى أيامه لا يشعر بالغربة سواء أقام فيما يعرف اليوم بغامبيا أو سيراليون أو غانة أو ساحل العاج كان لا يشعر إلا أنه مواطن يعيش فى وطن مالى الكبير المتحد ، ولكن لم يكتب لهذا الاتحاد أن يبقى طويلا بعد وفاة منسا موسى ، فقد عادت القبائل تحن إلى نظمها وأساليب حياتها القبلية الأصيلة ، فنهض شعب موسى (Mossi) (١٧) فى ياتنجا فى إقليم فولتا العلوى يغير على مالى ، وكان على عرشها ابن منسا الصغير (مغا) * ثم تدفقت غاراته الوحشية إلى تنبكتو واصطدموا بحاميتها وحرقوا دورها . ومهد هذا الحاكم الضعيف للأحداث التالية .

ومما يثير الدهشة أن « مغا » كان قد منح للأميرين الشابين على كولن وسلمن نار حريتهما وأطلق سراحهما ، وكانا فى بلاط مالى على عادة أولاد الملوك الذين فى طاعتها للخدمة ، وكان على كولن لبيبا وفطنا فأضمر الهروب إلى جاو حيث أعلن على كولن نفسه ملكا على بلاده (١٣٣٥ م) واتخذ لقب « سنى » ومعناه « المحرر » .

وبدأت مالى تهوى تدريجـــاً ، إذ تولى شئونها خلفاء تعوزهم

---

* منسا مغا : معناها السلطان محمد

المقدرة وبعد النظر ،فقد آل العرش إلى « مغان »فأصيبت البلاد فى أثناء حكمه القصير (أربع سنوات) بالكارثتين السابقتين اللتين هزتا أركان مالى . . .

وخلف « مغا » عمه سليمان (١٣٣٧) شقيق منسا موسى ، فبدأ حكمه بالعمل على إصلاح ما فسد من شئون الدولة وإعادة الأحوال إلى ما كانت عليه قبل اعتلاء مغا العرش ، ومع أنه فشل فى استعادة جاو ، فقد استطاع أن يعيد سيادته إلى معظم البقاع التى خرجت عن طاعة مالى .

وفى عام ١٣٥١ سافر ليؤدى فريضة الحج ومر بعدة بلاد ،أكد فيها سيادته ومنها تكدا (١٨) إحدى مدن القوافل التابعة لسلطان الطوارق فى الصحراء ، وقيل إنه كان يمر بها كل سنة قوافل يقدر عددها باثنى عشر ألف جمل قادمة من نيانى (مالى) تقصد القاهرة،وكان بالقرب منها مناجم للنحاس تمد المغرب ومصر ومالى والهوسا وبرنو بحاجتها منه ، ويؤثر عن منسا موسى أنه قال عنها إنها تمده بمعظم مواردالمال التى تعود على بلاده بالخير والرخاء

منسا سليمان

١٣٥٢ — ١٣٥٩

تولى الحكم بعده منسا سليمان شقيق منسا موسى ، وقد اجتمع له مافتحه أخوه من بلاد السودان وأضافه إلى سلطان الإسلام ، وشيد المساجد والمدارس وجلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب الإمام مالك .

وفى أيام منسا سليمان زار الرحالة المغربى ابن بطوطة دولة مالى ،وتنقل بين مدنها الكبرى،وقابل السلطان والتقى بطائفة كبيرة من العلماء والتجار ويمدنا حديثه عن تلك البلاد بوصف أحوالها المختلفة التى لم يصفها مثله أحد من المؤرخين أو الجغرافيين العرب الذين عنوا بدول السودان الإسلامية .

بدأ ابن بطوطة رحلته من مسوفة (٧٥٣ هـ — ١٣٥٢م) بعدمغادرته ايوالاتن ومر بزاغواى ثم وصل إلى نهر النيجر وعليه بلده كارسخو حيث ينحدر منها النهر إلى كابرة وزاغة وكلها مدن إسلامية ، ولما وصل إلى نهر صنصرة وهو على نحو عشرة أميال من مالى ركب قارباً إلى مدينة مالى فنزل عند مقبرتها، ثم قصد إلى محلة السكان البيض حيث كان فى انتظاره السيد محمد بن الفقيه الجزولى وكان قد استأجر له داراً فتوجه إليها وجاءه صهر الفقيه بشمعة وطعام .

وسنترك الكلام بعد ذلك لابن بطوطة ، ليحدثنا حديث العالم والرحالة الملم باحوال مالى غاية الإلمام (١٩) ويبدأ حديثه بوصف مقابلته لمنسا سليمان :

« كان السلطان منسا سليمان (ومنسا معناه السلطان) هو الذى يحكم مالى فى ذلك الحين هو ملك بخيل لا يرجى منه كبير عطاء .

... تقدمت فسلمت على منسا سليمان ، وأعلمه القاضى والخطيب وابن الفقيه بحالى ، فأجابهم بلسانهم . فقالوا لى : يقول لك السلطان اشكر الله فقلت : الحمد لله والشكر على كل حال .

ولما انصرفت بعد ذلك إلى الضيافة توجهت إلى دار القاضى وبعث القاضى بها مع رجاله إلى دار ابن الفقيه ، فخرج ابن الفقيه من داره مسرعاً حافى القدمين ، فدخل على وقال : قم ، قد جاءك « قماش » السلطان وهديته فقمت وظننت أنها الخلع والأموال ، فإذا هى ثلاثة أقراص من الخبز وقطعة لحم بقرى مقلوة بالفرتى ، وقرعة فيها لبن رائب ، فعندما رأيتها ضحكت وطال تعجبى من ضعف عقولهم وتعظيمهم للشىء الحقير .

وأقمت بعد بعث هذه الضيافة شهرين لم يصل إلى فيهما شىء من قبل السلطان ودخل شهر رمضان وكنت فى خلال ذلك أتردد إلى « المشور » وأسلم عليه وأقعد مع القاضى والخطيب فتكلمت مع دوغا الترجمان فقال : تكلم عنده وأنا أعبر عنك بما يجب ، فلما جلس فى أوائل رمضان قمت بين يديه وقلت له :

إنى سافرت فى بلاد الدنيا ولقيت ملوكها ولى ببلادك أربعة أشهر ولم تضفنى ولا أعطيتنى شيئاً ، فماذا أقول عنك عند السلاطين فقال : إنى لم أرك ولا علمت بك فقام القاضى وابن الفقيه فردا عليه ، وقالا : إنه قد سلم عليك وبعثت إليه الطعام ، فأمر لى عند ذلك بدار أنزل بها ونفقة تجرى على ثم أعطى القاضى والخطيب والفقهاء مالا ليلة سبع وعشرين من رمضان يسمونه الزكاة وأعطانى معهم ثلاثة وثلاثين مثقالا وثلثاً ، وأحسن إلى عند سفرى بمائة مثقال ذهباً ».

وصف جلوس السلطان فى قبته :

قال ابن بطوطة : للسلطان قبة مرتفعة بابها بداخل داره يقعد فيها أكثر الأوقات ولها من جهة « المشور » طبقان ثلاثة من الخشب مغشاة بصفائح الفضة وتحتها ثلاثة مغشاة بصفائح الذهب ، أو هى فضة مذهبة ، وعليها ستور «ملف» فإذا كان يوم جلوسه بالقبة رفعت الستور ، فعلم أنه يجلس فإذا جلس أخرج من شباك أحد الطيقان (شرابه) حرير ، قد ربط فيها منديل مصرى مرقوم فإذا رأى الناس المنديل ضربت الأطبال والأبواق ثم يخرج من باب القصر نحو ثلاثمائة من العبيد ، فى أيدى بعضهم القسى ، وفى أيدى بعضهم الرماح الصغار والدرق ، فيقف أصحاب الرماح منهم ميمنة وميسرة ويجلس أصحاب القسى كذلك ثم يؤتى بفرسين مسرجين ملجمين ومعهما كبشان ، يذكرون أنهما ينفعان من العين ، وعند جلوسه يخرج ثلاثة من عبيده مسرعين فيدعون نائبه قنجاموسى ، وتأتى الفرارية وهم الأمراء ويأتى الخطيب والفقهاء فيقعدون أمام السلحدارية يمنة ويسرة فى المشور ، ويقف دوغا الترجمان على باب المشور وعليه الثياب الفاخرة ، وعلى رأسه عمامة ذات حواش ، لهم فى تعميمها صنعة بديعة وهو متقلد سيفاً غمده من الذهب ، وفى رجليه الخف والمهامز ،ولا يلبس أحد ذلك اليوم خفاً غيره ، ويكون فى يده رمحان صغيران ، أحدهما من ذهب والآخر من فضة وسناناه من الحديد.

ويجلس الأجناد والولاة والفتيان وغيرهم فى خارج « المشور » فى شارع هنالك متسع فيه أشجار ، وكل فرارى بين يديه أصحابه بالرماح والقسى والأطبال والأبواق ، وأبواقهم من أنياب الفيلة وآلات الطرب المصنوعة من القصب والقرع ولها صوت عجيب، وكل فرارى له كنانة قد علقها بين كتفيه ، وقوسه بيده ، وهو راكب فرسه ، وأصحابه بين مشاة

وركبان ،ويكون بداخل المشور تحت الطيقان رجل واقف ، فمن أراد أن يكلم السلطان كلم ،دوغا،ويكلم دوغا ذلك الواقف،ويكلم الواقف السلطان .

وينتقل ابن بطوطة بعد ذلك إلى الكلام عن علاقة أفراد الشعب بالسلطان فيقول :

« والسودان أعظم الناس تواضعاً لملكهم وأشدهم تذللا له ويحلفون باسمه ، فإذا دعا بأحدهم عند جلوسه بالقبة التي ذكرناها نزع المدعو ثيابه ولبس ثياباً أخلاقاً ، ونزع عمامته وجعل شاشية وسخة ودخل رافعاً ثيابه وسراويله إلى نصف ساقه وتقدم بذلة ومسكنة،وضرب الأرض بمرفقيه ضرباً شديداً، ووقف كالراكع يسمع كلامه.

« وإذا كلم أحدهم السلطان فرد عليه جوابه ، كشف ثيابه عن ظهره ورمى بالتراب على رأسه وظهره ، كما يفعل المغتسل بالماء .وكنت أعجب منهم كيف لا تعمى أعينهم ، وإذا تكلم السلطان فى مجلسه بكلام وضع الحاضرون عمائمهم عن رءوسهم وأنصتوا للكلام، وربما قام أحدهم بين يديه فيذكر أفعاله فى خدمته، ويقول : فعلت كذا يوم كذا وقتلت كذا يوم كذا ، فيصدقه من علم ذلك .وتصديقهم أن ينزع أحدهم فى قوسه ، ثم يرسلها كما يفعل إذا رمى ، فإذا قال له السلطان صدقت ، أو شكره ، نزع ثيابه وترب ، وذلك عندهم من الأدب ، قال ابن جزى .

وأخبرنى الصاحب العلامة الفقيه أبو القاسم بن رضوان ، أعزه الله ، أنه لما قدم الحاج موسى الونجراتى رسولا عن منسا سليمان إلى مولانا ابن الحسن رضى الله عنه كان إذا دخل المجلس الكريم ، حمل بعض ناسه معه قفة تراب ، فيترب إذا قال له مولانا كلاماً حسناً ، كما يفعل ببلاده .

الاحتفال بصلاة العيد وأيامه

ويصف ابن بطوطة الاحتفال بصلاة العيد بحضور السلطان فيقول :

« وحضرت بمالى عيدى الأضحى والفطر ، فخرج الناس إلى المصلى وهو قريب من قصر السلطان ، وعليهم الثياب البيض الحسان ، وركب السلطان وعلى رأسه الطيلسان ، والسودان لا يلبسون الطيلسان إلا فى العيد ، ما عدا القاضى والخطيب والفقهاء ، فإنهم يلبسونه فى سائر الأيام وكانوا يوم العيد بين يدى السلطان ، وهم يهللون ويكبرون ، وبين يديه العلامات الحمر من الحرير . ونصب عند المصلى خباء فدخله السلطان وأصلح من شأنه ، ثم خرج إلى المصلى، فقضيت الصلاة والخطبة ثم نزل الخطيب وقعد بين يدى السلطان وتكلم بكلام كثير ، وهنالك رجل بيده رمح ، يبين للناس بلسانهم كلام الخطيب ، وذلك وعظ وتذكير وثناء على السلطان ، وتحريض على لزوم طاعته وأداء حقه .

ويجلس السلطان فى أيام العيدين بعد العصر على (البنبى) وتأتى « السلحدارية » بالسلاح العجيب من تراكش الذهب والفضة والسيوف المحلاة بالذهب وأغمادها منه ورماح الذهب والفضة ، ودبابيس البلور ويقف على رأسه أربعة من الأمراء يشردون الذباب ، وفى أيديهم حلية من الفضة تشبه ركاب السرج ، ويجلس الفرارية والقاضى والخطيب على العادة ويأتى دوغا الترجمان بنسائه الأربع وجواريه ، وهن نحو مائة وعليهن الملابس الحسان ، وعلى رءوسهن عصائب الذهب والفضة ، وفيها تفافيح ذهب وفضة وينصب لدوغا كرسى يجلس عليه ، ويضرب آلة من قصب وتحتها قريعات ويغنى بشعر يمدح السلطان فيه ، ويذكر غزواته وأفعاله ؛ وتغنى النساء والجوارى معه ويلعبن بالقسى ويكون معهن نحو

ثلاثين من غلمانه عليهم جباب (الملف) الحمر وفى رءوسهم (الشواشى) البيض وكل واحد منهم متقلد طبله يضربه، ثم يأتى أصحابه من الصبيان فيلعبون ويتقلبون فى الهواء . ولهم فى ذلك رشاقة وخفة بديعة . ويلعبون بالسيوف أجمل لعب ، ويلعب دوغا بالسيف لعباً بديعاً ، وعند ذلك يأمر السلطان له بالإحسان ، فيؤتى بصرة فيها مائتا مثقال من التبر ، ويذكر له ما فيها على رءوس الناس ، ويقوم (الفرارية) فينزعون فى قسيهم شكراً للسلطان وبالغد يعطى كل واحد منهم دوغا عطاء على قدره ، وفى كل يوم جمعة بعد العصر يفعل دوغا مثل هذا الذى ذكرناه .

وإذا كان يوم العيد وقد أتم دوغا لعبه ، جاء الشعراء وقد دخل كل واحد منهم فى جوف صورة مصنوعة من الريش ، تشبه الشقشاق * وجعل لها رأسا من الخشب له منقار أحمر كأنه رأس الشقشاق ويقفون بين يدى السلطان بتلك الهيئة المضحكة فينشدون أشعارهم . وذكر لى أن شعرهم نوع من الوعظ يقولون فيه للسلطان : إن هذا «البنبى» الذى تجلس عليه جلس فوقه من الملوك فلان وكان من أحسن أفعاله كذا ، وفلان وكان من أفعاله كذا ، فافعل أنت من الخير ما يذكر بعدك . ثم يصعد كبير الشعراء على درج « البنبى » ويضع رأسه فى حجر السلطان ، ثم يصعد إلى أعلى « البنبى » فيضع رأسه على كتف السلطان الأيمن ، ثم على كتفه الأيسر وهو يتكلم بلسانهم ثم ينزل . وأخبرت أن هذا الفعل لم يزل قديماً عندهم قبل الإسلام فاستمروا عليه .

وقال ابن بطوطة إن أهل السودان كانوا يكرهون منسا سليمان لبخله وكان قبله منسا مغا وقبل منسا مغا منسا موسى وكان كريماً فاضلا يحب البيض ويحسن إليهم وهو الذى أعطى أبا اسحق الساحلى فى يوم واحد أربعة

---

* لعله طائر مرقط بحمرة وخضرة وبياض

آلاف مثقال وأخبرنى بعض الثقات أنه أعطى مدرك بن فقوص ثلاثة آلاف مثقال فى يوم واحد .

نظام مملكة مالى

ويزودنا القلقشندى بصورة جلية للتنظيم الإدارى فى هذا البلاد : فيقول :

وكان بهذه المملكة : الوزراء والقضاة والكتاب والدواوين، وإن السلطان لا يكتب شيئاً فى الغالب ، بل يكل كل أمر إلى صاحب وظيفته من هؤلاء فيفصله وكتابتهم بالخط العربى على طريقة المغاربة.

أما مقدار العساكر فقد ذكر الشيخ سعيد الدكالى :

أن مقدار عسكره مائة ألف نفر ، منهم خيالة نحو عشرة آلاف فارس وباقيهم رجالة لا خيل لهم .

أما الإقطاعات لأمراء هذا المكان وجنده والإنعامات عليهم فإن من أكابرهم من يبلغ جملة ماله على الملك فى كل سنة خمسين ألف مثقال من الذهب وأنه يتفقدهم مع ذلك بالخيل والقماش وأن همته كلها فى تجميل زيهم وتمصير مدنهم .

ترتيب مالى :

أما جلوس السلطان فى قصره ، فإنه يجلس على مصطبة كبيرة وعلى دكة كبيرة من أبنوس كالتخت على قدر المجلس العظيم المتسع عليها أنياب الفيلة فى جميع جوانبها الناب إلى الناب وعنده سلاح له من ذهب كله سيف ومزراق وقوس وتركاش ونشاب وعليه سراويل كبير مفصل من نحو

عشرين نصفية لا يلبس مثله أحد منهم بل هو من خصوصيته ويقف خلفه نحو ثلاثين مملوكاً من الترك وغيرهم ممن تبتاع له من مصر ؛ بيد واحد منهم جتر من حرير عليه قبة وطائر من ذهب صفة بازى يحمل على يساره وأمراؤه جلوس حوله يميناً وشمالا ، ثم دونهم أعيان من فرسان عسكره جلوس ، وبين يديه شخص يغنى له وهو سيافة ، وآخر سفير بينه وبين الناس يسمى الشاعر ؛ وتنتهى إليه الشكاوى والمظالم فيفصلها بنفسه ؛ ولا يكتب شيئاً فى الغالب ؛ بل يأمر بالقول بلسانه وحوله أناس بأيديهم طبول يدقون بها وأناس يرقصون وهو يضحك منهم ، وخلفه صنجقان منشوران ، وأمامه فرسان مشـــدودان محصلان لركوبه متى أحب ، ومن عطس فى مجلسه ضرب ضرباً مؤلماً ، لا يسامح أحد فى مثل ذلك ، فإن بغت أحداً منهم العطاس انبطح فى الأرض وعطس حتى لا يعلم به. أما الملك فإنه إذا عطس ضرب الحاضرون بأيديهم على صدورهم. ولا يدخل أحد دار السلطان متنعلا كائنا من كان ، ومن لم يخلع نعليه قتل بلا عفو ، عامداً كان أو ساهياً. وإذا قدم عليه أحد من أمرائه أو غيرهم وقف أمامه زماناً ثم يومى القادم بيده اليمنى مثل من يضرب الجوك ببلاد توران وإيران من بلاد المشرق ؛ وصنعة ذلك أن يكشف مقدم رأسه ويرفع الذى يضرب الجوكى يده اليمنى إلى قريب أذنه ثم يضعها وهى قائمة منتصبة ويلقها بيده اليسرى فوق فخذه واليد اليسرى مبسوطة الكف لتلقى مرفق اليمنى مبسوطة الكف مضمومة الأصابع بعضها إلى جانب بعض كالمشط تماس شحمة الأذن.

وإذا أنعم السلطان على أحد بإنعام أو وعده وعداً جميلا أو شكره على فعل تمرغ المنعم عليه بين يديه من أول المكان إلى آخره ، فإذا وصل إلى آخر المكان أخذ غلمان المنعم عليه أو من هو من أصحابه من رماد يكون موضوعاً فى آخر مجلس الملك معداً لهذا الشأن فيذر فى رأس المنعم

عليه ثم يعود ويتمرغ إلى أن يصل بين يدى الملك ويضرب جوكا آخر بيده ثم يقوم .

وأما فى الركوب فقد جرت عادة السلطان أنه إذا قدم من سفر أن يحمل على رأسه الجتر راكب وينشر على رأسه علم ، وتضرب أمامه الطبول والطنابير والبوقات بقرون لهم فيها صناعة محكمة . وشعار هذا السلطان أعلام وألوية كبار جداً ورنكه أصفر فى أرض حمراء .

ومن عادة السلطان أنه إذا عاد إليه أحد ممن بعثه فى شغل له أو أمر مهم أن يسأله عن كل ما حدث له من حين مفارقته له وإلى حين عوده مفصلا .

وكان السلطان لا يأكل إلا منفرداً وحده لا يحضره عند الأكل أحد ألبتة .

مجتمع مالى

وأمدنا ابن بطوطة بمعلومات طيبة عن مجتمع مالى فقال إن من أفعالهم الحسنة قلة الظلم ؛ فهم أبعد الناس عنه وسلطانهم لا يسامح أحداً فى شىء منه ، ومنها شمول الأمن فى بلادهم فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم سارقاً ولا غاضباً . ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيض ولو كان القناطير المقنطرة وإنما يتركونه بيد ثقة من البيض حتى يأخذ مستحقه ومنها مواظبتهم على الصلوات وملازمتهم لها فى الجماعات وضربهم أولادهم عليها . وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلى لكثرة الزحام . ومن عادتهم أن يبعث كل إنسان غلامه بسجادته فيبسطها له بموقع يستحق به . حتى يذهب إلى المسجد ،وسجاداتهم من سعف شجر

يشبه النخل ولا ثمر له، ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان ليوم الجمعة ولولم يكن لأحدهم إلا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة .

ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا أظهر فى حقهم التقصير فى حفظه فلا تفك عنهم حتى يحفظوه. ولقد دخلت على القاضى يوم العيد وأولاده مقيدون فقلت له ألا تسرحهم ؟ فقال لا أفعل حتى يحفظوا القرآن.ومررت يوماً بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة وفى رجله قيد ثقيل فقلت لمن كان معى ما فعل هذا : أقتل ؟ ففهم عنى الشاب وضحك وقيل لى : إنما قيد حتى يحفظ القرآن .

وذكر ابن بطوطة إن من مساوئ أفعالهم أن الخدم والجوارى والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا، ولقد رأى فى رمضان كثيراً منهن على تلك الصورة فإن عادة الفرارية « أن يفطروا بدار السلطان ويأتى كل واحد منهم بطعامه تحمله العشرون فمن فوقهن من جواريه وهن عرايا ، ومنهم جعلهم التراب والرماد على رءوسهم تأدباً ، ومنهم من يأكلون الجيف والكلاب والحمير .

ويظهر أن ابن بطوطة قد طابت له الأحوال فى مالى (نيانى) بدليل أنه مكث فيها ثمانية أشهر ، ثم عقد النية على مغادرتها إلى تنبكتو فى نهاية فبراير عام ١٣٥٣ فامتطى جملا لأنه لم يكن لديه مائة مثقال من الذهب يشترى بها جواداً ، ولم يذكر لنا الرحالة شيئاً كثيراً عن تنبكتو سوى أنه شاهد مقبرة الساحلى الشاعر والمهندس الأندلسى ، ثم ركب قارباً صغيراً انحدر به فى النيجر ومر بعدة قرى صغيرة لأهل سنغاى ومر بمدينة جاو التى قال عنها إنها مدينة حسنة المنظر ، ولم يذكر شيئاً أكثر من ذلك وبعد ما أقام مدة شهر حول جاو تركها بصحبة قافلة من تجار غدامس فى طريقها إلى تكدا (١٨) وهى مشهورة بمناجم النحاس .

الزى فى مالى

يقول الدكالى إن لباسهم عمائم بحنك مثل المغرب ،وقماشهم بياضى من ثياب قطن تنسج عندهم فى نهاية الرقة واللطف تسمى الكمصيا ،ولبسهم شبيه بلبس المغاربة جباب ودراريع بلا تفريج ، والأبطال من فرسانهم تلبس أساور من ذهب .فمن زادت فروسيته لبس معها أطواقاً من ذهب فإن زادت لبس مع ذلك خلاخل من ذهب وكلما زادت فروسية البطل ألبسه الملك سراويل متسعة ، وسراويلهم ضيقة وأكمام الساقين متسعة . وأهـــل هذه المملكة يركبون بالسروج وهم فى غالب أحوالهم فى الركوب كأنهم من العرب ،إلا أن هؤلاء يبدءون فى الركوب بأرجلهم اليمنى بخلاف غيرهم من سائر الناس جميعاً ، ولا يعرف عندهم ركوب جمل بكور .

علاقة مصر بمـالى

كان لمـالى صلة قوية بمصر فى أيام المماليك الشراكسة وكان للتكاررة (نسبة إلى تـكروراى مالى) جالية كبيرة فى مصر منذ العهد الفاطمى وعرفت منية بولاق « بولاق التـكرور » نسبة إلى أحد الصلحاء التكاررة هو الشيخ أبو محمد يوسف بن عبد الله التـكرورى وكان يعاصر الخليفة العزيز الفاطمى ، فلمـا توفى بنى له قبة ومسجداً عرف باسم جامع التـكرورى ،وقد جدد هذا المسجد ووسع على عهد المماليك البحرية عام ٧٤٣ هـ/ ١٣٤٢م * وخصص فى الأزهر رواق من أروقته للتـكاررة عرف باسمهم .

وهناك صيغ خاصة وألقاب معينة فى الدواوين المملوكية لمخاطبة ملوك

---

* جدده ووسعه الأمير محسن الشهابى مقدم المماليك

التكاررة ورغم قوة ملك التكاررة ورغم أن مملكته كما ينعتها المعاصرون أعظم ممالك السودان . ورغم اعتداده بنفسه وإسلامه، فإنه لم يستطع إلا أن يقبل الأرض لسلطان المماليك نزولا عن العرف السائد . ومن التكاررة من خدم فى الجيش المملوكى وترقى حتى وصل إلى الرتب العالية ، مثل عنبر التكرورى الذى رقاه قايتباى فى عام ٩٠١ ﻫ / ١٤٩٥ م إلى نائب مقدم المماليك ثم صار مقدماً فى عام ٩٠٥ﻫ / ١٤٩٩ (٢٠)

نهاية مالى

ولى الحكم بعد وفاة منسا سليمان ابنه قنبتا، ومات لتسعة أشهر من ملكه ربما قتله منافسه ابن مغا وجاء بعده مارى جاطة الثانى بن منسا مغا بن منسا موسى فأقام أربع عشرة سنة (١٣٥٩ — ١٣٧٣) أساء فيها السيرة وأتلف ما أقامه أسلافه بسرفه وتبذيره حتى انتهى به الحال فى الإسراف إلى أنه كان بخزائنه حجر ذهب زنته عشرون قنطاراً من غير سبك ولا علاج بالنار فباعه إلى تجار مصر المترددين عليه بأبخس ثمن وأنفق ذلك كله فى الفساد ومع ذلك فإن عهده يتسم بإحياء الصداقة بين بلاده وسلطان المغرب الأقصى من ناحية وتعزيزه المودة بسلطان مصر من ناحية أخرى ، وكان آخر أمره أن أصابته علة النوم حتى لا يكاد يفيق، فمرض به عامين حتى مات عام ٧٧٥ ﻫ — ١٣٧٣ / ٧٤ م)

وملك بعده ابنه موسى فخالف طريق والده وأقبل على العدل وحسن السيرة وتغلب عليه وزيره الذى قام بتدبير الدولة وكان له فيها أحسن تدبير .

وحاول خلفاء مارى جاطة أن يحكموا دولتهم ويعيدوا إليها سطوتها

ولكن كان ذلك عبثاً ، فقد استقلت جاو وسقطت أروان وولاته وتنبكتو ومعظم الأقاليم الشمالية فى قبضة الطوارق . أما التوكولور والولوف فهاجموا مالى بوحشية لا توصف من الجنوب الغربى ، وانتهزت الفرصة قبائل موسى من الجنوب فالتهمت قطعة كبيرة ضمتها إلى بلادها .

ونتريث قليلا لنتكلم عن المراحل التى مرت بتنبكتو فقد ظلت تحت حكم مالى المباشر إلى ١٤٣٣ ، وفى ذلك الحين تركها سكانها من الطوارق بزعامة « عقيل أجملوال » ميممين شطر الصحراء الطلقة وخلفوها تحت رعاية حاكمها الصنهاجى محمد نادى الذى كان يشرف على إدارتها منذ أيام مالى ، وكان هذا الحاكم يجمع الضرائب ويحتفظ بثلثها ، أما ثلثاها فكان يبعثه إلى عقيل أجملوال.

ومات محمد نادى وخلفه ابنه عمر فاستمر على عادة أبيه فى علاقته بالطوارق حتى فاجأه عقيل الذى صمم على جمع الضرائب بنفسه وبدأ رجاله يعيشون فى دور الأهالى ويعتدون على النساء ، الأمر الذى من أجله حقد عمر عليهم ومن أجله أرسل رسالة سرية إلى « سنى على » ملك سنغاى فى جاو فحشد جيشاً كبيراً وقاده إلى تنبكتو فلما اقترب منها وضح حقيقة الموقف أمام عقيل وعمر وقد حنق الثانى لما سببه بنفسه ورأى أنه كان داعياً لسنى على غزو البلاد فانضم إلى قوات عقيل الفارة ولاذ الاثنان بالهرب متجهين إلى ولاته وأخذا معهما حشداً من العلماء ورجال الدين الذين كانوا يعملون فى معهد سنكورة .

وفى يناير ١٤٦٨ دخل سنى على تنبكتو وذبح جنوده آلاف الأهالى الذين اتهموا بصداقتهم للطوارق أعداء سنغاى وكانوا ينتهزون الفرص دواما للاعتداء عليهم .

٭٭٭

وخيم ضباب كثف على الأعوام الأخيرة فى تاريخ مالى. ففى نهاية القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر كان حكام مالى قد وصلوا إلى موقف يرثى له من الخيبة والفشل .. أعداؤهم يحيطون بهم من كل جانب مما جعلهم يلجئون إلى الحاميات البرتغالية التى نزلت إلى الشاطىء الغربى من أفريقيا، ولكن ذهبت صيحتهم فى الهواء فقد كانت قبضة سنغاى على بلادهم قوية ولم يستطع البرتغاليون التوغل فى قلب السودان لأنهم كانوا يدعمون مراكزهم الجديدة على السواحل الغربية .

وفى القرن السابع عشر كان حكام مالى قد عادوا ثانيـــة إلى نفس المكان الذى نشئوا فيه منذ قرون .. إلى دولتهم القديمة فى كنجابة .

... ودارت عجلة الزمن فنهضت مالى مرة أخرى عام ١٩٦٠ ووقفت على قدميها بين أسرة الدول الحديثة !

تعليقات

(١) نيانى هى مالى المدينة حاضرة إمبراطورية مالى ، وكانت تقع على بعد مسيرة عدة أيام من مدينة جنى التى زارها ابن بطوطة فى رحلته ومكث فيها حوالى ثمانية أشهر وغادرها إلى تنبكتو فى أواخر شهر فبراير ١٣٥٣ م .

(٢) كوكوو قدم بها ابن بطوطة فى رحلته وهى تقع على النيجر من أحسن مدن السودان وأكبرها وأخصبها ، فيها الأرز واللبن والدجاج والسمك وبها الفقوس الجيد وتعامل أهلها فى البيع والشراء بالودع .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٨٢ — ٢٨٦

(٤) أوليل جزيرة عند مصب نهر سنغال كان بها معدن الملح وتبعد عن أودغشت ٢٥ مرحلة . (نزهة المشتاق للإدريسى . هنرى بريس ص ١٩)

(٥) E. W. Bovill The Golden Trade of the Moors p. 84

(٦) C.P. Croves: The Planting of Christianity in Africa P 95-96

(٧) بامبوك أحد الأقاليم التى اشتهرت بمعدن الذهب وهى ونقارة التى ذكرها العرب فى مؤلفاتهم .

(٨) جاو — جاغ (Gaó-Gawo) عاصمة سنغاى (سنغى) وكانت فى أثناء ازدهارها مدينة هامة جداً . ولد فيها مخلد بن خالد المعروف بأبى يزيد المشهور فى ثورات شمال أفريقية وفى أيام البكرى احتوت جاو

على مدينتين إحداهما لسكن الملك والمسلمين ، وثانيتهما لسكن الوثنيين . وكانت من أشهر أسواق تجارة الملح ، وذكر الإدريسى أن جاو (جوجو) سيطرت على جميع الجهات المجاورة التى اشتهرت بالخيول والجمال استولى عليها الطوارق عام ١٧٧٠ وكان يعيش فيها حينذاك سلالة الحامية العسكرية التى أرسلها مولاى أحمد أبو العباس المنصور (١٥٩٠) وقد وصل إلى جاو الرحالة ليو الأفريقى (أبو الحسن الوزان) بالسفينة قادما إليها من كاباره

(٩) القلقشندى . صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٨٩ — ٢٩١

(١٠) تادمكت (تادمكة) مدينة بصحراء المغرب على مسيرة خمسين يوماً من غانة إلى الشرق . (البكرى ص ١٨١)

(١١) القلقشندى ج ٥ ص ٢٧٩ — ٣٠٠

(١٢) مهذب رحلة ابن بطوطة ص ٣١٦

(١٣) الساحلى أديب وشاعر ومعمار من الأندلس التقى بمنسى موسى فى مكة فى أثناء الحج وعرض عليه أن يرافقه فى العودة إلى مالى وقد شيد فى جاو وتنبكتو مسجدين وبنى قصراً للسلطان ومات فى تنبكتو عام ١٣٤٦ .

(١٤) أحمد بابا التنبكتى هو أبو العباس الصنهاجى ينتسب إلى أسرة جلها من العلماء ومعظم أفرادها ولوا القضاء ولد فى قرية أروان (١٥٥٣) ودرس العلوم الإسلامية ولما رفض الاعتراف باحتلال المغاربة لمدينة تنبكتو قبض عليه وعلى أفراد أسرته القائد محمود بن زرقون واقتيد إلى مراكش (١٥٩٤) ولما ولى السلطان زيدان (١٦٠٦) أذن له بالعودة وتوفى عام ١٦٢٧ وترك عدة مؤلفات نشر بعضها .

(١٥) أير — أهر — أهير وتعرف باسين إقليم جبلى فى الصحراء

الكبرى وتقدر مساحته بحوالى ٥٨٠٠ ميل مربع اكتشفه الرحالة بارث عام ١٨٥٠ وتكثر المياه فى هذا الإقليم، وينقسم سكانه إلى عنصرين أساسيين هما السود والطوارق ومعظم بلدانه عبارة عن قرى تتكون من أكواخ ومخيمات ومنها أجاديس وقد بلغ الإقليم أوجه حوالى عام ١٥١٩ عندما استولى عليه الحاج محمد اسكيا سلطان سنغاى وقد احتفظت أجاديس بجزء من أهميتها إلى نهاية القرن ١٨، وفيها مسجد ذو منارة هرمية الشكل تكسب مظهر المبانى الأثرية. ومع أن الإسلام غزا أير إلا أن اللغة العربية قليلة الانتشار فيها وهى تعلم فى مكاتب تحفيظ القرآن.

(دائرة المعارف الإسلامية)

(١٦) جنى ، كان رينه كاييه الرحالة الفرنسى أول أوربى وصل إليها فى ١١ مارس ١٨٢٨ . وقال بارث إنها أنشئت عام ١٠٣٣ / ٣٤ م وهى تقع على مرحلة من الضفة اليسرى لنهر بنى أحد روافد النيجر وتقوم على هضبة صخرية وسط سهل فسيح يغطيه الماء فى فصل الأمطار وصفها السعدى فى تاريخ السودان وقال عنها إنها سوق عظيم فى السودان يجتمع فيها تجار الملح من مناجم تغازا وتجار الذهب وقد اعتنق معظم أهلها الإسلام (١٢٠٣ - ١٢٠٤ م)

(١٧) تؤلف قبائل موسى (Mossi) شطراً كبيراً من سكان افريقيا الفرنسية حيث يتمركز توزيعهم حول واجد وجو ويصل إلى الأطراف الشمالية القريبة من ساحل غانة. وقبائل موسى زراعيون محصولهم الأول الذرة الرفيعة.

ولا يملكون من الماشية إلا قطعاناً قليلة بيد أن خيولهم جيدة وحميرهم كثيرة وهم وثنيون .
(سلجمان : السلالات البشرية فى أفريقية — الترجمة العربية ص ٥٧)

(١٨) تكدا مدينة مر بها ابن بطوطة وكانت إذذاك من أكبر مدن الطوارق وكان سلطانها يخضع اسمياً لمالى وربما كانت تقع جنوبى أجاديس جاء ذكرها كثيراً فيما كتبه الرحالة رود Rodd عن الطوارق .

(١٩) مهذب رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأبصار وعجائب الأسفار (القاهرة عام ١٩٣٤ ص ٣٠٢—٣٠٨)

(٢٠) ابن خلدون : العبر ج ٥ ص٤٣٣ — ٤٣٤ وصبح الأعشى ج ٥ ص ٢٨٦ والخطط المقريزية ج ٢ ص ٣٢٦ ، ابراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ص ١٤٩—١٥٠



جمهورية مالى فى العصر الحديث

الفصل الخامس

إمبراطورية سنغاى

[١٤٦٤ — ١٥٩١ م]

إمبراطورية سنغاى

١٤٦٤ — ١٥٩١

قيام سنغاى :

بين كيني وبوسه فى وسط مجرى نهر نيجر ، يجرى هذا النهر هادئا آلاف الأميال لا يعترضه عائق ، وتحتوى تلك البقعة على ذلك المنحنى الكبير للنيجر، وتحف بها سهول خضراء تنمو فيها حشائش مائية، تتغذى بها الماشية التى يجلبها رعاة قادمون من مسافات بعيدة ، ويعترض النهر بعض الجزر الصغيرة ، وتمتد الصحراء الفسيحة شمالى المنحنى وجنوبه ، ويقصدها قبائل الطوارق. وقد كانت تلك البقاع خلال التاريخ ملجأ المضطهدين الذين يفرون من الأذى ، وقد ساعدتهم طبيعتها على العيش فيها ولو إلى حين .

لم تكن تلك البقعة « النيجر الأوسط » مأوى المضطهدين فحسب بل كانت أيضاً موطن السنغاى ، وهو شعب زنجى لعب دوراً هاما فى تاريخ القارة الأفريقية . تكون من قبيلتين : السوركو وجبيى ، عملت الأولى فى صيد الأسماك واشتغل الآخرون فى الزراعة ، كان موطنهم الأصلى فى دندى أسفل نيجر وشمالى بوســه قليلا ، غزت هذا الوطن فى منتصف القرن السابع قبيلة لمته من البربر الوثنيين وتولوا الإشراف السياسى على مزارعى سنغاى على شاطىء النيجر الأوسط فى دندى ، وهناك قامت أسرة بربرية بزعامة زا تولت إدارة المنطقة التى اتسعت تدريجاً عبر وادى النيجر حتى عام ١٣٢٥ . وكانت كوكيا حاضرة بلادهم ، تقع فى جزيرة بنتيا فى النيجر وعلى بعد ستين ميلا جنوبى جاو (جاغ) ثم نمت دولتهم بإطراد فى ظل تلك الأسرة البربرية التى اختلطت دماؤهم بدماء أهل البلاد الأصليين.

ثم أفادت فى الوقت نفسه من علاقاتها التجـارية مع غانة وتونس وبرقة ومصر ، ومن تجارة القوافل المارة بتاد مكت .

وكان الإسلام قد دخل إلى تلك البقاع فى القرن الحادى عشر حينما اعتنقه ملوك سنغاى، وتسرب هذا الدين إلى الأهالى فى أثناء الحركة الإسلامية الضخمة التى نهض بها المرابطون ، ثم انتقلت حكومة سنغاى إلى جاو لتكون على مقربة من طرق القوافل ، ومع ذلك فقد ظل غالبية الأهالى على وثنيتهم .

وكانت جاو تقع على الضفة اليسرى للنيجر حيث تلتقى بوادى تلمسى الذى يبدأ من قلب الصحراء وكانت مثل كومبى عاصمة غانة تنقسم إلى قسمين قسم يعيش فيه المسلمون وآخر يسكنه الوثنيون ، وكان فيها سوق هام ، عاش بالقرب منه جالية من تجار البربر .

وعلى مسيرة عدة أيام فوق وادى تلمسى فى الإقليم الجبلى من أورار قامت تاد مكت التى عرفت عند العرب بالسوق . وقد تحولت منذ قرون إلى أطلال . وكانت لها علاقات تجارية بالقيروان وغدامس فى الشمال وبالسودان فى الجنوب ، وكان الذهب الخام عملة التداول . وإلى شرقى جاو وفى الصحراء كانت تكدا (١) بلدة النحاس ، وهكذا برزت جاو أصلح بلدة تجارية فى السودان الغربى .

ولا يعرف سوى القليل عن تاريخ سنغاى فيما بين القرنين الحادى عشر والرابع عشر ، باستثناء أسماء ملوكها القدامى . ومع ذلك فقد اجتذبت اهتمام منسا موسى إمبراطور مالى ، فنرى جاو وتوابعها فيما بين ١٣٢٥ ، ١٣٣٥ تؤلف قسما من تلك الإمبراطورية . ولكن فى عام ١٣٣٥ استعادت أسرة ديا استقلالها ثم انتقل الحكم إلى أسرة « سن » وكانت رقعة بلادهم فى ذلك الحين لا تزال محدودة بوادى النيجر أسفل جاو .

ملوك سنغاى الأوائل

أول من تملك فيها من الملوك زا الأيمن ثم زازكى وخلفه زاتكى ثم زا أكى ثم زاكو ثم زاعلى ثم زابى كمى ثم زابى ثم زاكرى .. الخ هؤلاء أربعة عشر ملكا ماتوا جميعاً فى جاهلية، والذى أسلم منهم زاكسى وذلك فى سنة أربعمائة من هجرة النبى صلى الله عليه وسلم،ثم زاكسى داربى ثم زاهن كزونك دم ، وتولى من بعده آخرون . ثم سن الأول على كلن وهو الذى قطع حبل الملك على رقاب أهل سنغاى من أهل ملى، ثم أخوه سلمن نار ثم سن إبراهيم كبى ثم سن عثمان كنف ثم سن باركين أنكبى ،وسن موسى ،وسن بكر زنك ، وسن بكر د ل بينب ، وسن ماركرى ، وسن محمد داغ ، وسن محمد كوكيا ، وسن محمد نار ،وسن كربيف ، وسن مار ، وسن ماراركن، ثم سن مارارندن ، وسن سليمان دام ومن بعده وسن على (توفى عام ٨٩٨ هـ — ٤٩٢) (٢)

* * *

وينبغى أن نشير هنا ثانية إلى أن تحرير سنغاى من سيادة مالى يعود إلى الشقيقين « على كلن» و « سلمن (سليمان) نار » ابنى زايا سبى وهما أخوان حملا فى ليلة واحدة وكانت أماهما شقيقتين أيضاً ، وولدتا كذلك فى ليلة واحدة (٣) غسل على كولن أولا ولذلك جعل كبيراً، ثم غسل سلمن نار فكان الأصغر فلما بلغا عمر الاستخدام أخذهما سلطان مالى فى طاعته للخدمة على عادة أولاد الملوك ، واعتاد على كلن أن يغيب فى بعض الأحيان لطلب المنفعة ثم يرجع ،وكان لبيباً كيساً ، ثم بقى يزيد فى الغيبة حتى قارب سنغاى وعرف طرقاتها فأضمر الهروب إلى بلده ،فاحتال واستعد لذلك بالأسلحة والأزودة وكنهم فى مواضع معروفة فى طريقه ، ثم فطن أخاه وأطلعه على سره ، فعلفا

جواديهما علفاً صحيحاً جيداً حتى لا يخشيا عليهما عجزاً وخرجا وتوجها إلى سنغاى ، فلما فطن لهما سلطان مالى قام فى إثرهما بعض رجاله ليقتلوهما وكلما دنوا منهما تقاتلوا فيكسرانهم ، وتكرر القتال بينهم ، فما نالوا منهما نيلا حتى وصلا بلدهما . فكان على كان سلطانا على أهل سنغاى وتسمى بسن أى المحرر وقطع صلتهم بسلطان مالى ،وبعدمامات تولى أخوه سلمن نار ولم يجاوز ملكهم سنغاى وأحوازها ، أما « سن على » فقد زاد على جميع من مضى قبله فى القوة وكثرة الجند .

سن على *

١٤٦٤ — ١٤٩٢

وصفه المؤرخ عبد الرحمن السعدى بقوله :

« كان ذا قوة عظيمة وبنية جسيمة ، ظالماً فاسقاً متعديا ، متسلطاً سفاكاً للدماء ، قتل من الخلق ما لا يحصيه إلا الله وتسلط على العلماء والصالحين بالقتل والإذلال »

دخل فى السلطنة سنة ٨٦٩ هـ — ١٤٦٤ وتوفى فى ١٥ المحرم عام ٨٩٨ هـ — ١٤٩٢ ورغم إسلام سن على فقد أبقى على كثير من العادات والتقاليد الوثنية ، وقد اشتغل منذ بداية حكمه بتنظيم جيش كبير لينفذ به خطته السياسية. بادئا بفتح جنى تلك الديار التى حاول ملوك مالى أن يستولوا عليها بدون طائلة ، ويرجع ذلك إلى مناعة موقعها ، شيدها السونكة فى القرن الثالث عشر فى موقع محلة قديمة على مجرى صغير لنهر بنى ، وكانت

* بضم السين المهملة وكسر النون المشددة كما جاء فى ذيل الديباج للعلامة الفقيه احمد بابا .

سوقا عظيما يلتقى فيها أرباب الملح من مدن تغازا وأرباب الذهب وقد نافست جنى مدينة تنبكتو قرونا طويلة ، وحافظت على استقلالها لمناعة موقعها الذى يتوسط شبكة من الجداول المائية .

لم يكن استيلاء « سن على » على جنى أمراً سهلا ، فقد حاصرها جنوده وكاد يصيبهم السأم ثم أوشكوا على العودة ، لولا أن المحاصرين استسلموا فاستولوا عليها (١٤٧٣) بعد فتحهم تنبكتو . وكان سن رحيما فى معاملته الأهالى رغم ما عرف عنه من القسوة ، ذلك لأنهم كانوا أعداء الطوارق وليس كأهالى تنبكتو الذين انتقم منهم بفظاعة .

وفى أثناء حملة جنى ،دخل سن فى تمبكتو (٨٧٣ هـ — ١٤٦٨) فعمل فيها فساداً عظيما وحرقها وقتل فيها خلقاً كثيراً، ولما سمع عقيل من زعماء البربر بمجيئه أحضر ألف جمل ، ورحل فقهاء سنكرى قائلا إن شأنهم هو الأهم عنده ثم ضم ولاته إلى إمبراطوريته .

وفى أيامه التحمت جيوشه بقوات موسى (موشى) فى «جنكى تعى» بالقرب من كب فاقتتلوا هنالك، وهزمه سن على وهرب ملك موسى وتبعه حتى دخل فى حدود أرضه ، وكان ذلك فى عام ٨٨٨ هـ — ١٤٧٣، ثم رجع ونزل فى «دير» ثم نهض منه ، وغزا كرم فغلبهم وخربهم ، وكانت آخر غزوته .

استمر حكم سن على حوالى ٢٨ سنة ، تمكن خلالها أن يحول دولته الصغيرة إلى إمبراطورية منيعة تسود منطقة واسعة فى غربى أفريقية ، ولولا ما اتصف به من الأخلاق الحازمة والشدة والحق لما استطاع أن يحقق آماله العريضة ،ومهما كانت أخطاؤه فمما لا شك فيه أنه كان حاكما عظيما ، وفى ١٥ المحرم عام ٨٩٨ هـ — ١٤٩٢ توفى سن على فى أثناء عودته من غزوة كرم بعد ما حارب الزغرانيين والفلانيين؛ ولما وصل بلاد كرم انطلق عليه سيل جارف فى الطريق ، فأهلكه .

ويذكر السعدى أن أولاده شقوا بطنه وأخرجوا أحشاءه وملئوها عسلا لئلا تنتن .

وخلفه ابنه أبو بكر داعو على السلطنة فى دنغ وكان محمد بن أبى بكر الطورى (وقيل السلنكى) من كبار قادة سن على ، فلما بلغه ذلك الخبر أضمر فى نفسه الخلافة ، وتحيل فى ذلك بأمور كثيرة ، فلما انتهى من حبك مؤامرته ، توجه إليه فيمن كان معه من خواصه ، فغار عليه فى دنغ ،فانهزم جيشه وولى هارباً حتى وصل قرية أنكع وهى بقرب جاغ (جاو)فوقف هنالك حتى جمع جيشه ثم التقى معه فجرى بينهما حرب شديدة حتى كادوا يتفانون ثم انتصر محمد بن أبى بكر وهرب سن أبو بكر إلى أين ، فبقى فيها إلى أن توفى (١٤٩٣) وبموته انتهت أسرة زا بعد أن حكمت سنغاى حوالى ١٨ قرناً .

وتقول الرواية إنه لما بلغ خبر انتصار محمد الطورى وتوليه العرش بنات سن على قالت « إسى كيا » ومعناها فى كلامهم « لا يكون إياه » فلما سمع الطورى ذلك أمر ألا يلقب إلا به ، فقالوا إسكيا محمد .

إسكيا محمد الكبير

١٤٩٣ — ١٥٢٨

منشىء أسرة إسكيا الجليلة ، التى بلغت سنغاى فى أيامها أوج السيادة والازدهار ، تحلى بصفات جليلة جعلته يستحق بجدارة حكم البلاد .

خرج بعد أن نظم شئون دولته إلى الحج (صفر ٩٠٢ هـ — ١٤٩٦) مع جماعة من أعيان كل قبيلة (٤) وفى أثناء العودة هبت عليهم ريح شديدة بين مكة ومصر فجف ما معهم من الماء حتى كادوا أن يموتوا من الحر

والعطش، لولا أن باغتهم غيث، فزال الكرب عنهم. وقيل إن إسكيا تصدق فى الحرمين بمائة ألف ذهباً، واشترى جناناً فى المدينة المنورة وحبسها على أهل تكرور واشترى بمائة ألف سلعاً نفيسة، وقد لقى فى أثناء حجه الشريف الخليفة العباسى فطلب منه أن يجعله خليفة فى سنغاى فرضى له بذلك وجعل على رأسه قلنسوة وعمامة من عنده، ثم لقى كثيرا من العلماء والصالحين منهم جلال السيوطى، ورجع فى السنة التالية ودخل فى جاغ.

وفى عام ١٤٩٧ غزا بلاد سلطان موشى (Mossi) وبرفقته مور صالح جور، وقد طلب منه أن يكون رسوله بينه وبين السلطان فقبل، ووصل إليه، وبلغه رسالة إسكيا فى الدخول فى الإسلام، فقال له إنه سيشاور آباءه فمشى إلى بيت معبوده مع وزرائه ومشى هو معهم لينظر كيف يشاور الأموات، فعملوا ما يعملون من عاداتهم، فظهر لهم شيخ كبير، فلما رأوه سجدوا له وأخبره الخبر، فأجابه بلغتهم قائلا: « لا أقبل لكم ذلك بل قاتلوه حتى تفنوا عن آخركم أو يفنوا عن آخرهم. فلم يبق إلا الحرب، فرجع إلى الحاج إسكيا محمد وأخبره بما حدث، فقال عليك الآن بالقتال، فقاتلهم وأهلك رجالهم وخرب أرضهم وسبا ذراريهم، وبالرغم من ذلك لم يندمجوا فى إمبراطوريته وخرج فى الأعوام التالية لحارب ديار تندرم وغزا أير، ثم بعث أخاه عمر كزاغ لمقاتلة سلطان مالى وانتصر عليه ثم دخل أهالى جنى فى ملكه، ولم يغز بلاداً أخرى خلال الأعوام الثلاثة التالية.

وغزا إسكيا فيما بين ١٤٩٨، ١٥٢٠ الأقاليم الممتدة من بلاد مالى إلى كانو (شمال نيجيرية) وكتسينة، واجتازت قواته الصحراء وقد وصفت لادى لوجارد إسكيا وقالت عنه إنه قائد اتصف بعدة خصال جعلته من مشاهير الحكام، كان حر التفكير بعيد النظر، وإنساناً رحيما فى بعض الظروف وعلى قدر كبير من العلم والنشاط والحكمة والثبات (٥) وكان

متسامحاً مع أفراد شعبه الوثنيين ، فأنشأ منصباً فى حكومته يشغله موظف يشرف على العقائد والتقاليد ، ويعرف عنه أنه أمر بالبحث عن موارد بلاده وخيراتها وحفر الآبار وأنشأ جداول المياه والترع لرى البقاع الصحراوية الممتدة من شمال نيجيرية ، وعمل كثيراً لمقاومة تحرش الرمال الصحراوية إلى مناطق الجنوب .

ونصب إسكيا حكاماً ينوبون عنه فى دندى بين بحيرة ديبو إلى غربى نهر نيجروفى جورنة وأربنده ، وعين وزيراً للقصر وقائداً لسفائنه وموظفين يشرفون على جمع الضرائب ، ووزيراً لصيد الأسماك وآخر للغابات .

وكانت إدارته بلاده مضرب الأمثال فعم العدل وانتشر الأمن ودرب جيشاً كبيراً ليحمى به الدولة . ثم إنه شجع إنشاء المدارس فى تنبكتو واشتهر فى أيامه معهد سنكورى الدينى، وصارت تلك المدينة مناراً للعلم والثقافة الإسلامية ، كما أنه أقام فى جنى وجاغ معاهد العلم ، وقدر مكانة رجال الدين والعلماء وقربهم إليه وكان ممن اجتذبهم إليه العالم محمد المغيلى (٦) الذى لقب فى وقت ما بالبغدادى، مع أنه كان من أهل تلمسان وقد عاش فى زمن شبابه بقوات (شمال وسط الصحراء) يعظ الناس وسرعان ما اكتسب احترامهم ومحبتهم وقيل إنه كان أكبر داعية للإسلام بين الطوارق الذين لا يزالون يذكرونه بكل تقدير، ويعرف عنه أنه أثار القوم فى توات ضد اليهود فأعملوا فيهم القتل حتى كادوا أن يفنوهم فى ديارهم، ثم حدث حادث شبيه به فى جرارين وتجورت ، ولما كانت المبادئ التى يدعو إليها صارمة وشديدة كتلك التى دعا إليها ابن يسن منذ قرون ،قام أهل توات ضده ، فاضطر إلى مغادرتها وفر إلى الجنوب عبر أير (٧) إلى بلاد الهوسا واستمر فى دعوته ، وقد عثر على مخطوطة هامة من تأليف المغيلى منذ

سنوات فى كتسنة تكلم فيها عن الحكومة الصالحة وعنوانها « التزامات الأمير » كتبها الملك كانو بين فيها آراءه فى الحكم ».

وفى عام ١٥٠٢ غادر المغيلى كانو قاصداً جاغ وقد استدعاه إسكيا، وكان اليهود قد انتقموا من المغيلى فقتلوا ابنه فى توات لحزن الرجل وأسرع إلى إسكيا لعله يستطيع أن يؤثر عليه فيطرد اليهود من جاغ ، ولكنه لم يوفق وخاب مسعاه ، وعلى أية حال فإن إسكيا أغلق أبواب التجـــارة فى وجه اليهود بتنبكتو،وحرم على أفراد رعيته أن يتجروا معهم ،وقد ظل أثر المغيلى ملموساً عدة سنين بعد وفاته .

كان الحاج إسكيا لا يميل إلى مظاهر الأبهـة ويلاحظ المؤرخون أن قافلة حجه لم تجتذب اهتمام حكام مصر ، كما حظى موكب منساموسى قبل قرن ونصف قرن ، ومع ذلك فقد كان كريماً يعنى بوضع كل شىء فى مكانه بكل حرص . قال عنه أحد المؤرخين إنه كان كالنور الساطع الذى أضاء الكون بعد ظلام دامس ، هدى الضالين من عبادة الأوثان ، وحمى بلاده من الخراب والفوضى، وهو خير من لقب فى بلاده بأمير المؤمنين .

* * *

تلك بعض صفات هذا الحاكم الورع،الذى عرف كيف يبدأ بناء دولته الشامخة على أسس منظمة مدعمة فى جو عمته فيه العدالة فلما انتهى من هذه المرحلة اتجه للغزو ليبسط سلطانه على البلاد التى تهدد أمنـه وكان طليعتها بلاد الهوسا .

امتدت تلك البلاد نحو شرقى نيجر فى اتجاه بحيرة تشاد، وكانت ترويها المياه بغزارة فأكسبت أرضها خصوبة ، عاش فيها شعب زنجى مختلف الأصول اشتغل أفراده بالزراعة وبعض الصناعات، وقد اشتهروا بنشاطهم،

كانوا يعيشون داخل المدن المسورة والقرى وكان من أهم ديارهم جوبر(٨) وكانو وزارية وكتسينة ، وقد اجتذبت كلها طوائف البربر ، ولم تكن بلاد الهوسا صالحة للدفاع الجيد ، كما أن كلمة هـــذا الشعب النشيط لم تتفق على تدبير أمورهم ، ولذلك وقع فريسة سهلة فى قبضة أسكيا . فضم إليه بلادهم الغنية المكتظة بالسكان بما أثار النضال مع الطوارق ، فاستمر العداء مستحكما بين الجانبين ، وكان من العبث أن يطارد إسكيا هؤلاء الصحراويين حيث يستطيعون التغلب عليه ،وحيث اعتادوا العيش . ولذلك كان من العسير أن يقضى على الطوارق فى معارك مكشوفة، لكنه صمم أن يهجم عليهم فى بعض مواطنهم ومحلاتهم التى استقروا فيها مثل إير (اسبن) ويحرمهم من مراعيهم وهذا ما فعله إسكيا (٩) .

وكان إسكيا فى أثناء غزوتيه ضد الهوسا والطوارق قد أخذ معه كنت مالك كبي وكان هذا من الفولة . أما كبي فكانت مملكة صغيرة تقع بين بلاد هوسا والنيجر وخاضعة لسنغاى . ولما تم فتح إير انتظر كنت نصيبه من الغنائم،فلما انقطع رجاؤه وألح عليه أتباعه ولم ينالوا شيئاً ، أعلن كنت استقلال بلاده،وكان ملما بنقاط الضعف فى جيش سنغاى . فضلا عن علمه بأن إسكيا لا يستطيع مهاجمته بنجاح بين مستنقعات كبي التى تعرقل تقدم جيشـــه وكان كنت واثقا من شجاعة رجاله وإخلاصهم له ، وقد تحققت ظنونه فوقف برجاله الأقوياء وراء أسوار قصبته سورنامة التى لا تزال أطلالها باقية تشهد ذكرى المعركة التى دحرت فيها قوات إسكيا ، ثم ظل الخطر جاثما فى غربى بلاده .

أما فى الشرق فكانت هناك مملكة صغيرة ، بدأت تتحدى سنغاى على رأسها « ماى على » البرنوى ، الذى تقدم عبر السهول للقضاء على قوات كبي

الفتية ولكنه هزم إسكيا أمام أسوار سورنامة وانقض عليه رجال كبي يفتكون برجاله.

ولما طرد إسكيا الطوارق من إير، سكن بعض رجال سنغاي محلاتهم وتحسنت أحوال العيش لهم حول أغاديس، ودامت إقامتهم فيها قرون طويلة بالرغم من المحن التي مرت بهم.

* * *

كانت خاتمة حياة إسكيا الكبير مشبعة بالمآسي فقد ثار ضده ثلاثة من أولاده بزعامة أكبرهم موسى، فاستنجد إسكيا بشقيقه يحيي فقتلوه وتخلصوا منه ثم ساروا إلى جاو وأجبروا أباهم على التخلي عن العرش لابنه موسى، ثم نفوه إلى جزيرة نائية (١٥٢٨) في النيجر وبعد أعوام أعاده ابنه إسماعيل إلى جاو حيث عاش بقية حياته وقد كف بصره وقاسى خلالها الألم واليأس ثم قضى نحبه عام ١٥٤٢ *

مات إسكيا بعد توليه الملك مدة طويلة لم يحكمها إمبراطور مثله في السودان الغربي تاركا دولة فسيحة فقد حارب قوات مالي والفولة في الغرب والطوارق البربر في الشمال، ومملكة موشي في الجنوب وبلاد هوسا في الشرق. وانتصر عليهم جميعاً ما عدا ملك موشي الذي لم يسمح له بالتدخل في شئون بلاده، وأصبحت سيادة مالي ظلا ضعيفاً فامتدت سنغاي عبر أراضيها إلى حدود تكرور، أما في الشمال الشرقي فقد وضع إسكيا يده على تغازا وأجادس البربريتين، ثم أرغم قبائل الهوسا في الشرق على دفع الجزية بعد ما اكتسح بلادهم ودمر قواهم..

---

* ذكر السعدي أنه مكث في السلطنة ستة وثلاثين سنة وستة اشهر

خلفاء إسكيا الكبير

إسكيا موسى (١٥٢٨ — ١٥٣١) :

خلف إسكيا محمد ابنه موسى وبدأ فى قتل اخوته فهرب كثير منهم من بطشه وتعطشه لسفك الدماء ، ولما قرب إلى تنبكتو تلقاه شيخ الإسلام أبو البركات القاضى محمود بن عمر فى بلدة ترى لكى يصلح بينه وبين إخوته فلما جلس عنده استدبر السيد ولم يقابله بوجهه فقال له لم تستدبرنى فأجابه لا أستقبل وجهاً خلع أمير المؤمنين من إمرته فقال له ما فعلت ذلك إلا خوفاً على نفسى . فطلب منه العفو عن إخوته ليجنب الفتنة بينه وبينهم . فقال له « أمهل وأصبر حتى يحترقوا بالشمس » ورأى السيد أن موسى مصمم على الشر .

واستمرت الفتن فى أيامه حتى اغتيل وتخلص الشعب من طغيانه .

وعقبه إسكيا محمد بنكن كرى الذى يعزى إليه طرد أبيه من قصره، ولم ينته النضال بينه وبين إخوته فتقاتلوا وغلبوه وهزموه ثم عزلوه .

وخلفه إسكيا إسماعيل وكانت مدة حكمه قصيرة واشتهر بشجاعته ثم توفى .

إسكيا إسحق (١٥٤٣ — ١٥٤٩) :

وكان من أجل سلاطين سنغاى وأعظمهم هيبة استهل حكمه بالاستيلاء على نيانى عاصمة مالى ولكنه تخلى عنها بعد مدة قصيرة وفى أيامه بدأت الغيوم تتلبد فى سماء العلاقات بين المغرب وسنغاى . ففى عام ١٥٤٦ طلب إليه محمد الشيخو والد السلطان المنصور أن يتنازل إليه عن ملاحات تغازا فدهش إسحق وأجابه :

« لست إسحق الذى يلبى هذا الطلب . انتظر حتى يولد إسحق هذا . ولم ينتظر طويلا حتى أرسل ألفين من الطوارق الأشداء لغزو درعه غربى سجلماسة وأمرهم بنهب ما يصادفونه فى الإقليم إلى أن يصلوا إلى أسوار مراكش إذا استطاعوا . لكنهم لم يقتلوا الكثير من الناس . ولم يقم إسحق باعتداء آخر لأنه لم يرد أن تنشب الحرب بين بلاده والمغرب . .

وبعد سنوات عرف الشريف محمد الشيخ كيف ينتقم ، فبعث بجماعة من فرسانه الأشداء لغزو تغازا ، وقتل حاكمها وطائفة من الطوارق كانوا يعملون فى نقل الملح على الإبل .

إسكيا داود (١٥٤٩ — ١٥٨٣) :

تولى بعد وفاة أخيه ، وهو ابن إسكيا الحاج محمد . وقد سار على خطة أسلافه الحربية واستهل حكمه بإعلان الحرب على مملكة موشى وقبائل الفولة فى ماسينا ، وغزوه كبى وكتسينة . قيل إنه أرسل فرسانه الأشداء للهجوم على كتسينه (كشن) ، فأبلوا بلاء طيباً حينما التحموا بأربعمائة من فرسانها الذين سرعان ما تغلبوا على جنود إسكيا وقتل أهل كشن منهم خمسة عشر رجلا وقبضوا على تسعة جرحى ، فعالجوهم وعنوا بهم ثم أطلقوا سراحهم وبعثوهم لإسكيا وقالوا : مثل هؤلاء لا يستحقون الموت لنجدتهم وشجاعتهم ، وبقوا يتعجبون منهم لبأسهم وشدتهم حتى صاروا مثلا عندهم (١٠)

وبالرغم من ذلك فلم يوقف إسكيا سياسة الحرب ، فاتجه رجاله إلى بص وخربها، ومات فى تلك المعركة خلق كثير . وفى عام ١٥٥٥ غزا بلدة سوم فى مالى وهزم حاميتها ، وكانت الأحوال فى شمال البلاد غير مستقرة فانتقم المغربيون مما حل بهم فى تغازا ، فأشار رؤساء العمال فى مناجم الملح على السلطان أن يتخلى عنها ، ويبدأ العمل فى منجم آخر فى الجنوب .

فأخذ برأيهم وبدأ العمل فى المكان الجديد (١٥٥٧) بين تغـازا وتاودنى وكان يعرف باسم تغازا الغزلان . فحل الهدوء أخيراً وعاد الصفاء بين المغرب وسنغاى عدة أعوام ولا سيما بعد أن بعث مولاى أحمد المنصور الذهبى سلطان المغرب إلى إسكيـا داود ليسلم له فى خراج معدن تغازا عاما واحداً ،وبعث له هو عشرة آلاف ذهباً هدية وعطية ، فتعجب من سخائه وجوده فكان ذلك سبب المودة بينهما (١١) .

ويذكر المؤرخون إنه لمـــا بلغ السلطان وفاة إسكيا داود حزن وجلس للتعزية . وقد كانت وفاته بعد أربع وثلاثين سنة وعدة أشهر ، وكان موته فى تنزبى القريبة من جاغ، فحمل جثمانه فى قارب ودفن فى جاغ حاضرة ملكه .

ثم خلفه ابنه محمد الحـاج أكبر أولاده وقد اشتهر بالنجدة والشجاعة وحب المعرفة .

أسكيا الحاج محمد:

وفى أوائل أشهر توليه الحكم أرسل السلطـان مولاى أحمد المنصور رسوله إليه بهدايا نفيسة ويبلغه التهنئة بالسلطنة ، ورحب بالرسول ترحيباً لائقاً ثم قدم له أضعاف ما أرسله السلطان من الهدايا ، من خدام وخصيان .

وفى الواقع لم يكن هذا الرسول ومن معه قد أوفدوا للتهنئة وتقـديم الهدايا ،بل كان هنالك غرضاً آخر للسفارة وهو الوقوف على أحوال سنغاى وقوتها وكان المنصور قد دبر خطة لغزو السودان بعد إرساله حملة تأديبية ضد واحتى توات وجورارين ، وقد تبين له بعد نجاح مهمتها أنه من الممكن أن يرسل حملة كبيرة عبر الصحراء ، وعلى أية حال فقد بدأ يعد الترتيبات فى تكتم وسرية .

ويقول المؤرخ السعدى،إنه بمجرد عودة الرسل من سنغـاى ، وردت الأنباء أن السلطان بعث جيشاً مؤلفا من عشرين ألف رجل إلى ودان فى جنوب شرقى موريتانيا (التى كان البرتغاليون يحتـــلونها) وأمرهم بأخذ ما هنالك من البلدان على شـاطىء البحر وغيرها حتى يصلوا إلى تنبكتو (١٢) فتخوف الناس . .

ولـكن شاءت الظروف أن يشتت الله ذلك الجيش بالجوع والعطش وتفرقوا شذر مذر ورجع من بقى منهم إلى المنصور بعد أن فشلت مهمتهم وبعد أشهر أرسل السلطان قائدا ومعه مائتا رام (حملة بنادق) إلى تغازا وأمرهم بأخذ أهلها فسمعوا به قبل وصولهم فخرجوا منه هاربين إلى الحمدية وقوات وغيرها . ولما وصل القاضى ورماته وجدوا البلدة خالية وليس فيها إلا نفر يسير . فذهب أعيانها إلى إسكيا وذكروا له ما حدث ، فاتفق معهم على أن يمنعوا رفود الملح منه ، فوقف العمل وأصبحت تغـازا معطلة لا تعود بفائدة على أحد . ومن ثم رجع القائد والرماة إلى مراكش . ثم عاد العمل ثانية فى تغازا . ولما بلغ المنصور ذلك طالب سنغاى بنصيب من لأرباح — مثقال ذهب عن كل حمل من الملح . ولـكن أبى الحاج إسكيا محمد ورفض طلب المنصور بإباء وشدة .

وكان المنصور فى ذلك الحين مشغولا بالأحداث الخارجية، ولم يتوفر لديه الوقت لتحقيق طلبه ، وبدأ النضال بين الترك والأسبان من أجل الاستيلاء على العرائش المغربية ، ولـكنه استطاع أن يلعب بالدولتين ويضرب إحداهما بالأخرى . لكنه مع ذلك لم يضعف عزمه على غزو السودان وفتح سنغاى .

وفى أعقاب تلك الأحداث ، تحالف إخوة السلطان الحـاج محمد عليه فخلعوه وولوا مكانه محمـد بن إسكيا داود ، وكانت مدة حكمه أربع سـنين وخمسة أشهر ، وبعد ذلك بأيام قليلة توفى .

سنغاى والمغرب

إسكيا إسحق (١٥٨٣ — ١٥٩١) :

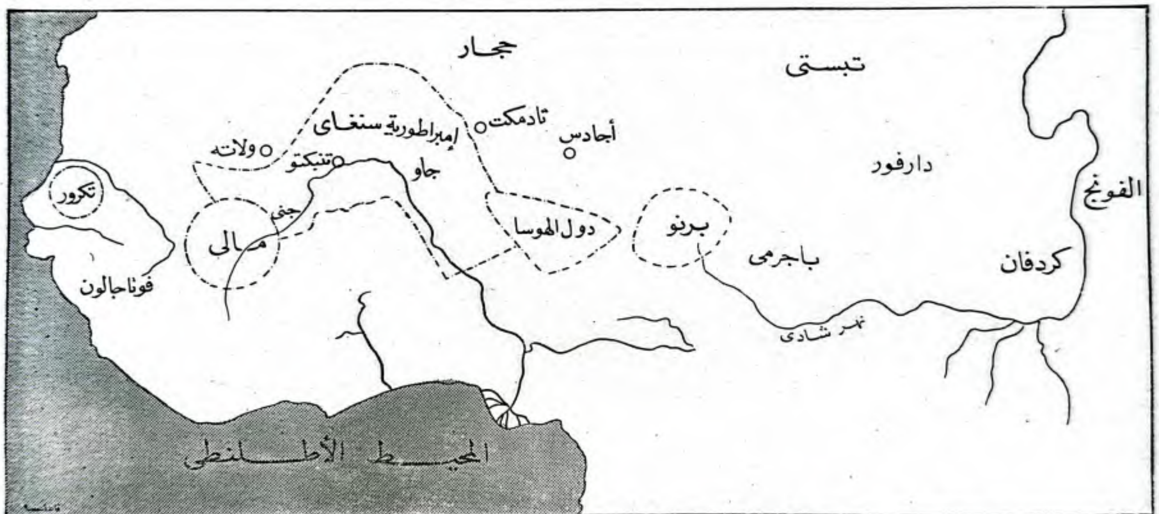
لم تطل مدة حكم محمد بن إسكيا داود وقد اختلفت الآراء فى أسباب وفاته كما خلت أيامه من الأحداث الهامة. تولى السلطنة بعده إسكيا إسحق ابن إسكيا داود ، وفى أيامه اشتدت الأزمة والجفاء بين بلاده والمغرب ، ونهض مولاى المنصور الذهبى بحملة عسكرية كبيرة لفتح سنغاى والاستيلاء على موارد الذهب فيها .

عاصفة من المغرب :

حينما كان السلطان المنصور ملك المغرب فى فاس (١٥٨٩) وصل إليه رسول البريد حاملا كتاباً بعثه ولد كرنفل وهو من خدام ملوك سنغاى غضب عليه إسكيا إسحق فبعثه إلى تغازا ليسجن فيها ، فانطلق هارباً إلى مراكش ليلتجىء عند سلطانها . فلما لم يدركه فيها ؛ كتب ولد كرنفل كتاباً وبعثه إليه وأخبره بوصوله وببعض أنباء سنغاى وحضه على الاستيلاء عليها . فما كان من المنصور إلا أن كتب إلى إسكيا إسحق يطلب إليه أن يسلم له فى خراج تغازا ؛ وبعث الكتاب مع رسوله إلى مدينة جاغ (٩٩٨ هـ — ١٥٨٩) فرفض إسحق ماطلبه ورد عليه بجفاء .

كان ذلك بداية إعداد حملة المغرب الكبرى ضد سنغاى — تلك الحملة التى استمرت سنين طويلة ؛ ولم تثمر شيئاً يذكر !

ومع أنه لم تكن لشكوى كرنفل أى أساس من الصحة ، فقد اتخذها المنصور ذريعة لغزو السودان بالرغم مما أصاب حملته الأولى من الهزيمة كما مر بنا الكلام عليها .



الـدول السودانيـة فى غـربى إفريقيـة فى القـرن السـادس عشـر

فماذا يفعل المنصور لتدعيم موقفه العدائى !

رأى أن يجمع مجلس الشورى المؤلف من وزراء البلاد وعلمائها وحكامها وزعماء القبائل ليستمد العون منهم وأوضح لهم ، خطته قائلا إنه قرر الهجوم على سلطان سنغاى ليوحد صفوف المسلمين ،وبين لهم أن غزو تلك البلاد الثرية سيدعم البلاد ويقويها وفى ذلك كل الخير للأمة الإسلامية . ثم قال أخيرا إن إسكيا لا يتصف بفضائل الأمراء الحميدة فحسب بل إنه لا ينتسب إلى قبيلة قريش ولذلك لا يحق أن يحكم .. وكان ذلك فى عام ١٥٩٠ .

فلما سمع المجتمعون ذلك وجموا وعارضوا مشروع المنصور وأوضحوا أسبابهم ،ثم ذكروه بخطورة موقع السودان خلف الصحراء القاسية وأن طرقاتها لا تصلح لمسيرة حملة كبيرة وماؤها لا يكفى للجنود والحيوان وقالوا له إن ما من سلطان سابق تعرض لمثل ذلك المشروع الخطير الذى لا طائل منه ، وإنهم يعترضون خطته ويرون فشلها الأكيد ، ورجوا منه أن يهديه الله ويتخذ من أسلافه هدى له وأن يتبع نهجهم .

فلما سمع المنصور ذلك ارتسمت على وجهه علامات الغيظ ووقف يرد عليهم (١٣) .

« إنى عزمت على منازلة أمير السودان صاحب كاغو (جاغ) لتجتمع كلمة المسلمين، ولأن بلاد السودان كثيرة الخراج يتقوى بها جيش الإسلام ألخ » . فلما فرغ المنصور من كلامه سكت الحاضرون ، فقال لهم : « أسكتم استصوابا لرأيى ، أم ظهر لكم خلاف ما ظهر لى » . فأجاب كلهم بلسان واحد إن ذلك رأى عن الصواب منحرف وذلك لأن بيننا وبين السودان مهامة فيحاء تقصر فيها الخطى وتحار فيها القطا ، وليس فيها ماء ولا كلأ ، فلا يتأتى السفر فيها ، وأيضاً فإن دولة المرابطين على ضخامتها ، ودولة الموحدين على عظمتها ودولة المرينيين على قوتها ، لم تطمح همة واحد منهم

لشيء من ذلك ، وحسبنا أن نقتفي أثر تلك الدول ، فإن المتأخر لا يكون أعقل من الأول ، فلما قضى أولئك الأقوام كلامهم رد عليهم المنصور :

« إن كان هذا غاية مااستضعفتم به أمري ، فليس فيه حجة ولا مايخدش فيما عندي ، فأما قولكم بيننا وبينها صحار مخوفة ومغاور مهلكة لجدبها وعطشها فنحن نرى التجار على ضعفهم وقلة استعدادهم يشقون تلك المهامة في كل وقت ويخوضون أحشاءها مشاة وركبانا وجماعة ووحدانا ، ولم تنقطع قط ركاب التجار عنها ، وأنا أقوى أهبة منهم ، وللجيش همة ليست للقوافل ، وأما قولكم إن من كان قبلنا من الدول الطنانة لم تطمح أبصارهم لذلك ، فاعلموا أن المرابطين صرفوا عنايتهم لغزو الأندلس ومقابلة الإفرنج والموحدون اقتفوا سبيلهم في ذلك وزادوا بحرب ابن غانية . والمرينيون كانت غالب وقائعهم مع بني عبد الواد بتلمسان ، ونحن اليوم قد انسد عنا باب الأندلس باستيلاء العدو عليه جملة ، وانقطعت عنا حروب تلمسان باستيلاء العدو عليها جملة وانقطعت عنا حروب تلمسان باستيلاء الترك عليها ؛ ثم إن أهل تلك الدول لو أرادوا ما أردنا لصعب عليهم لأن جيوشهم كانت فرسانا رامحة ورماة ناشبة ، ولم يكن عندهم هذا البارود وعساكر النار المرهبة الصواعق ، وأهل السودان ليس عندهم الآن إلا الرماح والسيوف وهي لا تقاوم هذه المدافع المستحدثة فقتالهم سهلة وحربهم أيسر من كل شيء ، وأيضاً فإن السودان أنفع من أفريقية فالاشتغال بها أولى من منازلة الترك لأنه تعب كثير في نفع قليل ، فهذا جواب ما عرض لكم ولا يحملنكم ترك الملوك الأول ، ذلك على استبعاد القريب ، فإنه كم ترك الأول للآخر .

فلما فرغ المنصور من خطابه انفصل الجمع على إيفاد الحملة إلى السودان ومتابعة المنصور في رأيه ...

الحملة المغربية :

ولكي يضمن المنصور النجاح فى حملته الصحراوية ضد سنغاى، كان عليه أن يتجنب الإفراط فى عدد القوات والحيوان والعتاد وأثقال الطعام والماء ، فإن القوات الصغيرة العدد « نسبياً » والمدربة تدريباً جيداً هى التى يتوفر لها النجاح . لقد كان لسنغاى قوات دفاعية وفيرة، ولكن امتاز المغربيون بحملة الأسلحة النارية (الرماة) ومما يعاب عليه المغاربة أنهم لم يدخلوا فى خطتهم تدبير قوات احتياطيـة أو قواعد عسكرية عبر الطريق . وقد عمل المنصور على أن يؤلف حملته من أحسن قواته تدريباً وتسليحاً وقد بلغ عددها أربعة آلاف من الجنود المختارين منهم ثلاثة آلاف رام ما بين أصحاب الخيل والرجل ومعهم من الأتباع عدد كبير من الصناع والأطباء . وكان نصف عدد المقاتلين من الأندلسين الذين هاجروا من بلادهم عقب محنتهم ومن الترك الجزائريين، وكان هناك أيضاً ألف وخمسمائة من الخيالة الخفيفة المسلحين بالرماح وهم من المغاربة، وتألفت مدفعية الحملة من ستة مدافع كبيرة وأخرى صغيرة حملت على الإبل ، وكانت غالبية رجال المدفعية من أصل أوربى . وعلاوة على هؤلاء كان فى صفوف الجيش سبعون من المسيحيين الذين يحملون البنادق الثقيلة ، كانوا من أسرى معركة القصر الكبير ، ويتضح من وصف هذا الجيش أنه لم يكن فيه سوى ١٥٠٠ من المغاربة . ولذلك عم استخدام اللغة الأسبانية بين أفراد الحملة.

وكان فى تلك الحملة ما لا يقل عن ٨٠٠٠ من الإبل وألف جواد عدا قراب الماء والخيام . وينبغى أن نذكر أنه كان أمام الحملة حوالى ألف وخمسمائة من الأميال ستجتازها عبر الصحراء .

كانت فى الواقع أضخم الحملات التى عرفتها الصحراء وقيل إنها

كانت أكبر مثيلاتها التى خرجت من مملكة المغرب ، ويخيل أن البلاد قد تركت خالية من أية قوات تحميها .

أما قيادة الحملة فقد جعلت للقائدجودر الذى منح رتبة الباشوية ومعه نحو عشرة من القادة نذكر منهم : القائد المصطفى التركى والمصطفى بن عسكر وأحمد الحروسى الأندلسى . والقائد أحمدبن الحداد العمرى وأحمد بن عطية والقائد عمار وأحمد بن يوسف العلجى وعلى بن المصطفى العلجى . . وغيرهم وجودر باشا هـذا كان شابا أسبانى النشــأة من « لاس سويفاس » من أعمـال غرناطة ، وقع فى أسر المغاربة وهو صغير وربى فى القصر الملكى فى مراكش ولم تكن له دراية سابقة على قيادة الجيوش ، وكل ما عرف عنه أنه امتـاز بجباية الخراج وحسن الإدارة والتنظيم (١٤)

بدأ سير الحملة بقيادة جودر فى ١٦ أكتوبر ١٥٩٠ وكان مشهداً مهيباً جعل المنصور يزهو بسلطانه ويأمل بالفوز ، واتجهت الحملة نحو جبال أطلس إلى الجنوب متجهة نحو درعة ، ثم وقفت عند لكتاوة ، حيث كان للمنصور دار لسك العملة وفيها وقفت حمـلة الحيوان وأكمل القائد بعض الأعمال الهامة ، وملئت القراب بالمياه ثم استأنف المسير فى الصحراء .

ومرت الشهور ، لم تصل خلالهـا أنباء من جودر ، وكان القائد قد سار فى طريق جنوبى لكتاوة يمر بتغازا وتأودينى إلى ولاته ، ثم اتجه إلى أروان حيث قابل قافلة لأحد الطوارق فاستولى عليها . وكان قد قطع تلك المسافة فى حوالى شهرين على الأقل . حدث هذا بعد ما أصابت جيشه كارثة سببها الجوع والعطش ، وفقد على الأقل ثلثى رجاله . ولم ينج سوى ألف رجل من الموت ، وهم الذين قدر لهم أن يشتبكوا بقوات سنغاى فى أول مراحل النضال . ويتفق هذا التقدير مع ما ذكره المؤرخ محمد كعت فى كتابه تاريخ الفتاش .

وفى أخريات فبراير ١٥٩١ أى بعد مرور عشرين أسبوعاً من مغادرة الحملة مراكش ، وصل جودر إلى النيجر عند قرية كوبر على مقربة من بامبا اليوم . ثم اختار مكاناً صالحاً لعبور النهر عند شنيته حيث تلتقى عدة طرق للقوافل وكانت كوبر تتوسط الطريق بين جاغ وتنبكتو ويستطيع منها أن يوجه الجنود إلى الجهة التى تسمح بها ظروف القتال مع عدوه .

أدركت سنغاى نوايا المنصور العدائية ، وكانت ثقتهم بمناعة الصحراء حملتهم على الاعتقاد بأنها ستحميهم ضد المعتدين . فلم يحدث لهم فى تاريخهم أن قدم عليهم عدو مخترقاً الصحراء، ولذلك أصبحوا أمام مفاجأة على غير عدة ، وكان إسكيا قد وصلت إليه أنباء اقتراب الحملة قبل وصولها إلى النيجر ،وتوقع ألا يكون تقدمهامن ناحية الغرب ، فأسرع فى سحب قواته إلى جاغ، وعقدمجلس الحرب ، ثم ساد الاضطراب فى الموقف وظن بعض قادته أن تنبكتو هى هدف جودر، ، ورأى آخرون أن جاغ هى هدفه الحقيقى . ومع أن إسكيا قد أصدر أمر الحشد فى جميع أنحاء بلاده ولكن انفرط المجلس بدون أن يقرر أفراده اتخاذ أية خطة لملاقاة العدو .

ثم أصدر إسحق أمراً واحداً ، لكنه كان متأخراً لا فائدة منه، فقد بعث بتعليماته إلى الزعماء فى الصحراء لردم الآبار لكيلا يفيد منها جيش العدو ولكن لم تصل تلك الأوامر لذويها ،لأن الرسل الذين حملوها أسرهم بعض قطاع الصحراء ،وفضلا عن ذلك لم يستجب جميع الأهالى لحمل السلاح ضد الأعداء لأنهم لم يتوقعوا أن بلادهم مهددة بهجوم من الشمال ولم يدركوا سوء الحال ، ولكن لما انتشرت الأخبار بأن المغاربة قد وصلوا إلى كوبر عملوا على التجمع والاستعداد .

استراحت جنود جودر بضعة أيام ثم استأنفوا السير إلى جاغ وحينما تقدموا قليلا هجم عليهم رجال الطوارق ،وسرعان ما ردهم المغاربة ، ثم جدوا فى المسير ، وفى أثناء ذلك التقوا بأربعة رجال كانت الدماء تسيل

من جروحهم. ولم يكن هؤلاء سوى الرسل الذين كان إسكيا قد أرسلهم إلى رجاله فى الصحراء ليردموا الآبار ، فتصدى لهم بعد الخطرين واعتدوا عليهم.

ولما صار جودر على مسافة أربعة أيام من جاغ ، علم أن إسكيا قد سد الطريق أمامه ، وأنه يقف على رأس رجاله للقتال فأرسل القائد يطلب إليه التسليم لإنقاذ البلاد من الدمار ولكنه رفض. وفى اليوم التالى شاهد جودر قوات سنغاى فى توندبى (تبعد مسافة ٣٥ ميلا من جاغ) فصمم على الهجوم .

يقول المؤرخ محمود كعت أن جيش سنغاى فى ذلك الحين تألف من ١٨،٠٠٠ فارس و ٩،٧٠٠ من المشاة ، أما السعدى فذكر أن معظم الجيش كان من حملة القسى ، أما الرماحون فكانوا عدة آلاف ، وكان بصحبتهم طوائف السحرة .

معركة تنكندبيع أو تندبى :

وقبل أن تبدأ المعركة ، ألقى إسكيا بين صفوف المغاربة مئات الماشية والغنم لنشر الفوضى والارتباك بينهم ، ولكن سرعان ما فتح الجنود صفوفهم ومرت القطعان بأمان . وبدأ المغاربة المعركة كعادتهم يهاجمون السنغاى فى الأجناب، وبالرغم من تفوقهم العددى فقد كانت الفوضى كاملة ، فضلا عن ضعف تسلحهم ، وسرعان ما فرقتهم نيران الأسلحة المغربية . وقد حاولت جماعات من المتحمسين فى جيش إسكيا أن تقاوم ، ولكنها أبيدت جميعاً ، وتبع ذلك فرار الجيش بسرعة ، وسنحت الفرصة للمغاربة بتجريد القتلى من الحلى الذهبية ، ثم أسرع الفارون فى عبور النهر إلى جرما ، ولكن لم يستطع المغاربة مطاردتهم لأنهم كانوا لا يملكون القوارب، وفى الحال أمر إسحق الأهالى أن يتبعوا جيشهم ويهربوا تاركين القرى خالية للعدو فغرق كثير منهم فى محاولتهم عبور النهر ولقى المغاربة ترحيباً من التجار وبعض المتعلمين عند دخول جاغ . وكانت غالبية هؤلاء من أبناء جنسهم

ولكن داب هذا الترحاب حينما شاهدوا أن المدينة التى وقعت فى أيديهم لا تستحق ذلك العناء المرير والكوارث التى أصيبوا بها ، وكانوا يتوقعون أن جاغ مدينة كبيرة عامرة بالمبـــانى شبيهة بمدنهم فى الشمال ، شاهدوا أكواخاً وضيعة مشيدة باللبن والقش، ولم يستثن منها دار إسكيا فقد كانت لا تمتاز عن أى كوخ إلا بسعتها ، وكان الأهالى قد حملوا معهم كل نفيس،فلم يعثر المغاربة على ما يستحق السلب ، ووقع فى أيديهم مدفع عليه شارة برتغالية لم يكن أحد فى جاغ يعرف طريقة استخدامه،وعثروا أيضاً على تمثال للعذراء وعلى صليب (١٥) ولما خسر إسكيا حاضرة بلاده وذابت مقاومته العسكرية فتح باب المفاوضات مع جودر . وعرض عليه الصلح . وأن يقدم مائة ألف ذهب وألف خادم ليعطيها للمنصور وأن يعود الجيش إلى مراكش . ولما لم يكن عند جودر أى تفويض لقبول هذا العرض أو رفضه أجاب إسكيا بأنه سيعرض الأمر على السلطان فكتب له بذلك ثم عاد إلى تنبكتو لينتظر رد المنصور ، بعد أن مكث فى جاغ سبعة عشر يوما ، وقد خابت آماله التى رجاها من ثراء السودان وزاد الطين بلة ، انتشار الوباء فى الجيش وموت الكثيرين فاشتدت رغبته فى العودة إلى بلاده .

وسارت الأحوال من سيء إلى أسوأ ، وبلغ عدد الموتى من جنود جودر فى أسبوعين حوالى الأربعمائة ، وتفشت الأوبئة بين الحيوان الذى لا يستطيع القائد الحراك بدونه ووقع هو نفسه فريسة المرض . فلما تأمل إسكيا تلك الحال التعيسة ، وكان قوى الرغبة لإنقاذ حاضرة بلاده نصح جودر بالانسحاب إلى تنبكتو حيث كان الطقس أكثر اعتدالا منه فى جاغ ووعده بأن يقدم إليه ما يلزمه من الجياد لكى ييسر له عودته فقبل جودر هذا العرض الكريم فوصل إلى تنبكتو بعد تسعة وعشرين يوما . وكان أهلها قد فروا منها إلى الصحراء وبقى بعضهم بزعامة القاضى أبو حفص عمر .

تنبكتو :

وكانت تلك المدينة بلا شك أحسن حالا من جاغ ، ومبانيها مشيدة باللبن ، منسقة وطيبة ومع ذلك فقد كانت أقل جمالا من عمائر المغرب ، يزينها حسناً معهد سنكورى والمسجد الكبير ، وكانت تنبكتو عاصمة السودان الثقافية ، يعيش فيها العلماء وطلاب العلم والفقهاء إلى جانب التجار الذين رأوا أن يبقوا فيها لكى يحفظوا أموالهم . ولما دخل إليها القادمون الجدد لم يرحب أحد بهم ونظروا إليهم بحذر ، وكان أول ما قام به جودر هدمه السوق ليشيد فى مكانه حصناً . .

* * *

نعود إلى رسول جودر الذى أرسله إلى مراكش حاملا أنباء انتصار الحملة فى معركة توندبى ، فقد عمت الأفراح البلاد ، ولكن لم يصل إلى علم أحد ما حدث للجيش بعد تلك المعركة . ولما اطلع المنصور على كتاب القائد ،لم يوافق على شروط الصلح التى قدمها إسكيا فرفضها وأنب جودر لأنه لم يترك حامية قوية من جنوده فى جاغ ولعدم أخذه بعض الرهائن ، وثار السلطان حينما أخبره الرسول عن تعاسة البلاد وفقرها وسأله المنصور :

«إذن من أين يتدفق ذهب السودان إلى المغرب طوال الأعوام ؟ فلم يجد لديه جواباً عن سؤاله . . فاغتاظ وغضب غضباً شديداً وأمر بعزل جودر من القيادة وإرسال محمود بن زرقون باشا وثمانين راميا. وطلب منه طرد إسكيا إسحق من السودان والقضاء على حكمه .

هل يستطيع المنصور أن يطالب شعبه بتقديم العون لإكمال خطته الكبيرة ؟ فما العمل إذن !.

أذاع بياناً بالغ فيه بالانتصارات التى حصل عليها جيشه ،ووصفها بأنها عمل جبار لا نظير له فى تاريخ البلاد ، وأثار بذلك حماسة الشعب الذى لم يدر بما حل بالجملة من الكوارث ، ولكنه بدأ يتردد حينما انتشر خبر عزل جودر من القيادة وأن يستبدل به القائد محمود بن زرقون ، وأيقن أنه أصيب بالفشل ، ثم أدرك حقيقة الموقف حينما بدأ المنصور جمع جيش آخر يرسله للسودان . ومع ذلك فقد ظن بعض الناس أن عالماً آخر قد كشف عنه سوف يزود المغرب بالذهب . أما المتعلمون الذين أدركوا الحقيقة فلم يشاركوا عامة الشعب فى أفراحهم .

محمود بن زرقون :

كان القائد الجديد من مسيحيي أسبانيا (وربما البرتغال) اعتنق الإسلام وكان خصياً مثل جودر نشأ فى بلاط السعديين ، أمره المنصور بأن يرحل فى الحال ليتولى شئون منصبه وألا يسير إلا ليلا ، وبالرغم من قسوة الصحراء وندرة المياه وهبوب الريح الشرقية ، فقدوصل ابن زرقون إلى تنبكتو بعد سبعة أسابيع ،وتسلم قيادة القوات وعزل جودر وتحول الجيش إلى جانبه ،وقد لام جودر لأنه لم يتبع قوات إسحق ليدمرها . فاعتل له بعدم وجود القوارب،ولذلك شرع فى صنعها،ويحدثنا السعدى فى كتابه أنه أمر بقطع الأشجار الكبيرة فى داخل تنبكتو ونجروا منها الألواح وغصبوا الدفوف الغلاظ فى أبواب الدور وركبوا منها قاربين وأنزلوهما فى النهر بعدم أيام . ثم عرض الجيش وترك حامية صغيرة فى المدينة ، واتجه إلى الجنوب محاذيا النيجر باحثا عن إسكيا أسحق . وفى بنب التقى الجيشان وتم لابن زرقون الانتصار،وأسرع رجال سنغاى فى الفرار عبر النهر إلى كبرى كرم ، أسرع ابن زرقون باستعانته بالقاربين فى اصطياد أفراد العدو ، وسرعان ما حلت النكبة بجيش سنغاى ، ذلك الجيش الذى انقلب على

إمبراطوره وحاول بعض قادته أن يقتلوه ولكنه أفلت منهم بأعجوبة ، وحاول مع أتباعه المخلصين الوصول إلى كبى بالقرب من تشاد ، ولكن تلك الظروف أجبرته على أن يضع نفسه تحت رحمة قبائل كرم ولكنهم لم يرحموه فى محنته ، وذبحوه مع ابنه ورجاله . ولا شك أن هذا الحادث الفظيع يعتبر نقطة سوداء فى تاريخ هؤلاء الذين لم يقدروا أعمال هذا البطل فى أثناء دفاعه عن البلاد .

خلف إسكيا أسحق رئيس ديوانه محمد جاغ ونصب نفسه إمبراطوراً ، ولكن بعض زعماء سنغاى لم يرضوا بذلك وانضموا بقواتهم إلى المغاربة فلم يكن من محمد جاغ إلا أن اتصل بابن زرقون وعرض عليه أن يمد جنوده بالطعام ، علامة على صدق نواياه ، فرد عليه القائد بأن طلب إليه الحضور إلى معسكره ليقدم فروض الولاء للمنصور . فرضى بذلك وتقدم محمد جاغ مع قادة جيشه نحو معسكر ابن زرقون ، ثم دعاهم إلى تناول الطعام فلما شرعوا فى الأكل قبضوا عليهم وجردوهم من سلاحهم ، ولما فطن من كان وراء المعسكر من أهل سنغاى هربوا ثم أرسل ابن زرقون جميع الذين قبض عليهم إلى جودر باشا فى جاغ وأمره بقتلهم .

رأى ابن زرقون بعد ما مر به من الأحداث أنه لا يمكن التغلب على سنغاى من الناحية العسكرية ، ورأى أن يعين من قبله « إسكيا » آخر ليحكم تنبكتو نائباً عن المنصور ، ولكن لم يقبل أحد فى سنغاى أن يكون تابعاً لدولة المغرب * وفى تلك الآونة ساءت الإدارة وعمت الفوضى ولما رأى زعماء القطاع الجنوبى من سنغاى (ولم يكن قد خضع لسلطة ابن زرقون) اختاروا منهم ملكا ونصبوه عليهم .

ولذلك كان هناك ملكان ، أحدهما فى الشمال مشمولا برعاية الحكومة العسكرية المغربية وثانيهما فى الجنوب لا يعترف إلا بسيادة سنغاى ، وهو

---

* وجدوا ضالتهم فى نهاية الأمر

الزعيم نوح الذى أصبح بعد اختياره ملكا على بلاده . وقد استطاع أن يشن حربا متقطعة ضد ابن زرقون فأضعف قواته .

اسكيا نوح :

برز هذا الزعيم فى وسط الظروف الحالكة التى كانت تسود سنغاى، وسرعان ما بث نوح روح الوطنية فى صدور أبناء بلاده، وألف جيشاً فتياً تسوده الحماسة لاستعادة الوطن من المعتدين، وكان نوح يعلم جيداً أن لا فائدة من مقاومة العدو المسلح بالأسلحة النارية . وعلى أية حال، فقد كان نوح قائدا موهوبا فى حرب العصابات، عرف جيداً كيف يفيد من الخصائص الطبيعية للبلاد، وكيف ينتفع بكل كبيرة وصغيرة . وعزم على أن يشنها حرب إبادة . وسنرى كيف أن هذا البطل تمكن بعزيمته ووطنيته الملتهبة خلال أربعة أعوام أن يكبد أعداءه الأقوياء الخسائر الفادحة .

أما محمود فلم يضيع الوقت عبثاً فى ضرب خصمه العنيد وكان نوح ينتظره فى دندى حيث تتشابك الأحراش جنوبى جرمه، وفى هذه المعركة كسب نوح نصراً معنوياً، فقد أوقف العدو يوماً كاملا ثم انسحب فى أمان بدون أن يتكبد خسارة تذكر، وقد علمته هذه المعركة أنه لكى يفوز بالنصر، ينبغى عليه ألا يلتحم بقوات العدو فى أرض مفتوحة ثم انسحب إلى غابات إقليم برجو .

تبعه محمود بحذر، ثم تقابل الخصمان عند نهر ميكون فى منطقة يغزر فيها سقوط الأمطار وتنتشر فيها المستنقعات والأوبئة والنباتات الكثيفة وسرعان ما قدم له الأهالى عونهم، والمعروف عن البرجوة وهم وثنيون ولم يفقدوا استقلالهم، حبهم للقتال وخبرتهم فى معارك الأدغال . وقد قاوموا كثيراً ملوك سنغاى الأوائل (١٩) ولم تربطهم صلات المودة،

ولكنهم أصبحوا مضطرين تحت ظروف بلادهم القاسية أن يتعاونوا معهم ضد العدو المشترك .

اشتدت المتاعب فى وجه محمود ، وربما يكون قد ندم لملاحقته نوح إلى دياره البعيدة وبخاصة إلى إقليم برجو الكثيف الغابات ولم يكن لجنوده أية دربة على القتال فى مثل تلك الغابات ، أما خصومه فكانوا يهجمون عليهم فرادى وجماعات ، فيكبدونهم الخسائر الفادحة ، أضف إلى هذا ، رداءة الطقس وضعف الروح المعنوية ، وندرة الطعام والماء الآسن والحشرات السامة وخاصة ذباب تسى تسى .

ومضى عامان على هذه الحال ، قاسى فى أثنائها جيش المغرب الأهوال وكانت الإمدادات لا تصله إلا بصعوبة . وأخيراً أدرك ابن زرقون أنه لا يمكنه إتمام واجبه ، وأدرك المنصور فى نفس الوقت أنه لا يستطيع الفوز على خصمه ، وبدأ يقدر موقف قائده . كان نفس الموقف الذى مر بجودر منذ أعوام قلائل .. ثم قرر أخيراً أن يوفد إليه ألفاً وخمسمائة من الخيالة ومثلهم من المشاة وخمسمائة من الجياد والإبل .. ثم تبعها بإمداد آخر .

لما وصلت هذه الإمدادات إلى محمود ، قرر ألا يضيع وقته فى معارك برجو ورأى أن يسحب قواته (١٥٩٣) إلى الشاطىء الأيمن للنيجر ، إلى تنبكتو ، تاركا حامية فى جاغ .

نهاية سنغاى

كانت هزيمة جيش سنغاى فى معركة تنديبى التى مرت بنا إيذانا بتفكك عرى الروابط بين ممالك سنغاى وقبائلها التى خضعت لحكومة مركزية حازمة . فسادت الفوضى وأعمال السلب والنهب جميع البلاد ،

وانتهزت القبائل الفرصة فاعتدت على بعضها البعض وساعدت تلك الفوضى الضاربة ، قبائل الطوارق والفولة ، فاعتدوا على الفلاحين فى النواحى الزراعية ونهبوا ممتلكاتهم فحل الفقر والبؤس محل الأمن والرخاء وكان من أشنع الأحداث غزو الطوارق لتنبكتو . فهجموا على حاميتها المغربية ثم انضموا إليهم ضد الأهالى المساكين ، فاضطر هؤلاء دفاعا عن أنفسهم أن يقاتلوا المغاربة .

وصل فى ذلك الحين إمداد مغربى مؤلف من ثلاثمائة وأربعة وعشرين من الرماة بقيادة القائد « مامى برون » فكلفه القائد محمود بتهدئة الثورة فى تنبكتو . وكان مامى هذا شديد العطف على السودانيين ومن ثم عمل على اجتذاب ثقتهم به واستمالتهم . تلك السياسة التى كانت على عكس ما توقعه ابن زرقون ، كما إنه أمر جنوده أن يدفعو للأهالى أثمان ما يشترونه منهم نقداً وفى الحال . ثم إنه اعتذر لأبى حفص عمر لما لحقه من إساءة رجال الجيش المغربى ، فكان لتلك المعاملة الإنسانية أثرها الطيب ، وعاد الأمن إلى نصابه وأقسم الأهالى بولائهم إلى المنصور ، ثم عاد الفارون إلى ديارهم من الصحراء ، واستأنفت القوافل نشاطها التجارى ، وعلى العموم عادت الحياة تدب من جديد إلى تنبكتو ولما علم تجار وعلماء مدينة جنى ما حل بأهالى تنبكتو أسرعوا بتقديم خضوعهم إلى مامى ، فقبل على أن يدفعوا إليه ستين ألف مثقال ذهب ،وكان لهذه المدينة مكانة مرموقة بين مدن السودان ، فقد كان يلقب ولى العهد المغربى مولاى زيدان بن المنصور بملك جاوو تنبكتو وجنى .

وأدرك مامى أنه طالما يتمتع الطوارق بقوتهم ، فهم يهددون البلاد ولذلك أرسل جيشاً دك معاقلهم لكنهم عادوا مرة ثانية واعتدوا على إحدى الحاميات المغربية فى حصنهم ، وذبحوا رجالها ، ولما وصل إليه مدد من المغرب ، يقدر بألفى مقاتل ، انتقم منهم بقسوة .

وفى تلك الآونة دبر القائد محمود خطة محكمة لنهب تنبكتو بحجة أن ما قدمه لأهلها من الذهب راح كله إلى جودر ، ولم يفد منه شيئاً . فبدأ بتنفيذ سياسة الابتزاز وتجريد الأهالى من أموالهم ؛ وأعلن الجنود بين الأهالى بأنهم سيفتشون الدور للبحث عن السلاح وأنه سوف يستثنى من التفتيش دور آل « سيدى محمود » أحد الرجال الصالحين ، فهؤلاء سيتركون ويعفون من التفتيش وكان هذا من قضاة تنبكتو السابقين ؛ فهرع كل تنبكتى يدعى قرابته لهذا القاضى ، ليودع ما يمتلكه لديه . وبعد أن فتشت الدور بقسوة حشد الأهالى فى فناء معهد سنكورى ،وطلب إليهم أن يقسموا بالولاء إلى المنصور ، وأطلق سراحهم ، ثم جمع المتصلين بسيدى محمود ، وأغلق أبواب المسجد عليهم ، وأمر الجند بالاعتداء على دورهم ، فنهبوها نهباً منظماً كما اعتدوا على النساء ثم ذبحوا من اجتمع فى المسجد عن آخرهم ،وجمع محمود قدراً كبيراً من الذهب أرسل منه نحو مائة ألف مثقال ذهب إلى المنصور .

كان هذا الحادث الذى يوصم بسوء الذمة والخيانة والخسة (١٥٩٢) رد فعل لما قام به أبو حفص عمر ، فقد كان أوفد بعض رسله إلى المغرب ليبينوا للمنصور ما لحق بهم من الذل فى ظل جنوده ، وما وصلت إليه البلاد من الفساد ، ورجوه أن يشملهم برحمته وينقذهم من العذاب ، فأبدى السلطان عطفه وطمأن رجال الوفد بأن أرسل معهم القائد « أبو اختيار » وأمره الشريف بالعمل على تسوية الأمور وتهدئة الأحوال ، ولكن لما وصل الوفد إلى تغازا تبين أنهم خدعوا فقد أرسل المنصور قبل رحيل الوفد من مراكش أوامره التى كانت تناقض ما قاله لرجال الوفد ، وكانت أوامره تقضى بالقبض على عمر وعلماء وأدباء ، تنبكتو وتكبيلهم بالحديد ، وقد نفذت تلك الأوامر بحذافيرها .

وبعد أسابيع قبض على أعيان وعلماء تنبكتو وقد بلغ عددهم مائة تسعة وستين ؛ بصحبة أفراد أسرهم ، يحملون ممتلكاتهم الخفيفة وكتبهم فساروا عبر الصحراء القاسية حتى وصلوا إلى مراكش .. بعد ما أصابهم من الإعياء والأمراض بعد حبسهم فى السجون ، وكان بينهم السيد عمر المريض. وأبو العباس أحمد بابا فقيه تنبكتو وعالمها الكبير . وفى أثناء الطريق سقط عن الجمل الذى كان يحمله فانكسرت رجله ، ثم بعد ذلك أمر المنصور بإطلاقه من السجن ، فدخل عليه إلى قصره .

ويحدثنا المؤرخ الأفرانى عن اجتماع هذا العـــالم الجليل بالمنصور فيقول ما ملخصه :

... ولمـا دخل على السلطان ابن العباس أحمد المنصور داره المسماة بالبديع وجده قد اتخذ حجابا بينه وبين الناس وهو من وراء الستار يتكلم فقال الشـيخ : قال الله تعالى « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب» وأنت تشبهت برب الأرباب وإن كانت لك حاجة فى الكلام معنا فانزل إلينا وارفع الحجاب عنـا « فنزل السلطان فقال له الشيخ أى حاجة لك فى نهب متاعى وتصفيدى من تنبكتو إلى هنا حتى سقطت من على ظهر الجمـل وانكسرت رجلى . فقال له السلطان « أردنا كى تجتمع الكلمة » فقال له الشيخ « هلا جمعتها بترك تلمسان » ؟

وعلى أية حال ، فقد أساء حكام المغرب إلى شعب سنغاى ، وأذلوا الكبار والصغار ، مما جعل ضباط ابن زرقون يشمئزون ، وكان بين هؤلاء المتبرمين أحمد بن الحداد أحد القادة الذين رافقوا حملة جودر ، ففر سراً إلى مراكش ليطلع حقائق الأمور على الرؤساء ، ولما بلغ المنصور ذلك أدرك أن القائد محمود أساء إلى سلطته باسمه ، وقرر أن يرسل إلى السودان ، القائد منصور بن عبد الرحمن فأمره أن يتسلم القيادة العليا من محمود ثم يقتله ، فبعث له ولده مولاى بو فارس رسولا يخبره بما سوف يأتى به

القائد منصور وأمره أن يحتال لنفسه قبل أن يصل إليه ، فلما بلغه وعلم بحقيقته ، توجه بجيشه إلى حجر المن وال (١٦) مجازفاً بهجوم صادق على العدو فلقى حتفه ومات فى ساحة القتال .

ولما وصل القائد منصور تنبكتو تلقاه جودر ، ثم قام قاصداً منطقة أمبورى الجبلية التى اشتهرت بحمية رجالها والتقى بإسكيا نوح ، فغلبه منصور ونال منه ما لم ينله محمود بن زرقون ، فهرب مع جيشه وقيـــل إنه مات (١٥٩٥). وهكذا مات اثنان من أكفأ قادة الحرب السودانية ، قاتل كل منهما فى سبيل هدف .

فقد كان محمود من أبرز قادة المغرب ، ولكنه فشل فى إدارة البلاد لعسفه وظلمه وكان فى موته خسارة لم يعوضها المغاربة . ثم انه بموت نوح هدمت المقاومة المنظمة لدولة السودان ، وبدا أن كل شىء سوف ينتهى.. هل يرضى شعب سنغاى بهذه العاقبة الحزينة ويستسلم للطغيان ؟

* * *

وبعد قليل وقع بين منصور وجودر خلاف فعزم الثانى على أن ينتزع من الأول جميع الرماة الذين معه ،وأن يكون حكم الأرض فى يده حيث هو معزول منذ مجىء ابن زرقون (١٧) وانتهى خلافهما إلى المكاتبة للسلطان ، فكتب لهما وفرق بينهما ، فقال حكم الأرض لجودر لأنه فتحها وحكم الجيش للقائد منصور . فعاد منصور إلى غزو أرض دند ونزل كوبر وبقى هنالك شهوراً وهو مريض ؛ ثم رجع إلى تنبكتو حيث توفى . وقيل إن جودر أطعمه السم فقتله ، وكذلك القائد بو اختيار « قيل إنه أطعمه السم أيضاً » .

القائد محمد طابع :

ثم بعث السلطان محمد طابع باشا على رأس حملة فيها ألف رام من أرباب الخيل والمشاة، فوصل تنبكتو ؛ وكان شيخاً كبيراً، وصاحب رأى وتدبير ولما وصل تهيأ للغزو فى المناطق الجبلية فانتزع من جودر قيادة الجيش وبعد وصوله انكند مات .

وفى عام ١٠٠٧ هـ — ١٥٩٨ أمر السلطان القائد جودر بالعودة إلى مراكش، فكتب إليه أن يبعث من يقوم بإدارة البلاد ، ويكون وكيله على الجيش فبعث القائد المصطفى الفيل والقائد عبد المالك البرتغالى ؛ ثم رد جودر إلى السلطان يبلغه بتحرك سلطان مالى والعودة إلى البلاد التى اقتطعت وان صاحب (ملك) ماسنة عزم على الرجوع إليها ، فأسرع المنصور وأرسل القائد عمار باشا وحده على راحلة دون الجيش ، ووصل إلى تنبكتو . وأما جودر باشا فقد استعد للرحيل إلى مراكش (مارس ١٥٩٩) بعد أن عمل فى السودان حوالى عشر سنوات .

ثار شعب مالى ، ولكن تمكن عمار من كبح ثورتهم ، ثم استدعى إلى مراكش بعد أن وصل سليمان باشا ، وكان آخر القادة وربما كان من أكفأ من أرسلهم المنصور إلى السودان ، فقد كان إدارياً قادراً على معاملة الناس وعلى اكتساب ثقتهم ، فأمر بإخراج الجنود من تنبكتو إلى خارجها وذلك من أجل إنقاذ الأهالى من عسفهم ، وعمل بحزم على تنظيم الجيش وإعادة روح النظام والطاعة إلى نفوس أفراده ، وبدأ الأمن يسود البلاد . ولكن يبدو أن ذلك جاء متأخراً ، فقد مات السلطان المنصور (أغسطس ١٦٠٣) .

حاول أبناء المنصور الثلاثة كل منهم أن يتولى العرش ، وبعد معارك طاحنة تمكن زيدان الابن الصغير أن يفوز به ، ورضى رجال الجيش

فى السودان هذا الاختيار ، واضطر زيدان نتيجة للأحوال الداخلية فى بلاده أن يدعو سليمان إلى مراكش ، فعادت الفوضى من جديد فى السودان . وكان قد مكث فى ولايته أربع سنين وشهرين . وكان آخر باشوات السلطان المنصور .

* * *

ثار الطوارق وسنغاى والفولة . . قام كل هؤلاء ضد المغاربة وحل الانقسام والشقاق بين قادة وحكام السودان ، ثم ثار أحد الضباط وطرد محمود لفك الذى خلف سليمان فى الباشوية (١٦١٠) .

وفى عام ١٦١٢ التقت قوات المغرب بقوات سنغاى فيما بين دورى وأمبورى ، وتجنب الجيشان المعركة كما أشيع أن قائد سنغاى قد ارتشى فأمر اسكيا أن تفحص جيداً ملابس هذا القائد ، فعثر الباحثون على قدر من الذهب أخفاه الخائن ، فحكم عليه بالموت فوراً ، ثم استؤنف القتال .

وأخيراً بلغ ضعف باشوات مراكش حداً جعلهم يدفعون الجزية لملوك « سجو » الوثنيين ، ثم استقلت حامية جاغ وجنى وبنب ، ولم يبق للباشوات إلا مدينة تنبكتو .

ولما ساءت الأحوال قرر مولاى زيدان أن يتخلى نهائياً عن السودان (١٦١٨) ويدفن مشروع والده الذى ذهب ضحيته حوالى ٢٣٫٠٠٠ نفس من خيار جيش المغرب ، ولم يرجع منهم سوى نحو خمسمائة رجل ، كانوا ضحايا المغرب فى السودان (١٨) .

وبقى بعض جماعات من المغربيين على النيجر سادة أنفسهم ، يختارون باشواتهم وقادتهم فيعاملونهم حسب رغباتهم ، ويعزلونهم متى أرادوا ، وبدأ عددهم يتضاءل على مر الزمن ، واختلطوا بالقبائل السودانية ، ونشأ جيل

مختلط مغربى ســـودانى عرف باسم الرماة وهكذا نشأت أسرة محلية من سلالة باشوات تنبكتو تدين بالتبعية الإسلامية لسلطان المغرب، وتعتمد على العناصر الخليطة من البربر والمغاربة وأهـل السودان،وكان منهم محمد الشتوكى الذى وصل عام ١٦٦٠ وكان يعرف باسم بويا وهو الباشا السابع والعشرون منذ باشوية جودر ، كانت تخطب صلاة الجمعة باسم الباشا الحاكم والجدير بالذكر أنه تعاقب من هؤلاء الباشوات على حكم تنبكتو فيما بين عام ١٦٦٠ — ١٧٥٠ مائة وثمـانية وعشرون (١٩) .

ثم تفـككت أوصال البلاد السودانية ، وآل الحكم إلى رجال القبائل وتفشت الدسائس وعم المجتمع الظلم ، وفى أعقاب هـذا الفساد انتشرت المجاعة بصورة مروعة ، ففتك الموت فى الأهالى ، إثر مجاعة عام ١٧١٦ التى دامت خمس سنوات .

* * *

وفى عام ١٧٣٧ خرجت آخر فلول الجيش المغربى من تنبكتو لتصد هجوماً عنيفاً شنته « تادمكت » فى قلب الصحراء الكبرى ، وهى ملتقى هام لطرق القوافل بزعامة القـائد « أغمر » فقضى على تلك الفلول وعاد من بقى منهم إلى تنبكتو وقدموا ولاءهم إلى « أغمر » فسمح لهم أن يختاروا الباشا ثمناً لخضوعهم وظلوا على هـذا الحال حتى عام ١٧٨٠، حينما أوقف هذا التقليد وقصر حقهم على انتخاب عمدة المدينة (٢٠) .

* * *

وهكذا رأينا الفتح المغربى يقضى على امبراطورية سنغاى وأمنها الذى استظلت به ،لكن لم يستطع المغاربة فى إدارتهم الصارمة أن يمدوا نفوذهم إلى ما وراء المدن الرئيسية : سكتو وجاغ وجنى ، ثم كفوا عن إرسال

الجند أو الذخيرة ، وتركوا قواتهم هناك تقرر مصيرها (٢١). فهل حقق هذا الفتح أغراضه ؟ هل ضم بلاد السودان إلى المغرب ، وهل عادت إليه ثروة سنغاى ؟لا شيء من هذا ، فقد خسر عدة آلاف من خيرة جيوشه ، وبعثر عتادها ونفق آلاف الإبل والجمال .. وربما كان الشيء الذى كسبته البلاد هو أنه طبع طراز العمارة المغربى فى بعض المدن الكبرى ، كما تأثرت بعض الصناعات المحلية كالخزف والأزياء وألوان الطعام .

وفى أوائل القرن التاسع عشر ، أسدل الستار وكأن لم يحدث شيء على الإطلاق على قسوة ماتعرض له السودان من غزو ، واستعد لغزو أجنبى جديد لم يقدم هذه المرة ، من الشمال ، بل جاء من سواحل المحيط الأطلسى .

تعليقات ومراجع

١ – تكدا – تاكدا مركز هام فى طريق القوافل بين مالى ومصر تقع على بعد ٩٧ ميلا غرب وشمال غربى أغاديس ،اشتهرت بمعادن النحاس التى كانت تمد المغرب ومصر ومالى وبلاد الهوسا بحاجتها . وهناك عدة أماكن لها الاسم نفسه ، مر بها ابن بطوطة ،وقال إن ديارها مبنية بالحجارة الحمر وأنها كثيرة العقارب وان لاشغل لأهل تكدا غير التجارة،،يسافرون كل عام إلى مصر،ويجلبون ما بها من حسان الثياب وسواها ولأهلها رفاهية وسعة حال (مهذب الرحلة ص ٣١٨ – ٣١٩) .

٢ – السعدى : تاريخ السودان للشيخ عبد الرحمن السعدى ، نشره هوداس بباريز ١٨٩٨ . ص ٣

٣ – المصدر السابق . ص ٥

٤ – » » ص ٧٢

٥ – Lady Lugard : A Tropical Dependency. PP. 171-173

٦ – الشيخ محمد بن عبد القادر المغيلى من تلمسان وهو من العلماء الكبار فى السودان الغربى أثناء القرن الخامس عشر ، وكان له أثر كبير فى تفكير الزعيم عثمان دان فوديو وقادة قبائل الفولة بعد ثلاثة قرون انتقل إلى كانو (شمال نيجيريا اليوم) وكانت له حظوة عند حاكمها بما كان يسديه إليه من الآراء الحكيمة فى السياسة والحكم وألف له رسالة بعنوان « التزامات الأمير » وما ينبغى عليه فى تطبيق الشريعة وقد ترجمها إلى الإنجليزية المستشرق بلدوين وطبعت فى بيروت عام ١٩٣٢ وقد توفى المغيلى فى عام ١٥٠٤ وربما بعد ذلك .

٧ – اير – أهير . انظر التعليقات فى الفصل الثالث .

٨ – جوبر – كبر، إقليم يقع شمال سكوتو فى نيجيرية اليوم وهو أقصى دول الهوسا الشمالية وموطن الزعيم عثمان بن فوديو الذى قاد ثورة قبائل

الفولة وأسس امبراطورية حكمت بضعة أعوام ولا تزال له مكانة روحيـة في نيجيرية الشمالية وفى خلال حكمه دانت ايرللجبراوة (أهل جوبر) .

٩) E'W·Bovill : The golden Trade of The moors
P .' 107 ·

١٠) السعدى : تاريخ السودان ص ١٠٣

١١) المصدر السابق . ص ١١١

١٢) « « ص ١٢٠

١٣) نخب تاريخية جامعة لأخبار المغرب الأقصى ـ نشرة ليفي بروفنسال انظر أيضاً : عجاج نويهض وشكيب أرسلان — حاضر العالم الإسلامى . جـ ٣ ص ٤٠ — ٤١ .

١٤) السعدى : تاريخ السودان

١٥) المرجع المذكور فى رقم ٩ Bovill : P · 157 .

١٦) السعدى : ص ١٤٥

١٧) السعدى ص ١٧٥ و١٧٧

١٨) السعدى ص ١٩١

١٩) ص٣١ — ٣٢ · Fage: An Introductionto the History
of Wast Africa

٢٠) J.C.De. G .Johnson African Glory.

٢١) ص ٣٠ — ٣١ . المرجع السابق ذكره Fage

الفصل السادس

إمبراطورية كانم وبرنو

٨٠٠ — ١٤٣٢ م

إمبراطورية كانم وبرنو

٨٠٠ — ١٤٣٢ م

فجر التاريخ :

لم تكن إمبراطوريات غانة ومالى وسنغاى وحدهاهى التى سجل التاريخ أحداثها فى غربى أفريقيا ، بل كان هناك فى شرقى سنغاى دولة أخرى عاصرت غانة وشطراً من أيام مالى ولعبت دوراً هاماً فى تاريخ القـــارة الأفريقية ، تلك هى إمبراطورية كانم ، التى اتسعت رقعتها فى أزهى عصورها من نهر نيجر غربا إلى النيل شرقا، ثم عاشت مع حليفتها برنو عدة قرون ، مدة أطول مما عاشته مالى أو سنغاى . ونحن لا نعرف من تاريخها المبكر سوى بعض الأساطير المتعلقة بشعب ساو الذى عاش على أرض كانم من قبل .

تتحدث بعض المراجع التى تؤيدها الآثار عن قدوم هجرات متعاقبة أتت من الشرق والشمال الشرقى ، متبعة الطرق القديمة المؤدية من وادى النيل . وربما أتى هؤلاء هاربين بعد الحروب وأحداث الدمار التى تلت سقوط دولة كوش فى السودان وغزوات أكسوم وفتوح العرب . وقد سبق لشعب ساو أنه عاش فى الأقاليم المحيطة ببحيرة شـــاد فى شرقيها وغربيها ، فبنوا عدة مدن وأجادوا صناعة الفخاريات وأتقنوا عمل التماثيل البرونزية . وكان لهم مجتمع متقدم اعترف بمكانة المرأة وحظوتهـا ، وبالاختصار كان لهذا الشعب حضارة قديمة اعترف بها علماء الآثار .

وهناك من يقول بانتســاب هذا الشعب إلى الهكسوس الذين غزوا

مصر ومن يقول بأنهم من مهاجرى مملكة مرو — التى نشأت فى السودان الشرقى ، كما أن هناك رأى آخر يرى أنهم من القبائل النيلية *

ويذكر بعض المؤرخين أن شعب ســـاو كان يسكن حوالى عام ٨٠٠ م فى بيلما الكوار ثم عاشوا جنوبى بحيرة شاد بين الكوماد وجويوبيه والشارى فى القرن العاشر ، ثم أتت جماعات عن طريق واحة كفرة وفاية وماو وموسرو وبحر الغزال التشادى ، ولما غلبوا على أمرهم فى منطقة بحيرة فترى ، غادروا مواطنهم فى زمن غير معروف تماما وأقاموا فى جنوبى سهل شاد ، وكان هؤلاء المهاجرون سود اللون طوال القامة ومن بيض اللون أيضاً من يدعون الساو .

والساو صيادون مهرة وبناءون ، يرجع إليهم بناء المدن المحاطة بأسوار وتلال نصف صناعية فى أنحاء المنطقة الواقعة بين مجرى الشارى الأدنى ولوجون إلى الغرب وبحيرة تشاد شمالا ونجالا النيجر وكانو غرباً ، وذلك باستثناء أماكن الإقامة القديمة لملوك برنو وبرنى نجاز ارجاموعلى بعد ٧٥ ك . م غربى بحيرة تشاد وهى مبان أقامها العرب .

وقد مارس الساو ابتداء من القرن الحادى عشر نوعا من القيادة والسلطة على نهر شارى ، وربما على الأراضى الواقعة غربه ، وابتدأ الصراع سجالا فى أوائل القرن الثالث عشر مع جيوش كانم التى هزمتهم فى نهاية القرن السادس عشر ، وقتل منهم عدد عظيم ، كما هرب آخرون نحو الجنوب حيث وجدت آثارهم فى مورا ونحو الشرق فى جزائر بحيرة تشـــاد ونحو الغرب أيضاً . أما من بقى فقد اعتنق الإسلام واندمج فى الشعب الغازى ، ونشأ

---

* يمكن أن ننظر الى سكان هذين الاقليمين على أنهما شعب واحد يتحد فى أصله ولغته وكان ينتشر عبر أقاليم واسعة صحراوية غالبا .

منهم شعب الـكتوكو ، ومع أنهم مسلمون فان اعتقادات أسلافهم الوثنيين لا تزال تنعكس فى مجتمعهم .

وعلى أى حال فاننا نلاحظ وجود ثغرة عريضة بين العصر الذى استقر فيه شعب الساو والعصر الذى قامت فيه كانم الوثنية . وذلك فى أعقاب انصهار الشعوب المهاجرة من الشمال والشرق ، ثم تأليفها شعباً منسجماً مستقراً ، أتيح له أن يشيد حكومة ودولة فى القرن الثامن الميلادى استمرت إلى القرن الثـالث عشر وعرفت باسم امبراطورية كانم . وقد اعتمد شعب كانم على بعض أصحاب الحرف ولا سيما الحدادة وأرباب التجـارة ولم يكن فى بلاده التبر الذى كان سبب ثراء غانة ومالى ولذلك لم يكن شعب كانم هدفا لغزوات أهل الصحراء أو المغاربة فانفرد بالسيادة على طرق القوافل المـــارة بفزان فى شرقى الصحراء وبين البحر المتوسط وتشاد .

وهناك نقطة ثابتـة فى تاريخ كانم ، فقد أكد المؤرخ اليعقوبى وجود مملـكة كانم فى أوائل القرن التاسع الميلادى ،ويدعم هذا الاعتقادما قال به مؤرخون آخرون،منهم المؤرخ الفرنسى « Irvoy أرفوى»(٢)الذى أشار إلى تأسيس أسرة السيفية (نسبة إلى سيف بن ذى يزن) فى كانم حوالى عام ٨٠٠ م * ولـكننا نرجح أن يكون ذلك فى القرن الحادى عشر .

امبراطورية كانم :

اتصل تاريخ كانم القديم بحكم أسرة السيفيـة وقد اتسم حكم البلاد فى أيامهم بالإقطاعية القبلية ، وكان فيها مجلس للشـورى يتألف من

* مما هو جدير بالذكر أن الجغرافى البـكرى أشار فى حديثه عن كانم الى وجود طائفة من اللاجئين الأمويين ، احتفظوا بعاداتهم (٣)

اثنى عشر شخصاً يشرفون على تدبير الأوامر الإمبراطورية ، وكان ينتمى هؤلاء جميعاً إلى الأسرة الحاكمة ويعملون فى مجلس الشورى مدة الحياة . أى أنهم كانوا يتوارثون عملهم فى المجلس ، ولما اتسعت أطراف الامبراطورية ونمت مصادر ثروتها اشتد الخصام بين هؤلاء ، وتحول إلى معارك حامية فانصرفوا إلى المحاربة من أجل حقوقهم ، بالرغم من أن تلك الحقوق كانت هبة من الإمبراطور .

وكان يطلق على الطبقة الحاكمة فى كانم اسم ماجومى وهى كلمة يعود أصلها فى الكانورى إلى مامى (٣) ومعناها الحاكم أو الملك ، وما جيرة «Maghira» لقب الملكة الوالدة وكان لها شأن كبير فى حكم البلاد .

وكان السيفية رعاة من البدو الرحل غزوا وامتصوا بعض قبائل التيبو فى الشمال والبربر والكانمبو ، ثم أسسوا دولة كانم وجعلوا قصبتها فى نجيمى . وما لدينا من المعلومات عن الملوك الأولين من السيفية مجرد أساطير ، والفرع الرئيسى من أسرة سيف الأولى انقرض بموت من يسمى « سلمعة » ثم انتقل الحكم إلى فرع آخر من الأسرة نفسها . وربما يكون مؤسس هذه الأسرة الحاكمة الجديدة هو « حمى جلمة Houme Jilme » الذى حكم فى القرن الحادى عشر (١٠٨٥ — ١٠٩٧ م) وقد اعتنق هذا الحاكم الدين الإسلامى (٤)

وبعد أن اعتنق أهل كانم الإسلام فى القرن الحادى عشر * اكتسبت دولتهم أهمية كبرى ، وبسطت سلطانها على قبائل السودان الشرقى إلى حدود مصر والنوبة، وقد ذكر البكرى الذى عاش فى القرن الحادى عشر الميلادى أن كانم فى عصره امتدت حتى نهر نيجر غربا وأنها كانت تضم بقعة فى بلاد

---

* جاء فى كتاب الاستبصار أن الاسلام دخل بلاد كانم عام ٥٠٠ هـ — ١١١٦ / ١٧ م .

الهوسا ، واستطاعوا أن يفتحوا جزءاً كبيراً من الصحراء فى نهاية القرن الثانى عشر .

وتولى الحكم بعد « حمى جيلمة » ابنه دونمة دبلمة (١٠٩٨ — ١١٥٠ م) وكان أول من حج من ملوك كانم . حج مرتين وفى المرة الثالثة غرق فى المياه المصرية بالقرب من السويس ، وقيل إن سبب موته كان الخوف من أطماعه ونجاح جيوشه فى كثير من الغزوات . وقيل إن دبلمة هــذا دفع حدوده الشرقية إلى شواطىء النيل الوسطى، وكان له الإشراف المطلق على مسالك التجارة فى الشمال إلى فزان . وفى أيامه تأزمت روابط الأسرة الحاكمة وبدأ التفكك فشبت حرب أهلية ، أشعلها طمع أبنــائه ، فانسحب كل منهم إلى إقليمه وانتصر دبلمة عليهم . وخلفه ابنه برى الأول (١١٥٠ — ١١٧٦ م) وكان ضعيف الخلق ، فأودعته أمه السجن لأنه أمر بحبس بعض اللصوص ولم يقطع أيديهم كنص الشرع الإسلامى . وتولى من بعده بكورو (١١٧٦ — ١١٩٣ م) ابن برى وقد أسماه الرحالة بارث ، عبد الله بن بكورو (بكر) وخلفه عبد الجليل (١١٩٣—١٢١٠) ولقب مسلمة لشدة سواده وقد كانت له حظوة وغلبة على القبائل المجاورة ويقول أحد المؤرخين السودانيين أن حكمه دام ١٨ عاما . ويزودنا الإمام احمد بن فرتوه المؤرخ البرنوى بثبت هام لسلاطين كانم وبرنو (٦) ونلاحظ أن التواريخ التى دونها هذا المؤرخ لا تتفق مع تلك التى ذكرها غيره من المؤرخين ، ولذلك أهملنا بعضها .

وتولى الحكم بعد وفاة عبدالجليل سلسلة من السلاطين ، نذكر أسماءهم بترتيبها الذى جاء فى كتاب الإمام أحمد البرنوى :

— السلطان دونمـة بن سلمة وكان ميالا إلى المشاحنات فـكثرت

المنازعات فى أيامه ، وكان يمتلك عدداً كبيراً من الجياد ، وقد حكم البلاد حوالى أربعين سنة .

ــ السلطان قاسم برى بن دونمة مات فى نيجمى (شيمة) عاصمته وحكم عشرين سنة .

ــ السلطان ابراهيم نكلة بن برى ، أعدم ابنه وبرورة رماه رجل فى النهر فغرق ، وتربته فى دسكام وقد حكم عشرين سنة .

ــ السلطان عبد الله بن قضاى وكان من أعدل الحكام ، نشب نزاع بينه وابن أمير كتسنة ومات فى نيجمى بعد حكم استمر ٢٤ سنة .

ــ السلطان سلمة بن عبد الله ، مات فى نديفو بعد حكم أربع سنوات

ــ السلطان كرى الصغير بن عبد الله ، استشهد فى القتال بعد سنة من حكمه .

ــ السلطان كرى الكبير ، حكم عاماً واحداً .

ــ السلطان ادريس بن إبراهيم وقد حكم ٢٥ سنة . وتمتاز أيامه بتغلبه على شعب السو (الساو) وفى أيامه هاجم كانم أعداء جدودهم البلالة (Bulalah) الذين انحدر زعماؤهم من أحدفروع الأسرةالكانمية وكانوا يحكمون البلاد التى حول بحيرة فترى جنوبى كانم ، ثم طرد السلطان داود من حاضرته بخيمى ، وهلك فى قتاله مع الغزاة (١٣٨٦) ولقى المصير نفسه كثيرون من خلفائه .

ــ السلطان داود بن إبراهيم نازعه الأمراء عدة أعوام وكان كما ذكرنا من أوائل سلاطين كانم الذين قاتلوا البلالة .

ــ السلطان عثمان ، مات يقاتل البلالة فى نيجمى .

ــ السلطان عثمان بن إدريس ، مات فى نيجمى يقاتل البلالة ، وقد حفظ لنا القلقشندى رسالة كتبها إلى السلطان برقوق .

ـــ السلطان أبو بكر لجاتو بن داود ، استشهد فى القتال .

ـــ السلطان عمر بن إدريس ، اشتدت فى أيامه معاركه ضد البلالة ، واضطر إلى نقل حاضرته من نيجمى إلى كفا (بين أوج وكجبة) وقد مات فى داجية عام ١٣٩٨ .

ـــ السلطان سعيد ، قتل فى حرب البلالة .

ـــ السلطان قاضى انتو بن إدريس ، مات فى جادور وبعد عام واحد من الحكم .

ـــ السلطان برى عثمان بن إدريس (١٤٠٠ ـــ ١٤٣٢) وقد نشبت الحروب بينه وبين كيجامة محمد بن دلاتو ، الذى تغلب نهائياً على كانم وقضى عليها .

وهكذا رأينا أن البلالة استمروا سنين طويلة ضايقوا فى خلالها بنى سيف ، حتى اضطر هؤلاء إلى الالتجاء إلى الأراضى التى تعمها المستنقعات فى إقليم السو ، وأخذوا يغيرون مقر حكمهم ، باستمرار هاربين من أعدائهم الألداء .

وآلت دولة كانم فى شرقى شاد إلى عدة دويلات صغيرة (٧) تتابع على حكمها ملوك ضعاف الشأن نذكر منهم :

ـــ السلطان عثمان بن داود وقد خلع ثم مات فى كانو .

ـــ السلطان دونمة بن عمر وقد حكم عامين .

ـــ السلطان عبد الله بن عمر وقد ثار عليه كيجامة عبد الله وآخر ونجحا فى خلع السلطان وسلما العرش إلى إبراهيم بن عثمان .

ـــ السلطان إبراهيم بن عثمان .

ـــ السلطان قاضى بن عثمان .

ـ السلطان دونمة بن برى وقد ولى الحكم حوالى أربع سنوات .

ـ السلطان محمد بن متلة .

ـ السلطان عبرمة .

ـ السلطان جاجى (غازى) بن عبرمة ، قتله أحد ملوك البلالة بسيفه .

ـ السلطان عمر بن عبد الله .

ـ السلطان محمد وكان محارباً وشجاعاً .

ـ السلطان على جاجى (غازى) بن دونمة ، وقد تولى الحكم فيما بين (١٤٧٢ ـ ١٥٠٤) ويشبه عصره عهد اسكيا الكبير فى سنغاى وقد شيد عاصمة جديدة فى برنى نجازا وجامو (١٤٧٢) غربى بحيرة تشاد . ومؤرخ هذا العهد الشيخ سفرمة عمر بن عثمان الذى ألف كتاباً عرف بتاريخ سفرمة ، استمد منه الإمام أحمد بن فرتوه معظم معلوماته عن تلك الفترة .

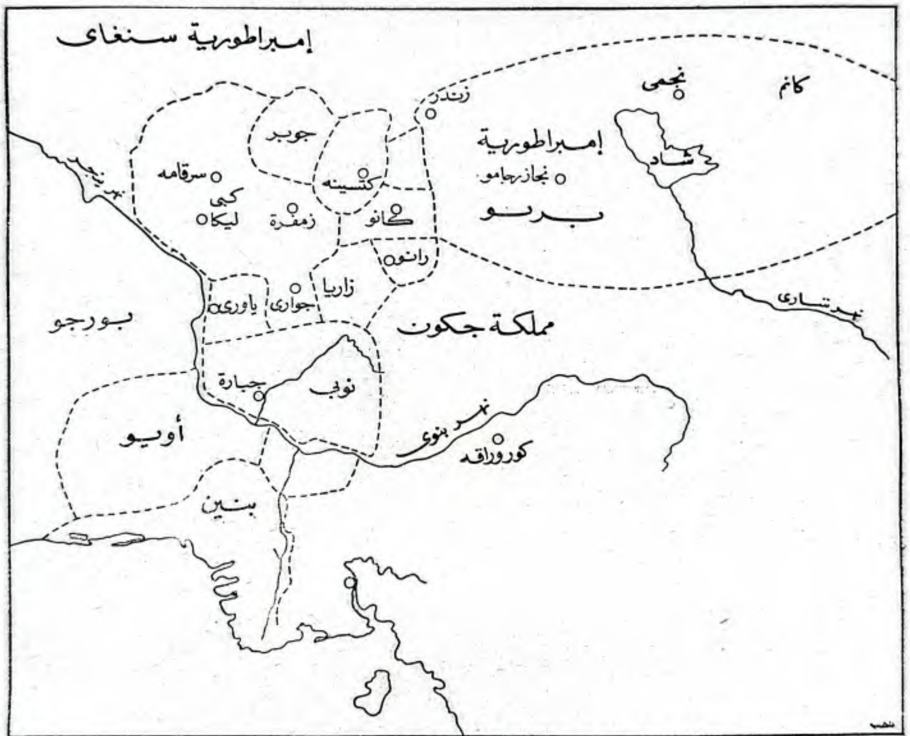
ـ السلطان إدريس كتجرمابى بن على جاجى وقد حج إلى بيت الله وبدأ فى أيامه الهدوء بينه وبين البلالة بعد أن هزمهم وطردهم ، ثم استولى على نيجمى وقد حكم حوالى ٢٣ سنة (١٥٠٤ ـ ١٥٢٦)

ـ السلطان محمد بن إدريس ، اهتم بدعم حكمه، فاتجه إلى شمالى كتسينة وجوبر مارا بنسوكوتو وهزم كنت زعيم جوبر ، ثم عاد إلى برنو ، ولكن أدركه الملك كنت وانتقم منه بانتصاره فى نجورو ولم يؤثر ذلك فى السلطان محمد لأنه استعاد بعد ذلك نجمى . (*) وقد عاش عدة سنوات فى مدينة

---

* نلاحظ اختلافاً كبيراً فى تاريخ ولاية هذا السلطان وتقابلنا (١٥٠٧ـــ١٥٢٩) فى مصادر أخرى .

* كانت نجمى قد فقدت أهميتها وأصبح موقعها غير صالح ، وفضل عليها برنى الجديدة .



إمبراطورية كانم وبرنو وممالك الهوسا

لادة . واشتهر اسمه لحزم قيادته وإدارته الحسنة . وامتدت حدود بلاده إلى كباره ومات فى نجازا وجامو بعد أن نمت شوكة برنو .

ـ السلطان على ابن إدريس ، اشتهر بعدله وتوفى فى زنتم (١٥٤٤— ١٥٤٨) .

ـ السلطان دونمة محمد ، نشب القتال بينه وبين عبد الجليل بن جمسو وفشت المجاعة فى أيامه .

ـ السلطان عبد الله بن دونمة استمرت المجاعة فى أيامه ومات فى كتالة ١٥٦٤ — ١٥٧٠ .

ويمكن القول بأن كانم قد أفل نجمها فى منتصف القرن السادس عشر ومنذ ذلك الحين أصبحت جزءاً من برنو ، وليست برنو جزءاً من كانم . وبدأ نجم برنو يسطع فى الوقت الذى كانت تهوى فيه سنغاى من منزلتها الامبراطورية . *

---

* انظر التعليقات فى نهاية الفصل السابع

الفصل السابع

إمبراطورية برنو
[١٥٠٧ — ١٨١٩]

إمبراطورية برنو

(١٥٠٧ — ١٨١٩)

يعتبر القرن السادس عشر أزهى العصور فى تاريخ برنو ولا سيما أعوام السلطان إدريس علومه ، الذى اعتلى العرش بعد عدة سنوات كانت أمه فى أثنائها وصية عليه . فلما آل إليه حكم البلاد بدأ بتنظيم جيشه وتسليحه بالأسلحة النارية ، ثم اهتم بإخضاع العناصر الثائرة فى بلاده ، وكان السو بالرغم من تبعيتهم لبرنو يزعجون الحكومة بثوراتهم عليها فرأى إدريس أن يغزوهم فى معاقلهم ويشتت شملهم ، ثم يخضع الطوارق فى الشمال الغربى ، وقبائل البربر فى منطقة اير (اهير) بعد أن دأبوا على نهبها ، أضف إلى هذا عدة قبائل وثنية فى الشرق والجنوب عملت على نشر الفوضى بين حين وآخر .

---

* يذكر المؤرخ بالمر فى كتابه عن برنو (بضم أو بفتح الباء) ان برنو لم يكن فى بداية الأمر اسماً على مكان (٨) ولا يزال عرب منطقة تشاد يطلقون على قبائل السكانورى (بشمال نيجيرية) اسم برنو ، ولا شك أن كلمة برنو صيغة أخرى لكلمة بران أو برام وكلاهما صيغة الجمع لكلمة بر ومعناها الرجل او المحارب فى كثير من لغات أهالى الصحراء الكبرى ، ويعتبر تاريخ برنو هو تاريخ الطبقة الحاكمة (الماجومى) ص ٦ .

وكان ابن سعيد الرحالة المغربى (النصف الثانى فى القرن ١٣) أول من أطلق اسم برنو أو برنو على تلك الدولة التى تألفت منها ومن كانم.

ماى إدريس علومه

(١٥٧١ — ١٦٠٣)

ندين كثيراً للإمام المؤرخ أحمد بن فرتوة ، فقد زودنا بكتابين أولهما تاريخ مفصل لمولاه السلطان « ماى » إدريس بن على (علومه) خلال الاثنتى عشرة سنة الأولى من حكمه (١٥٧١ — ١٥٨٣) وثانيهما حروب هذا السلطان مع البلالة الذين دأبوا على غزو مملكته عدة سنوات . (٩)

وقد عثر على مخطوطة الكتاب الأول ، الرحالة الدكتور هنريخ بارث فى كوكاوة عاصمة شيوخ برنو فى كانم حوالى سنة ١٨٥٣ ، وقد أعطاها له الحاج بشير وزير برنو فى ذلك الحين فأرسلها بارث إلى وزارة الخارجية البريطانية ، وانتقلت بطريقة مجهولة إلى ألمانيا، ثم صورت منها نسخ عديدة لخدمة الباحثين ، وكان بارث هو الذى أطلق على المخطوطة المذكورة العنوان التى عرفت به منذ ذلك الحين * .

وتشتمل المخطوطة على أخبار الحملات الحربية التى شنها هذا العاهل من عام ١٥٧١ لما تبوأ عرش بلاده إلى عام ١٥٨٣ ، ما عدا حملاته فى كانم شرقى بحيرة تشاد التى أفرد لها كتابه الثانى ، ومن المحتمل أن يكون المؤرخ الإمام أحمد قد كتبها حوالى ٩٩٠/٩٩١ هـ — ١٥٨٢/٨٣ م ، وتمدنا هذه المخطوطة بصورة حية لما كان عليه المجتمع فى برنو أثناء أزهى عصورها التاريخية فى القرن السادس عشر ، حينما وقع معظم أقطار الشرق العربى تحت السيادة العثمانية .

---

* نشر هذا الكتابان فى اللغة العربية فى مطبعة اميركانو بنيجيريا عام ١٩٣٠ ، انظر أيضا ترجمة الكتاب الأول باللغة الانجليزية التى قام بها المؤرخ البريطانى H. Palmer بعنوان : History of the twelve years of thê reign of Mai Idris Alooma of Bornu (1571–1583) انظر أيضاً له : Sudanese Memoirs Vol II ,III

ويقول الإمام ابن فرتوه فى مقدمة مخطوطته إنه بتأليفه هذا الكتاب يقتدى بالشيخ سفرمة عمر بن عثمان الذى دون تاريخ مولاه المجاهد إدريس بن على بن أحمد بن عثمان بن إدريس (١٠) ويذكر أحمد بن فرتوه أنه من قبيلة محمد بن مان (معن ؟) وانه بدأ مؤلفه يوم الأحد فى الثالث من رجب فى مدينة برنى حاضرة برنو .

ونلاحظ على ما كتبه الإمام انه لم يرتب مضمون كتابه حسب السنين وهو يحدثنا قائلا :

كان أول ما أقدم عليه السلطان تأدية فريضة الحج ، ولما عاد عرج على برنو ، فلما وصل براق (برعق) (Barêk) أمر بنقل جميع محاربيها ليضعف شأن ديارهم وكان الفضل لانتصاره عليهم تسلح جنوده بالبنادق ، ثم انتصر على أهالى امساكه وانتقم منهم وأصلح مادمروه وأرغمهم على أن يتبعوا أصول الدين وأن يجعلوا العدل نبراساً لهم ، وأن يضعوا أمورهم فى ذمة العلماء لا الزعماء وأن يتصفوا بالتسامح والإخاء لا التنافر والعداء .

ثم انتقم مما ارتكبته قبيلة نيجزيم وشعب بجولم وجمزان وغيرهم ضد بلاده ، فحرق قراهم وأخضعهم لسلطانه ثم أرغمهم على استعمال المكاييل والموازين المعترف بها لكى لا يبتزوا أموال الأهالى أو يرهقوهم ، وشجع القوم على زراعة أراضيهم لكى لا تصيبهم المجاعة التى هددت بلادهم عدة سنين .

وتناول المؤرخ بعد ذلك حروب السلطان ضد قبائل سو ، وانتصاره عليهم بفضل مواهبه الحربية ، وما اتصف به من حدة الذكاء والمقدرة فحشد رجاله لمهاجمة قبائل سو بخفاتا ومن أجل ذلك شيد بلدة كبيرة على مقربة من دامسك ونصب عليها قائده شقيمة بيرى حرامة وابنه عجيمه جسمه بن برى ، وكان للمدينة أربعة أبواب جعل على كل باب حارساً كبيراً

وخصها بحامية قوية ، وطلب إلى كل الزعماء الأقوياء أن يمدوه بالرجال ليشيدوا بيوتهم وأن يقيموا فيها مخازن للسلاح واسطبلات للخيول .

وبعد أن تم بناء المدينة أطلق عليها اسم « سنسنة الكبير » وشحنها بالمجاهدين الذين كانوا ينطلقون كل حين لاقتفاء أثر الأعداء ،ويتخلصون منهم ، وشيد السلطان حصونا أخرى فى أنحاء البلاد وشحنها بالجنود وأمر بقطع الأشجار التى كان يختفى وراءها جنود الأعداء ،واشترك فى هذا العمل الكهول والنسوة والمرضى ومعهم طوائف الراقصين والمغنين والطبالين ولما انتهى السلطان من تحصين المواقع الهامة وحشد المجاهدين عرض قواته وهم فى ملابس القتال وكان الفرسان يمتطين الجياد المغطاة بالزرد والدروع .

ثم بدأ القتال فيما بعد واستمر مدة طويلة ، حصـــد فى خلالها القمح واستولى على محصول الأعداء .

كان النصر حليف السلطان وجيشه بقيادة « الوزير كوسو » وظل المجاهدون يطاردون العدو بشدة وأجبروه على الفرار إلى دياره البعيدة .

ثم قسم قواته ثلاثة أقسام ، وخص كل قسم بمهمة يضطلع بها ، كان من أهمها قطع الأشجار لمساعدة رجاله على رؤية المتسللين من الأعداء ، ثم أمر قادته بالسير إلى زميام ونجزار وجمكة حيث احتشد فيها الأعداء ، وعادوا يحملون ألوية النصر ، ثم رجع السلطان إلى كبولو وأدى فريضة الجمعة .

وفى المساء أمر جنوده بالسير ليلا نحو الشرق للهجوم على بلدة مموكة فوصلوا إليها فى الصباح ، وكان السلطان فى طليعتهم ، وفى الفجر امتطى جواده وهاجم مموكة فخربها ثم اتجه نحو الشمال إلى دمسكة ،وهكذا انتصرت حملاته ضد سو بخفاته وطهر برنو منهم .

ونقرأ فى المخطوطة أخبار حملة السلطان ضد جدامة والهجوم عليها من

جوانبها وانتصاره على رجالها . ثم نطالع أخبار هجومه على كانو وسيره نحو سهول سنسنة فانتقم من الاعداء وقطع عليهم خط انسحابهم وأحاط بهم من كل جانب وأبادهم فلم يستطيعوا العودة إلى برنو .

وبعد أن أدى فريضة الحج استمد من العثمانيين حاجته من السلاح النارى، وقدأفلحت سياسته الحربية كما مر بنا فقد كان جنديا موهوبا مدركا أسباب المنعة، فنهض ببلاده ودعم علاقاته بالدول الشمالية والشرقية. فعل كل هذا بالرغم من الأعوام الكثيرة التى قضاها فى مقاتلة أعدائه .

ومع ذلك فقد لقى صعوبات كثيرة فى السيطرة على طرق الصحراء حتى تم له احتلال واحة كوار فى طريق فزان وكانت غنية بمناجم الملح والنطرون .

وكان إدريس ملكا شهماً ، أنجد أبناء عمومته شعب سنغاى وهم فى محنتهم أثناء دفاعهم عن بلادهم ضد الغزو المغربى، ويؤثر عنه أنه هدم جميع المساجد فى برنى وكانت مشيدة من القش وبناها باللبن ، كما أنه دعم الروح الإسلامية فى أنحاء بلاده .

خلفاء إدريس علومه

أخذ الاضمحلال يدب فى أوصال برنو فى القرن السابع عشر، فقد كان عصر إدريس علومه شبيها بالصحوة التى توقظ الشعوب من نومها ،ولم يكن لخلفائه شأن هام ما خلا ماى على بن الحاج عمر ، رابع السلاطين بعد إدريس .

خلف إدريس إبنه محمد ، وكانت أيامه هادئة نسبيا ، ومات بعد أن حكم ١٦ سنة ونصف ، ثم تبعه إبراهيم فالسلطان الحاج عمر بن فسام وكان

هؤلاء الثلاثة أبناء السلطان إدريس ، وقد اتصفت أيام حكمهم بالأمن والهدوء .

ثم اعتلى العرش السلطان على بن الحاج عمر ، وكان محاربا قديرا أدى فريضة الحج ثلاث مرات ،ثم قاتل سلطان أغاديس قتالا شديدا .

وحاصره الطوارق والكوارارافة فى عاصمته ، ولكنه نجح فى بث الفرقة بين أعدائه حتى طرد الطوارق إلى الصحراء كما طرد الآخرين ، وقد حكم بلاده أربعين سنة (١٦٤٥ — ١٦٨٤) .

وجاء بعده خلفاؤه إدريس بن على ، ودونمة بن على والحاج حمدون بن دونمة، وقد عرف هذا بالشغف بالمطالعة ومات عام ١٧٣٨ .

وتولى بعده السلطان دونمة بن الحاج حمدون وقد فشت المجاعة فى زمانه ثم السلطان على بن الحاج دونمة وكان عادلا محبوبا بين الناس ، وكان يقرب العلماء اليه وتولى بعده أحمد بن على فشارك العلماء فى دراساتهم وكان ديّنا يخشى الله ولكنه غفل عن المغيرين على بلاده فتركهم يفعلون ما يبتغونه ، كما أنه ترك الأهالى نهباً لقطاع الطرق ، فأهملوا فلاحة الأرض وفتكت بهم المجاعة عدة سنوات .

وفى بداية القرن التاسع عشر ،عجزت برنو عن صد أعدائها الذين شنوا الغارات عليها، وكان الأعداء الجدد شعب الفلبه(الفولة — الفلانى) وقد وقعت غارة هؤلاء فى أيام السلطان المذكور أحمد بن على ، فتمكن الفولة من إخضاع أقاليم الهوسا التابعة لبرنو وسنعود إلى الكلام عن تلك الأحداث فى الصفحات التالية .

الهوسا وأمارات النيجر

سننتقل إلى الكلام عن الحوادث التي مرت ببلاد الهوسا لربط الموضوع تاريخياً ، وبالإمارات التي كانت تخضع لبرنو فى حوض النيجر .

استمرت الفوضى التى انتشرت فى أعقاب الاحتلال المغربى لبقاع النيجر حتى القرن التاسع عشر ، وانتقل فى ذلك الحين مركز الثقل السياسى إلى ناحية الشرق حيث تقع بلاد الهوسا ، ذلك الإسم الذى أطلقه الهوساوة على أوطانهم التى انتشرت فيها قبائلهم. فمن هم هؤلاء ؟

الهوساوة قوم من السود ، تقع بلادهم فى البقعة المحصورة بين الصحراء الكبرى فى الشمال وبرنو فى الشرق وثنية النيجر فى الغرب والربوع الساحلية لخليج غانة وتوجو . داهومى — بنين — الكمرون فى الجنوب . ويصل تعدادهم حوالى ١٥,٠٠٠,٠٠٠ نسمة . وهم يكسبون معاشهم من الزراعة والتجارة والصناعة وتخترق قوافلهم الصحراء الكبرى ثلاثة أشهر من كل عام لتزود طرابلس وغيرها بمنتجات السودان . والإسلام دين الهوسا اليوم وقد دخل بلادهم فى ختام القرن الرابع عشر وأوائل الخامس عشر بوساطة تجار النيجر الأول ثم أحرز تقدماً كبيراً فى القرن التاسع عشر عقب غزو الفولة لبلادهم * .

ويحيط الشك أصول الهوسا ، وكان ابن بطوطة أول من ذكر اسم مملكة من ممالك الهوسا وهى غوبر ** وكان الهوسا وثنيين عند زيارة هذا

---

* دائرة المعارف الاسلامية : مادة حوصة.

** أقصى مواطن الهوسا فى الشمال ، نشأ فيهم الزعيم عثمان بن فوديو قائد ثورة الفولة الكبرى ، وكان الجوبريون فى وقت ما أصحاب الكلمة فى واحة اير (اسبن) .

الرحالة لبلاد السودان عام ١٣٥٣م . ولعل دعوتهم إلى الإسلام قد قويت بفضل تعاليم المرابط التواتى محمد بن عبد القادر المغيلى (١٤٩٣) . ولم يتم إسلامهم فقد ارتد أهل غوبر عن الإسلام فى القرن الثامن عشر (١١)

وكانت ديارهم مسرحاً للمعارك التى شنت طويلا بين كبى وبرنو وقد سعى كلاهما للسيادة على هذا الجزء الهام فى السودان الغربى .

وكانت دويلات الهوسا فى غوبر وكانو ورانو وكتسينة وزرية مستقلة بعضها عن بعض إلى بداية القرن التاسع عشر ، ثم انضووا تحت لواء الإمبراطورية المترامية الأطراف التى وضع قواعدها عام ١٨٠٢ المرابط الفولى عثمان دان فوديو وفتحت ديار الهوسا فى خمسة عشر عاماً ، فخلع سلاطينهم الوطنيين ونصب مكانهم عمالا يخضعون لسلطان سكوتو (١٢) الحاضرة التى شيدها عثمان واندمج القاهرون فى المقهورين ، كما انصهر الفولة فى الهوسا إلى حد كبير ففقدوا بهذا الاتصال لغتهم . وكان من نتائج فتح الفولة البلاد أن حطم الهوسا حدودهم الأصلية من جميع الجهات، وأدخلوا لغتهم ودينهم الإسلامى إلى الربوع المجاورة مثل توجولاند وأدموه وبلاد كمرون .

* * *

كانت الأقاليم التى تعيش فيها قبائل الهوسا إلى أوائل القرن التاسع عشر خاضعة اسمياً لبرنو وكان يتألف منها عدة دويلات من أهمها كانو وكتسينة(كشينة)وزارية وغوبروزنفر وكبى.. كان يخيم على بعضها الهدوء والسكينة وفى بعض الأحيان تعلن إحداها العصيان ضد سلطان برنو ولذلك كان إيفاد الحملات العسكرية لإخمادها أمراً يكاد يكون مستمراً .

أحوال الهوسا فى أوائل القرن التاسع عشر :

احتفظ الجوبراوة (سكان جوبر) بسيادتهم فى الشمال الغربى كما كان لبرنو السيادة على الشمال الشرقى وكانو ومملكة جكون ، وبسطت كلمتها على شعبها الكوارافة . أما نوبى فى الجنوب فظلت سيدة نفسها بالرغم من ضعفها بسبب المعارك الداخلية . أما كتسينة وزارية فقد كانتا اسمياً مستقلتين تحت حماية برنو ، هكذا كان بالاختصار الموقف السياسى لدول الهوسا حينما تدفقت جحافل الفولة عليها بزعامة عثمان دان فوديو (المعروف بالفودى) .

وفى الربع الأخير من القرن التاسع عشر حاول الأوربيون أن يخضعوا بلاد الهوسا إليهم ، فاختصم الإنجليز والفرنسيون على النفاذ إلى بلاد الهوسا كما اختصموا فى الوقت نفسه على بلاد النيجر الأدنى ، وكان الإنجليز أكثر توفيقاً فقد دخلت بلاد الهوسا بأسرها تحت السيادة البريطانية بناء على المعاهدة الإنجليزية الفرنسية المبرمة فى أغسطس ١٨٩٠ والمكملة باتفاقيتى ١٢ يوليو ١٨٩٣ و١٤ يونيو ١٨٩٨ والاتفاق الإنجليزى الألمانى المعقود فى ١٥ نوفمبر ١٨٩٣ .

كانو

قلنا إن كلمة هوسا تطلق على اللغة والأهالى التى يتكلمونها والبلاد التى تشملهم . وغالبية الهوسا فى الوقت الحالى يعيشون فى المديريات الشمالية من نيجيرية وهى سكوتو وكانو وزارية وكتسينة وفى قسم من باوكى (بوتشى) والمديريات المجاورة وتمتد بعض قبائلهم إلى جمهورية مالى (السودان الفرنسى سابقاً).

وسنتناول الحديث الآن عن كانو أولى إمارات الهوسا ونبين تاريخها

منذ دخلها الإسلام ، والمعروف أن باجودة(٩٩٩ — ١٠٦٣) أحد أحفاد بايزيدا كان أول ملوكها وأعقبه ثمـانية وأربعون من الملوك ، وكانت كانو إذ ذاك تشغل مســـاحة صغيرة وقد شيدت أسوارها القديمة من اللبن حوالى القرن الثانى عشر أثناء حكم ملوكها الثالث والرابع والخامس وكانت الكلمة النافذة فى أزمانهم لصناع الحديد ، وكان من التقاليد الدينية إلتهام جثمان الموتى من الملوك والزعماء للحصول على بعض خصال المتوفى الطيبة(١٣)

وفى الزمن الذى دخل فيـه الإسلام برنو حوالى القرن العاشر بقيت كانو على وثنيتها واستمرت كذلك ثلاثة قرون أخرى على الأقل ، وكان الإسلام قد دخـل إلى بلاد مالى ووادى النيجر قبل ذلك بوقت طويل ، أما دولة غوبر فبفضل موقعها ، اسـتطاعت مقاومة تسرب الإسلام من ناحية الشرق ، وصمد وثنيو برنو مقاومين انتشار الدين الحنيف إلى الغرب ولذلك بقيت كانو ودول الهوسا الأخرى على وثنيتها إلى أن نهضت بعض قبائل الونقارة الذين ربما كانوا من الفولة الوافدين من مالى وجلبوا معهم عقيدتهم الجديدة فاعتنقها أهل كانو فى سلام ، ومع ذلك فقد كانوا يرتدون عنها فى بعض الظروف ويعودون إلى الوثنية . ويقال إن الزعيم الذى وصل فى زمنه الإسلام إلى كانو كان اسمه « ياجى » ومن ثم شيدت المساجد وازداد عدد الذين يعتنقون الإســـلام وفى حماستهم العقيدية غزا الهوسا الجنوب وحملوا السلاح إلى نهرى بنو ونيجر . وكان هذا النجاح قصير الأجل فقد أبى المقهورون أن يدفعوا الجزية لهم ، وارتدوا إلى دين أجدادهم ، وكان ذلك فى أوائل القرن الخامس عشر .

غزا ياجى بعد ذلك زاريا ونجح وقتل زعيمها وتفرق أتباعه ، وكان جنود الهوســـا مسلحين بالدروع الصليبية والسيوف الأوربية التى كانت للصليبيين وانتقلت إليهم عن طريق مصر والسودان ، وفى عهد خلفاء هذا الملك وفد أحد ملوك برنو وبعض أتباعه هاربين والتجأوا إلى

كانو خوفاً على حياتهم على أثر نشوب الحرب الأهلية فى بلادهم ، فرحب بهم الملك داود . وخصهم ببعض الدور خارج حاضرته لاجتناب المخاطر .

وسعى حكام كانو الطامعين إلى توسيع رقعتهم ، فشنوا الحرب ضد زارية وانتهت بعد اتفاق بين الجانبين ، واتجهوا ثانية نحو الجنوب ولما انتصروا على خصومهم عادوا ومعهم مئات الأسرى من العبيد . فشيدوا عدداً كبيراً من المدن ، وفى ذلك العصر عرف الهوسا الجمال فاستخدموها فى قوافلهم عبر الصحراء وبدأت تزدهر تجارتهم .

وفى عهد يعقوب الملك التاسع (١٤٥٢ — ١٤٦٣) نشطت حركة هجرة كبيرة من ونقارة قوامها قبائل من الفولة الآتين من مالى، وكانت تلك الدولة تسير نحو نهايتها واضطر هؤلاء أمام اضطهاد سنغاى أن يتركوا بلادهم إلى الشرق قاصدين برنو، ولكن اضطر عدد كبير منهم إلى البقاء فى بلاد الهوسا ، جاءوا إليها يحملون متاعهم النفيس وكتبهم . كانت الهوسا تتمتع حينذاك بالسكينة والطمأنينة فاستقبلتهم ورحبت بهم ، كما جاءت إليها طوائف شتى من عرب الشمال ، كما لجأ كثير من رجال قبائل الصحراء إلى جوبر ، وانتعشت تجارة الملح ونما التبادل التجـــارى بين كانو وديار الجنوب ،وقصد كانو وكتسينه كبار الزائرين ، كما ازدهرت العلوم الدينية فى مساجدها .

محمد رنفه .

وكان من أشهر ملوك كانو محمد رنفه الذى حكم البلاد حوالى ثلاثين سنة (١٤٦٣ — ١٤٩٩) وقد أصبحت البلاد فى عهده آمنة مطمئنة . قرب إليه العلماء ووفدت إلى البلاد البعوث من مصر ، واستقدم رجال الدين ليستعين بهم على إرشاد الناس وهدايتهم ، وشيد المساجد وأزال الأحراش وأقام الدور مكانها وأدخلت تقاليد الحياة الإسلامية واستخدم الخصيان

فى منازل الأغنياء ، وتمسك المسلمون بالدين بكل إخلاص ، وشيد رنفه لنفسه قصراً جديداً بالقرب من دله ، وقسم كانو إلى مناطق رحبة للإشراف على الإدارة ، ثم شيد حول حاضرته سوراً منيعاً يضم سبعة أبواب .

وكانت كتسينة فى الشمال قد دخلها الإسلام وبدأت تتطور أحوالها فى طريق القوة ، ونشط التنافس بين البلدين كانو وكتسينة ، ولم يدم السلام طويلا فقد نشب القتال بينهما — واستمر مائة عام سالت الدماء فيها بما فقدته كلتاهما من المحاربين وانحطت مرافق التجارة والزراعة واستطاعت كانو أخيراً وبصعوبة أن تنتزع النصر من كتسينة ، لكنها لم تصمد ضد برنو .

وكان ممن حكموا كانو — محمد كيزوكى (١٥٠٩ — ١٥٦٥) وقد مرت البلاد فى عهده بظروف بعضها حسن وبعضها سيئ ، غزا السنغاى بلاده بقيادة الملك إسكيا الكبير وسقطت كانو فى قبضته بعد حصار طويل ، كما سقطت زارية وكتسينة ، وبعد إعادة الصفاء بين البلدين تزوج كيزوكى من إبنة أسكيا ورضى بدفع الجزية . ولم تطل أيام السكينة حتى نهض كيزوكى لصد غزوة برنو عن بلاده وانتصر عليها ثم استؤنفت الحرب من جديد بين كانو وكتسينة وكان النصر متبادلا من الجانبين .

وفى أيام الملك محمد زكى (١٥٨٢ — ١٦١٨) بدأت غارات الكوارارافة بعد غزوة كانته ، قدم هؤلاء الكوارارافة من وادى بنوى وكان هجومهم شديداً وقاسياً مما جعل أهل كانو يفرون على وجوههم إلى دورا للالتجاء فيها ، ثم عادوا ثانية فيما بين (١٦٠٠ — ١٧٠٠) وغزوا كانو مرتين حينما أرادت أن تنهض وتقف على قدميها ، وفى خلال تلك الفترة نشبت المجاعة فقضت على ما تبقى من قوة الشعب ، فلم تستطع كانو أن تستعيد

استقلالها ، فحيناً كانت تقدم الجزية الى الكوارارفة وحيناً آخر تدفعها إلى برنو وهكذا نضبت ينابيع الثروة أول بأول .

وفى أوائل القرن الثامن عشر (١٧٠٠ — ١٧٧٠) نهضت إمارتا زنفرة وجوبر تشنان الحرب ضد كانو ، ثم هزمت جوبر زنفرة وتغلبت وحدها على كانو ، وكانت تلك المعـــارك فى الواقع بين الزعماء وأتباعهم فقط فلم تتأثر شعوبهما ، ثم استعادت كانو مكانتها التجارية بعد أن انتزعتها كتسينة زمناً ما .

امبراطورية الفولة (١٤)

برنو فى مهب الريح

وصل الفولة (وهم الفلانى أو الفلبة) إلى غربى بلاد الهوسا (نيجيرية اليوم) منذ القرن الثالث عشر، وكانوا طائفتين، الأولى قبائل البقارة، والثانية الحضريون سكان المدن. وكان البقارة رعاة رحل من الوثنيين حافظوا على نقاء دمائهم، أما سكان المدن فقد اعتنقوا الإسلام واختلطوا بالقبائل الأخرى بالمصاهرة. وكان تسرب الفولة إلى الهوسا هادئا لم يصاحبه النضال، وسرعان ما تضخم عددهم عقب قدوم هجرات أخرى من بنى شعبهم. وأتيح للفولة أن يتحالفوا مع مواطنيهم الذين كانوا قد استقروا منذ القرن السادس عشر فى عدة نواح فى برنو، وتجمعوا فى جوبيا وغزوا البلاد، وقد حاول احمد سلطان برنو أن يصدهم، ولكن تشتت جيشه بالقرب من قصر اكمو، ونجا السلطان بصعوبة وفر من أحد أبواب المدينة، حينما كان أعداؤه يدخلونها من باب آخر، ثم نقل السلطان معسكره إلى كرنوة عام ١٨٠٨، وخرب الفولة قصر اكمو بعد ما صارت لهم الكلمة.

رأينا الفولة قد أصبحوا عنصرا هاما يؤلف غالبية أهل البـــلاد فى أخـــريات القرن الثامن عشر؛ ولهم تأثير فكرى ملموس جعلهم يشغلون أكثر المناصب الكبرى، ومع ذلك فقد كانوا يحتقرون الرعاة الرحل، وكان الفولة سكان المدن فى الواقع أرستقراطية البلاد؛ أما زملاؤهم الآخرون فكانوا ينتجون الزبدة لفلاحى الهوسا ويقدمون السماد لأراضيهم.

ولما تأزم الموقف، هرب السلطان احمد إلى كانم مستنجداً بأحد

زعمائها الأقوياء وإسمه الحاج محمد الأمين الكانمى * فأعاد أحمد إلى عرشه وطرد الفولة ، ثم مات السلطان (١٨١٠) وتولى بعده دوغه ابنه ، وفى أيامه عاد الفولة ثانية إلى الحرب .

عثمان دان فوديو

وكان من أبرز عشائر الفولة الحضريين — عشيرة الطوروبو (الطرونكة)أو شعب طورو ، وقد أتوا فى الأصل من إقليم حوض السنغال جاءوا فى هجرات متتالية إلى الشرق ، تاركين وراءهم محلات أقاموها على النيجر الأعلى والأوسط حتى وصلوا إلى غوبر ثم أنشأوا وطناً كبيراً لهم وانفصل فرع من الطوروبو واتجه إلى أدموا فى حوض نهر بنوى .

وينسب عثمان دان فوديو الزعيم الوطنى لقبائل الفولة فى بلاد الهوسا إلى هؤلاء الطرونكة الذين استوطنوا جوبر بزعامة فوديو الكبير جد عثمان . ولد فى عام ١٧٥٤ فى قرية طفل وعنى بتربيته الدينية وتفقه على مذهب مالك وقد كان شديد التحمس للدفاع عن الدين وإرشاد الناس إلى حقائقه ثم رأى أن يكرس حياته للعلم والوعظ ، وسرعان ما التف حوله التلاميذ والأتباع لما رأوا فيه من التقوى وحبه للإصلاح وقد ساعدته شخصيته الفياضة بحب الخير على التفاف الكثيرين حوله ، ثم هاله ما رآه من تحول مسلمى غوبر إلى الوثنية بعد ما اعتنق بعضهم الإسلام بضغط وبتأثير نفاته ملك غوبر الذى حرم على أفراد شعبه اعتناق الإسلام والتمسك بوثنيتهم ، الأمر الذى أهاج عثمان وجعله يفكر فى مقاومة الملك بالوعظ والإرشاد دون أن يلتجىء إلى القوة . ولما تولى ينفه الحكم بعد موت أبيه نفاته ، وكان من تلاميذ الشيخ عثمان ، أدرك تأثيره فى البلاد ورأى أن يتخلص منه

* سنتابع الكلام عن محمد الكانمى فيما بعد .

بقتله ، ولما فشلت محاولته زادت حظوة الشيخ بين الشعب وكسب عطف جميع الناس وأصبحوا ينظرون إليه بطلا وزعيما ، فلم يجد ينفه أمامه إلا الالتجاء إلى القوة . فسار إلى طفل بلدة الشيخ على رأس قوة من الجند ، فاضطر عثمان إلى الهرب .. كان ذلك يوم ٢١ فبراير ١٨٠٤ * ويعتبر هذا التاريخ يوماً دينياً ووطنياً ، يطلق عليه فى شمالى نيجيرية « يوم الهجرة » *.

فر الشيخ إلى جودو، وسرعان ما التف حوله مريدوه وكثير من الأنصار وأدرك عثمان أنه قد أصبح قائد طليعة من المجاهدين المقاتلين الذين تمتلىء صدورهم بالحماسة الدينية ، فألف منهم جيشاً يستعين به على إصلاح أحوال المسلمين ونشر الإسلام بين الوثنيين ، ولم تمض أشهر قلائل حتى هزم المسلمون جيش ينفه عند شواطىء « تبكين كوتو » وأقسم الجميع أن يجاهدوا فى سبيل نشر الدعوة الإسلامية ، ثم نادوا زعيمهم بلقب أمير المؤمنين أو سلطان المسلمين ،وما زال يطلق هذا اللقب على سلطـان سكوتو . وقد أجاب عثمان على أتباعه قائلا « لا يظن أحد منكم أننى قبلت هذا الواجب لأكون أعظم من أحدكم أو لـكى أعلو على الآخرين »

كان لهزيمة ملك غوبر دوياً عنيفاً عند ملوك كتسينه وكانو وزازو ودورة وأدر ، فسرعان ما حولوا نقمتهم ضد أتباع الشيخ فى بلادهم . فثار رجال الفولة فى تلك البلاد بعدما وحدت تلك المحن صفوفهم ضد طغيان الحكام وشبت الثورة فى كل مكان ، ومع ذلك فلم يكن جميع الفولة قد انضموا تحت راية عثمان . والجدير بالذكر أن بعض رجال الهوسا التفوا حوله .

بدأ الزعيم يختار معاونيه من خيرة الأنصار ، وكان يمنح كل واحد منهم راية بعد أن يباركها ، ويدعو لهم أن ينقذ الله العالم على أيديهم من الضالين ،

---

* يذكر مرجع آخر عام ١٨٠٦ ونرجح عام ١٨٠٤

وسرعان ماضموا تحت راياتهم كتسينة وكانو وزاريه وهاديه وأدموا وجومبى وكتاجم ونوبه وأيللورين ودورة وكازورى وبوشىومساوعلاوة على قسم من برنو .

وبالرغم من فوز الشيخ على الجبراوة (شعب جوبر) فانه لم يفلح فى الاستيلاء على حاضرتهم الكلوة وهزم فيما بعد فى تزنتزوة . ومع ذلك فقد تدفقت إلى صفوفه جحافل الهوساوة فزاد عدد أنصاره ثم سقطت زاريه فى أيديهم (١٨٠٤) وتبعتها كتسينة بعد حصار طويل (١٨٠٥) ، واصطدم جيش الشيخ بقواته فتغلب عليهم وسقطت مدينة كانو دون معارضة . وفى العام نفسه هزمت قوات عثمان فى ألوسه بالقرب من جواند ، وكان الطوارق قد انضموا إلى خصومه ، فتأزم الموقف .

وفى عام ١٨٠٦ حاول الفولة أن يدمروا قوة الجبراوة لكنهم فشلوا فى الاستيلاء على حاضرتهم ، ثم أعاد بللو بن الشيخ عثمان الكرة عليهم فانتصر واستولى على عاصمتهم ، وقتل ينفه . وبسقوط الكلوة زالت مقاومة غوبر نهائياً وقويت سطوة الفولة على أثر تحالف سلطان واحة (اير) معهم . وأدرك الهوساوة أن لافائدة من المقاومة .

أدرك الشيخ أنه لن يكون آمناً ، طالما ظلت برنو قوية تهدد حدوده الشرقية وتقدم العون لبعض زعماء الهوساوة . ولذلك وجه عنايته لمحاربة البرنويين وهزيمتهم ورأى هؤلاء أن يستمدوا العون من زعيم دينى جديد برز فى كانم ، وهو محمد الأمين الكانمى : فلبى نداء برنو على رأس رجاله وفاز على الفولة وطردهم إلى الغرب (إقليم الهوسا) فأعادوا الكرة ولكن تمكن الأمين من ردهم على أعقابهم . ومع ذلك فقد استمر الفولة يغيرون بين حين وآخر على برنو واحتلوا جزءا فى غربيها ولكنهم لم يحتلوا البلاد بأسرها .

اختار الشيخ عثمان مدينة سكوتو حاضرة دولته وقد كانت متواضعة إذ ذاك ، ويعزى إلى بللو ابنه بناء المدينة (١٨٠٩)

ويمكن القول إنه فى عام ١٨١٠ كان جهاد عثمان دان فوديو لإعلاء شأن الإسلام فى السودان الغربى قد انتهى ، وأخضع معظم بلاد الهوسا ، ويلاحظ أن هذا الجهاد الكبير لم يخترق منطقة الغابات الكثيفة ، وظل سكانها اليوروبة فى مأمن من غزوات الشيخ ، كما حمى نهر بنوى والمناطق الوعرة سكانها من أذى الفولة ، وقد وصل هؤلاء إلى يولة فى شرق نيجرية الحالية ولم يخضعوا برنو بالرغم من غاراتهم المتعاقبة . وفى الغرب أيضاً صمد أهالى كبى وقاوموا بشجاعة اعتداء الفولة بالرغم من قربهم من معاقل الفولة الحصينة .

اعتقد عثمان أنه قد أدى رسالته المقدسة فقنع بما أحرزه من النجاح ووجه عنايته إلى تنظيم الإدارة فى أنحاء إمبراطورية الفولة التى قامت على الكفاح ، وقسم بلاده إلى قسمين كبيرين ، أحدهما فى الشرق وجعله تحت حكم ابنه بللو وجعل القسم الغربى تحت حكم شقيقه عبد الله ويفصلهما عن بعضهما بلاد الكبوة . وقنع هو بالزعامة الروحية متخذا مدينة سكوتو مركز الدعوة الكبرى بعد أن مكث بعض الوقت فى سيفوة ، وأخذ يجد فى التأليف الدينى والاجتماعى . ونذكر من كتبه :

أصول الولاية — إحياء السنة — بيان البدع — ترغيب العباد — التصوف — تمييز المسلمين — الجهاد — سوق الصادقين — شفاء الغليل — علوم المعاملة — عمد العلماء — عمدة البيان — العقل الأول — نصائح الأمة — نور الألباب — الهجرة .

وكان شقيق عثمان ؛ عبد الله بن فوديا محدثاً قوى الحجة ، ألف عدة كتب هامة ، نذكر منها : ألفية الأصول ، بحر المحيط فى النحو — تزيين الورقات — تفسير ضياء التأويل — سبيل النجاة — ضياء السياسة — مفتاح التفسير ....إلخ (١٥)

* * *

ولما توفى الشيخ عثمان عام ١٨١٧ وهو فى الثالثة والسبعين من عمره ، كان كما رأيناه قد عمل طوال مدة حكمه وهى عشرون سنة ، فى القضاء على الثورات الكثيرة ، كان إدارياً حازماً ، واسع الحيلة ويعتبر من أقدر سلاطين سكوتو ، جمع حوله كثيراً من أهل العلم والدين والأدب ، وكان هو نفسه كثير الاشتغال بالتأليف ، اعتاد كلما ألف شيئاً أخرجه إلى الناس فيقرأه لهم ثم يشتغل بتأليف آخر . وقد عرف عنه أنه خمس همزية البوصيرى ، وقصيدة بانت سعاد ؛ والبردية للبوصيرى (١٦) وقد تأثر بهذا السلطان المجاهد الحاج عمر التكرورى الذى استطاع أن يقيم لنفسه دولة كبيرة عند أعالى النيجر فى منتصف القرن التاسع عشر وكان قد حج وتزوج بنت السلطان بلو ، وجمعته بتلك الأسرة أواصر المودة والتفاهم

برنو ومحمد الكانمى

يرجع إلى هذا الزعيم إنقاذ برنو من دولة الفولة الفتية ، فحافظت على استقلالها عدة سنوات أخرى ، ثم حاول السلطان دونمة أن يستأنف القتال وحده ضد الفولة ولكنه هزم واضطر إلى الفرار من مدينة إلى أخرى ؛ حتى استعان بمحمد الكانمى وأعطاه مقابل ذلك نصف الأراضى التى استعادها من الأعداء ؛ وأصبح لبرنو منذ ذلك الوقت حاكمان هما محمد الأمين صاحب النفوذ الفعلى ؛ وقد لقب نفسه بلقب الشيخ وعاش فى نكرنو ؛ وأحمد

الذى كان يحكم بالاسم وكان مقره بربروا . وحاول أحمد أن يتحرر من وصية الشيخ عليه ، فهجر بربروا واستقر فى الشمال الغربى من بحيرة تشاد ولكنه عجز عن استعادة استقلاله ، واستطاع محمد فى آخر الأمر أن يعيده بالقوة إلى بربروا ثم خلعه عن عرشه ونصب مكانه أحد أعمامه ، إلا أن هذا السلطان الجديد أبى هو أيضاً أن يخضع لأهواء الشيخ ، فعمل على إنشاء حاضرة له فى « برنى الجديد » فجرده محمد من سلطانه وأعاد العرش إلى دونمة الذى ظل محتفظاً بلقب السلطان إلى أن توفى عام ١٨١٨

وقد عمد محمد الكانمى فى الوقت نفسه إلى توكيد استقلاله عن الأسرة القديمة فصمم على أن يشيد حاضرة له ، وبدأ فى إنشاء كوكة عام ١٨١٤ ، ثم حاول أن يعيد إلى برنو سيادتها الأولى فاستعاد من الفولة جزءاً من الأقاليم التى استولوا عليها ، وأنفذ حملاته على القبائل التى تعيش فى الشرق وتحالف مع عبد الكريم سابون سلطان واداى ، وأعلن الحرب على عثمان بركمنده سلطان بجرمى وأغار سابون على بجرمى ، ثم عقد اتفاقا أصبحت تلك البلاد بمقتضاه تابعة له ، وأراد محمد أن يعوض ما فقده بهذا الاتفاق فتحالف مع شيخ فزان عام ١٨١٨ وأغار على الجزء الشمالى من بجرمى وتقدم حتى مسنييه ، ولكنه عجز عن أن ينتصر على عدوه انتصاراً حاسماً لتحصنه وراء نهر شارى ، واستمر القتال بينهما إلى عام ١٨٢٤ . ثم انتصر البرنويون انتصاراً حاسماً عند نفالة ، فاطمأن محمد من هذه الناحية ووجه عنايته إلى الغرب واستعاد إقليم بوتشى ، ولكنه اضطر إلى مهادنة الفولة عام ١٨٢٦ بعد أن لحقت به الهزيمة على يد السلطان بلو بن عثمان فوديو ، ثم استقر فى كوكاوة عاصمته الجديدة ، ومات عام ١٨٣٥ فتولى الزعامة بعده ابنه الشيخ عمر .

* * *

كانت مدة حكم بلو مليئة بالمتاعب والحروب المستمرة ضد القبائل التى لم ترغب فى الاعتراف بحكم الفولة ، ثم قضى أخيراً على منافسيه فى القسم

الشرقى من دولته وكانت معركته الكبرى « جواكوكى » خاتمة حروبه عام ١٨٣٥ وقد استطاع أن يدعم ملكه واستمر حملة الرايات على تحالفهم معه ، كاتسينةوكانو وزارية وهاديجه وادماوه وجومبى وكتاجم ونوبى وأيللورين ودورة وبوجى .

واستطاع بلو رغم حروبه الكثيرة أن يكرس بعض الوقت للتأليف فى التاريخ وتقويم البلدان والشريعة وكتابة الشعر ، زاره الملازم كلابرتون فى ورنو بلدته الجديدة فى عامى ١٨٢٤ و١٨٢٦ ، وقد أجاد الكلام عنه ومات بلو عام ١٨٣٨ ودفن فى ورنو التى نافست سكوتو حينذاك .

رفض السلطان بلو أن يوصى على من يخلفه على حكم البلاد ، قائلا إنه يترك الأمر لمشيئة الله وطلب إلى وزيره الأكبر أن يتعـاون بإخلاص مع من سيؤول الحكم اليه .

خلفه أخوه عتيق أبو بكر واتخذ لقب أمير المؤمنين وسلطان المسلمين. كان ذا مسلماً تقياً ، لكنه كان خاملا ضيق الأفق،حرم الموسيقى والصيد وقد حكم البلاد خمس سنوات وخلفه علوه بابا بن بلو بعدما اختاره شيوخ الرايات واستطاع أن يدبر أمور بلاده (بين ١٨٤٢و١٨٥٩ بحزم . وتعتبر أيامه من أزهى عصور سكوتو، قضى فى خلالها على كثير من الفتن ونصب كثيراً من الأمراء لمعاونته فى إدارة شئون الدولة .

وتبادل الحكم بعده أفراد من سلالة بلو وعتيق ، ويقدر عدد هؤلاء بستة وجاء بعدهم عبد الرحمن أو كما يعرف « دانين كاسكو » وقد عرف بسوء السيرة والتصرف ، وقد نشبت فى أيامه الحرب الأهلية وقاد ثلاث حملات غير ناجحة ضد أرجنجو وامتنع عن مفاوضة فردريك لوجارد قائد الحملة البريطانية فى نيجرية،وقد مات قبل وصول تلك الحملة (١٩٠٢) فخلفه محمد الطاهر (الأول) الذى فر من سكوتو ثم قتل فى برمى ١٩٠٣ .

وتختلف آراء المؤرخين عن أيام حكم الفولة فى بلاد الهوسا، فإن بعضهم يصفه بعصر الحروب والانتقام من شعب الهوسا دون مبرر . كان عصرا عم فيه الظلم والفوضى والرشوة وسادت فيه الجزية على المقهورين وقاسى فيه المزارع أنواع الحرمان، وانتعشت فيه تجارة الرقيق إلى درجة ضجت منها الإنسانية ،فتخلى الأهالى عن أرضهم وتركوا قراهم ولجأوا إلى الأحراش والغابات . وهنـاك مؤرخ آخر قال إن أمراء الفولة قد أداروا دفة البلاد فى مقدرة ومهارة ونشروا لواء العدالة، ولـكن نفوذهم أخذ يضعف وتطرق الفساد إلى جسم الدولة فلم يعد الأمراء رجال زهد كما كان أسلافهم من قبل بل انغمسوا فى الترف وقلدوا الزعماء الوثنيين المجاورين لهم وأغفلوا تعاليم عثمان دان فوديو، فخرج كثير من الوثنيين عن طاعتهم واضمحل ملـكهم فى الوقت الذى بدأ فيه البريطانيون يدخلون البلاد فى القرن التاسع عشر ونستطيع أن نقول إن قبائل الفولة نشروا الإسلام ودانت لهم قبائل شمال نيجيرية كلها .

الشيخ عمر وخلفاؤه

١٨٣٥ — ١٩٠٠

قنع الشيخ عمر بن الكانمى (١٨٣٥ — ١٨٨٠) أول الأمر بأن يحكم باسم السلطان إبراهيم أخى دونمة (١٨١٨ — ١٨٤٦) .

كان عمر محباً للسلم وظلت صلاته طيبة مع الفولة وبجرمى ، ولكنه عانى كثيراً فى إخضاع ولاة الأقاليم المختلفة الذين كانوا يحاولون الاستقلال ، وانتهز أنصار الأسرة السيفية فرصة قيام هذه الاضطرابات فحاولوا إعادة أسرتهم القديمة إلى ما كان لها من السيادة وأن يقضوا على نفوذ آل كانم مستعينين فى ذلك بسلطان واداى ، وعمل محمد صالح سلطان واداى بالاتفاق مع الساخطين ؛ فانتهز فرصة غياب جيوش الشيخ عمر فى حملة على زندر وأغار على برنو ، ولما سمع عمر بهذا الخبر ألقى بإبراهيم فى السجن ؛ وجمع ما استطاع جمعه من الجنود وسار نحو جيش واداى ، ولكنه هزم هزيمة منكرة عند « كسرى » وهلك فى هذه الحرب وزيره تراب ، كما أسر أخوه على واضطر إلى الالتجاء للأقاليم الغربية بعد أن قتل السلطان إبراهيم (١٨٤٦) . ونهب أهل واداى برنو وأحرقوا كوكة ؛ غير أنهم انسحبوا عند اقتراب جيش برنو العائد من زندر ، وكان محمد صالح قبل رحيله قد أقام عليا بن إبراهيم سلطاناً فى برنى الجديدة . ولما كان ما بقى لعلى من القوة لا يسمح له بمقاومة الشيخ عمر مقاومة جدية فقد هزم عند منارم وهلك فى هذه المعركة . وبموته انتهت أسرة سيف القديمة ، كما خربت برنى الجديدة . وأصبح عمر السلطان الفعلى لبرنو متخذاً لقب الشيخ بدلا من الماى ، وهكذا بدأت أسرة كانمية جديدة أعادت بناء كوكاوا بعد ما خربها رجال واداى ، وفيها زاره الرحالة دكتور بارث عام ١٨٥١ و١٨٥٥ .

وقداستمر يقاتل واداى سنين أخرى ، مما أضعفه كثيراً وسبب خروج المنطقة الغربية من زندر عن طاعته واستقلالها . ومع ذلك فقد حكم عمر البلاد دون منازع إلى أن أدركته الوفاة عام ١٨٨١ .

واستطاع وزير الشيخ عمر « سلتمه » أن يحافظ على عرش الكانميين ورتب نظام التوارث بعد وفاة عمر ، فآل الحكم إلى أكبر أبنائه «بوبكر» الذى تقلد الحكم ثلاث سنين من عام ١٨٨١ إلى عام ١٨٨٤ ،وقد اشتهر بالكرم والدهاء فى الحرب ، ومات وهو يستعد للقيام بحملة على واداى، وخلف أخوه ابراهيم الذى حكم ما بين عامى ١٨٨٤ ، ١٨٨٥ ؛ ثم بعده الشيخ هاشم ، وحكم من ١٨٨٥ إلى ١٨٩٤ وكان رجلا فاضلا ومسلماً متحمساً يشارك العلماء فى آرائهم ، ولكنه لم يكن يعنى بشئون دولته ، عاش فى قصره مع نسائه وأولاده — وأسخط رعيته لوقوعه تحت نفوذ « ملدم » وأخذت دلائل الفوضى فى البلاد تتزايد ورفض سلطان زندر دفع الجزية وقامت قبائل واداى بغارات متوالية قصد السلب وأصبح حال برنو يشبه البناء المتداعى ما لا يصيبه أى حادث حتى ينهار ؛ وقدتقوضت أركانه بالفعل أمام هجمات الثائر السودانى رباح التى بدأها عام١٨٩٣ بدخوله برنو من واداى على رأس جيش منظم ، وهزم جيش هاشم الذى كان يقوده أحد قادته فى أمجا (Amga) وقتل هاشم بالقرب من نجالة ، ثم استولى على دكوة ونهبها رجاله وأقام فيها معسكره .

بجرمى

إحدى بلاد السودان الوسطى ويقع جنوبى بحيرة شاد ، وبجرمى بلاد خصبة ويطرأ عليها الجفاف أحياناً ويزرع فيها الدخن وهو الغذاء الدائم لأهلهـــا كما يزرع فيها الفول وينبت الأرز فى المستنقعات وينـدر فيها القمح . وتـكثر فيها المراعى الصالحة لتربية المـاشية ، وينمو فى بجرمى تمر الهند واللوز والقطن والنيلة . وفيها يعيش الفيل والزرافة والفهد والتيتل وفرس البحر ، وتتكاثر على ضفاف الأنهار أو فى جوارها .

ويتألف أهالى بجرمى من العناصر الآتية : —

١ — الباجرميون وقد نشأوا من اختلاط السكان الأصليين بالفاتحين

٢ — المكانورى ويعيشون فى مختلف بقاع البلاد .

٣ — العرب ويعيشون فى القرى .

٤ — الفولة وغالبيتهم رعاة .

٥ — القبائل السوداء ومعظمهم وثنيون .

والمعروف أن دولة بجرمى نشأت فى القرن السادس عشر على يد المغامرين الذين أتوا من الشرق، وهزم هؤلاء القادمون شعب البلالة ، ثم اندمجوا فيهم وتمكنوا بوساطتهم من بسط سلطانهم على قبائل الفولة وعلى جماعات العرب، وفرض الفاتحون الجزية على هؤلاء جميعاً ، ثم اعتنقوا دينهم ، وتقول الروايات الوطنية إن زعيم الفاتحين « دوكنج » هو الذى أسس مدينة ماسينيا حوالى عام ١٥١٣ . وكان برنى بسى أول سلطان لبجرمى حكم ما بين ١٥٢٢و١٥٢٦ ، ولقب أحد خلفائه مالو (١٥٤٨ —

يقال بقيرى وبكيرى .

١٥٦١) نفسه بلقب مبانج ، وخلف مالو ابنه عبد الله (١٥٦١ — ١٦٠٢) وهو الذى أدخل الإسلام إلى البلاد .

ومن خلفائه بوركوماندا (١٧٣٤) ، وكان محارباً عظيماً ، قاد حملة ضد البوركو والكاوار وهزم مرتين ملك واداى المجاورة ، ولكن خلفه علوى (١٧٣٩ — ١٧٤١) وقد هزمه إمبراطور برنو ، وغدت باجرمى تحت سيادته . وفى أيام السلطان عبد الرحمن جورانج الأول جدد النضال ضد واداى ، ولكن سابون سلطان واداى أطلق سراحه وعاد إلى ماسينية حيث حكم باسم عثمان بوركوماندا (١٨٠٧ — ١٨٤٦) وكان يدفع الجزية بانتظام لواداى وقد هاجم برنو عدة مرات ولكنه كان يبوء بالهزيمة .

وقد حكم بعده ابنه عبد القادر الذى حاول أن يعيش فى سلام مع جيرانه وحصر همه على شن الغارات على القبائل الوثنية إلا أن أهل واداى عادوا إلى سالف عهدهم فغزوا بجرمى ثانية (١٨٦٠ — ١٨٧٧) فى عهد أبى سكين وفتحوا ماسينية وطردوا أبا سكين وأقاموا مكانه واحداً من أبناء عمومته ، واستعاد هذا الأمير العرش ثانية (١٨٨٢) وظل يحكم حتى وفاته (١٨٩٤) وألقى على عاتق خلفه «جورانج» صد غارات العدو الجديد رباح السودانى الذى كان قد وطد سلطانه فى برنو .

ودخلت بجرمى فى منطقة النفوذ الفرنسى بمقتضى المعاهدة التى أبرمت بين الفرنسيين والألمان (١٨٩٤) وقبل جورانج من غير تردد الاعتراف بالحماية الفرنسية ووقع اتفاقاً مع المستكشف جنتيل (١٨١٧) وأثار هذا الاتفاق رباح على جورانج فهاجمه . ولما لم يستطع جورانج دفع هذا الهجوم عمد إلى ماسينيا وأشعل فيها النار ، ثم هزم الحاكم برتونيه الذى أرسل لنجدته وذبح عند تجباو فى ١٧ يوليو ١٨٩٩ ولكن قوات القائد

الفرنسى لامى هزمت رباح وقتل عند كسورى (٢٢ ابريل ١٩٠٠) وعادت السكينة إلى البلاد .

ماسينيه :

كانت ماسينيه حاضرة بجرمى أهم مدينة فى البلاد إلى منتصف القرن التاسع عشر ، وقد شيدت شمال بحر أرجج وأحيطت بأسوار محيطها سبعة أميال وكانت دورها من الطين فيما عدا قصر السلطان ومسجداً بنى من الحجر وخرب أهل واداى جزءاً منها عام ١٨٧٠ وهجرها أهلها بعد غزوة رباح وهى الآن تلى يحمان * فى الأهمية وتقع على الضفة اليسرى لنهر شارى ويقيم السلطان فيها .

* بوقومان

تعليقات ومراجع

Basil Davidson : Old Africa rediscovered.pp35-36
101-102 London 1960

انظر أيضاً : عمر طلعت زهران : تاريخ أفريقية الاستوائية الفرنسية ص ٢٣ — ٢٤ عام ١٩٥٠ .

٢ — فى الفترة الواقعة بين عامى ٨٠٠و١٢٥٠ م هاجر الزغاوة وهم شعب جمع بين الخصائص الزنجية والحامية ، وانتشروا فى بقعة رحبة تمتد من بلاد دارفور حتى بحيرة شاد . وفى بداية القرن الثانى عشر تعرض الزغاوة لهجرة من الطوارق ومثلها من التبو والتدا ولم تكن هجرة شاملة ، بل كانت على هيئة ارستقراطية حاكمة ، استطاعت أن تخضع شعب الزغاوة لسلطانها ، وكان الزغاوة قد دخلوا فى الإسلام حوال النصف الأول من القرن الحادى عشر. ثم أنجبت هذه الأرستقراطية أول أسرة مالكة تسيطر على المنطقة الواقعة شرقى بحيرة شاد ، وأسست سلطنة كانم وأطلقت هذه الأسرة على نفسها اسم بنى سيف .

دكتور حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقية . ص ٢٣١

انظر أيضاً :

Urvoy Y : Histoire de L'Empire du Bornu Mission de I . F .A.N Paris. 1949

٣ — اتخذ سلاطين برنو لقب ماى إلى أواسط القرن التاسع عشر ، ثم قنع السلاطين بعد وفاة آخر الحكام من الأسرة السيفية عام ١٨٤٦ للقب شيخ الذى كان يلقب به محمد الكانمى الزعيم الدينى ، وأصبح رأس الأسرة الجديدة .

٤ — دائرة المعارف الإسلامية . مادة برنو . الترجمة العربية .

٥ — المرجع المذكور فى رقم ٢: Yrvoy'y

٦ — Ahmed Ibn Fartawa : History of the Twelve years of the Reign of Mai Idris-Alooma of Bornu (1571-1583) Nigeria

٧ — G.R. Niven : A short History of Nigeria London .P .36

٨ — Palmer. H . R : The Bornu Sahara and the Sudan. London

٩ — أحمد بن فرتوه — المرجع الذى سبق ذكره فى ٦

١٠ — الشيخ مسفرمة عمر بن عثمان عاش بالقرب من جمسة فى ديار جيدة عام ١٥٠٠ ، ألف كتاباً فى تاريخ برنو، يقال إنه لا يزال باقياً ولكن لم ينشره أحد ،ظهرت منه مقتبسات ومختصرات ،وأضاف إليها بعض الناس واستفادوا منه أسماء ملوك برنو وأخبارهم ، وأضبط نسخ هذا المؤلف ، نسختان مختصرتان بعنوان «ديوان السلاطين» حصل عليهما الرحالة دكتور بارث من شتيا مكرمة حوالى عام ١٨٥٣ ، وقد أرسلت إحدى النسختين إلى الأستاذ الألمانى أوتوبلاو ونشرها فى ليبزج . أما النسخة الأخرى وهى نسخة بارث فقد ترجمها إلى الإنجليزية المؤرخ البريطانى بالمر وضمها إلى كتاب « ماى إدريس سلطان برنو » (١٥٧١ — ١٥٨٣) وطبعت فى لاجوس عام ١٩٢٦ .

انظر أيضاً :

Barth : Vol II of Travels in North and central Africa 5 Vols London P 633

١١ — المرابط محمد بن عبد القادر المغلى (المغيلى) من علماء السودان الغربى — انظر رقم ٦ فى تعليقات الفصل الخامس . امبراطورية سنغاى .

١٢ — تراجع مادة سكوتو فى دائرة المعارف الإسلامية .

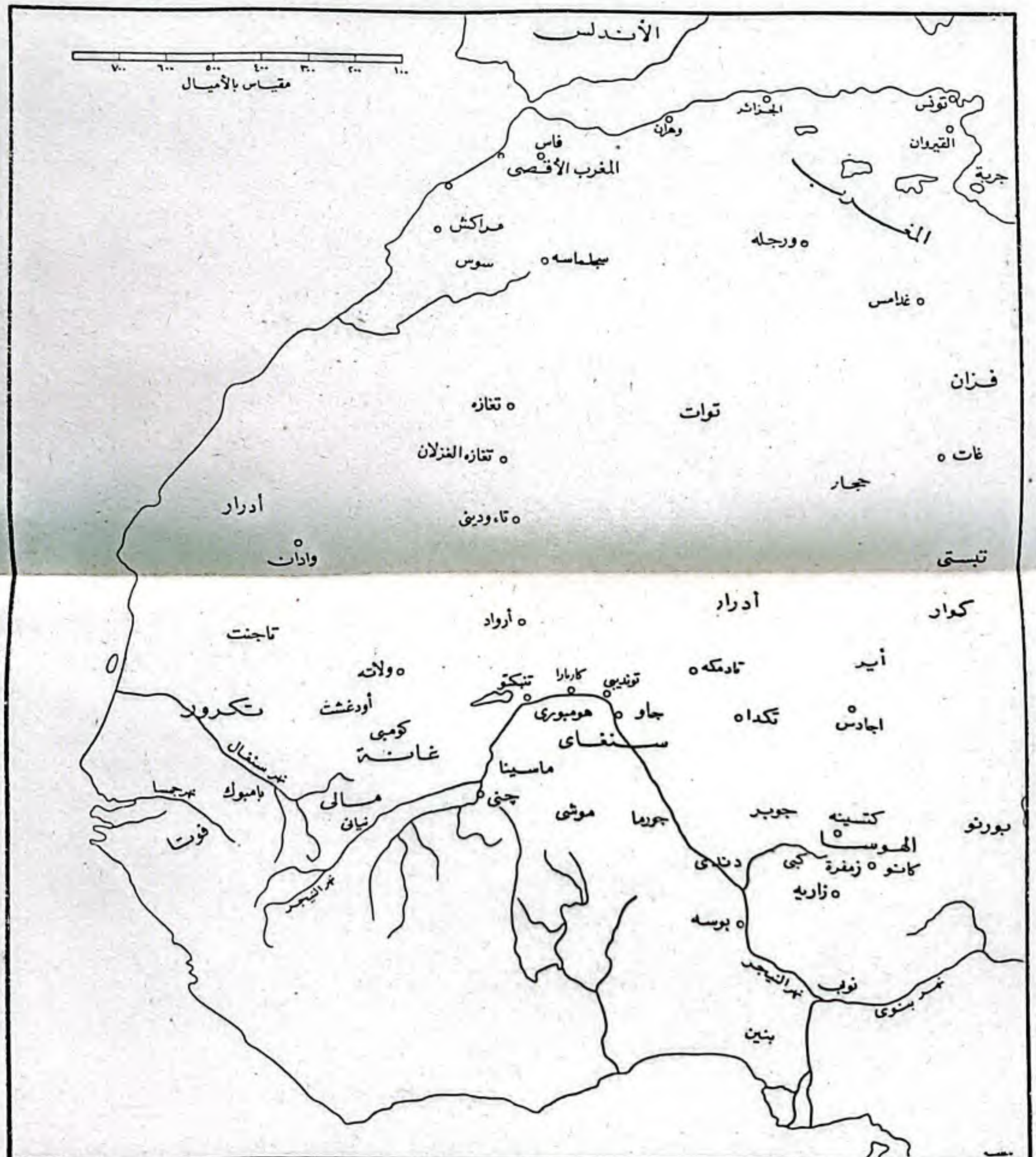
١٣ — المرجع السابق ذكره فى (٧) ص ٤٤ .

C.R. Niven : A short History of Nigeria

١٤ — الفولة — الفولبة والفلاتة .... إلخ كلها واحدة وهى قبائل مبعثرة فى أرجاء شمال أفريقية من أعالى نهر النيجر حتى نهر سنغال . والفولة إما رعاة مسلمون متنقلون ، وإما أنهم يعيشون مستقرين بين شعوب غريبة عنهم كطبقة حاكمة حيث يكونون القوة السياسية المتسلطة فى نيجيرية الشمالية . حيث يبلغ عـــددهم نحو المليونين ، ويحتشدون بصفة خاصة فى مديريات سكوتو وكانو وأدمو التى كانت تسمى فيما مضى يولا .

١٥ — آدم عبد الله الألورى : الإسلام فى نيجيرية . ص ٤١

١٦ — حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقية ص ٢٦٦



أهم الدول والمدن في غرب أفريقيا

الفصل الثامن

الحضارة في سودان المغرب

الحضارة فى سودان المغرب

انتهى عهد الفتوح الإسلامية فى شمالى أفريقيا والأندلس ، واستقرت الدولة الإسلامية بعض الوقت، ثم بدأت حضارتها تتطور، وثقافتها تنتشر فى أجزاء كبيرة من شبه الجزيرة الإيبرية ومدن الساحل الأفريقى المطلة على البحر المتوسط . كما ازدهر التبادل الاقتصادى بين أجزاء البلاد . وكان من الطبيعى أن تنتقل الأفكار والثقافة مع قوافل التجارة التى كانت تسلك — الصحراء الكبرى من الشمال إلى الجنوب . ومضت الأمور متخذة مجراها الطبيعى حتى ظهر الزعيم الكبير يوسف بن تشفين ، فرأى أن ينهض بعمل فريد ، وأخذ على عاتقه دعوة الشعوب السودانية فيما وراء الصحراء إلى الدين الحنيف، وكان ذلك الحدث الكبير حينما اتجه أنصاره فى عام ١٠٦١م إلى غانة ، وهى فى ذلك الحين أقوى دول السودان ، فأخضعها عام ١٠٦٧ م وغرس البذرة الإسلامية الأولى . ثم أسست تنبكتو بعد أعوام قلائل ، وقدر لها أن تكون من أهم المراكز الإسلامية فى قلب القارة الأفريقية. وهكذا امتد سلطان البربر تدريجاً من ساحل المحيط الأطلسى إلى المنعطف الشرقى لنهر النيجر ، وقامت إمارات ودول إسلامية كبرى دون أهلها صفحات ناصعة فى تاريخ الحضارة الإسلامية . ثم امتد نفوذ تلك السلطنات رويداً رويداً حتى وصل إلى شرقى بحيرة تشاد، واتصلت بمسلمى وادى النيل .

وهكذا اتسع العالم الإسلامى ، فضم إليه الشعوب السوداء الذين سرعان ما تقبلوا النظم الإسلامية فى الإدارة والقضاء ، وأنشئت عدة مدن إسلامية قامت فيها دور العبادة والعلم ، واندمجت الشعوب السودانية فى غربى أفريقية فى عالم الحضارة الإسلامية ،وشاركوا مسلمى الأندلس والمغرب فى نظمهم السياسية والدينية والآداب والعلوم .

وقد ازدهرت تلك الحضارة المشتركة بوساطة العلاقات التجارية المستمرة

عبر الصحراء ، حينما تبادل الشمال مع الجنوب خيرات البلاد . . كما توافد العلماء ورجال الدين للتدريس في مساجد تنبكتو وجنى وجاغ ومالى ، ينشرون الثقافة الإسلامية بلغتها العربية الأصيلة ؛ ويبعثون الطلاب إلى معاهد الأزهر والقيروان وتلمسان .

وكان من الطبيعى أن تنهض بينهم طائفة من كبار العلماء والمؤرخين يدونون أحداث البلاد ،ويصفون المجتمع السودانى فى مؤلفات طيبة،وصل كثير منها إلينا ؛ فضلا عما دونه الرحالة المغربيون فى كتبهم . ونحن نستطيع من تلك الآثار أن نقول إن تلك الدول السودانية تمتعت بحضارة مجيدة لاتقل صورتها عن الحضارة الأوربية التى عاصرتها . وإذا كنا قد جهلنا أحوال تلك الشعوب ؛ فإن ذلك يعود إلى الفرقة الطويلة التى سادت العلاقات بين الشعوب الإسلامية فى القرون الأخيرة . أما من الناحية الأوربية ؛ فان أوربا المسيحية فى نضالها اليائس ضد الإسلام والمسلمين ؛ كانت فى نفس الوقت لا « تتبادل » الآداب العربية على عكس ما فعلته بعد حين .

وهكذا جهل الأوربيون،ولوإلى حين أحوال الأمم الأفريقية فلم يعرفوا مثلا أن قصر ملك غانة فى عام ١١٥٣ م « كان قد أوثق بنيانه وأحكم إتقانه وزينت مساكنه بضروب من النقوشات والأدهان وشمسيات الزجاج » . وأن الأفريقيين المسلمين استخدموا المدافع فى حصار المدن قبل أن تعرفها أوربا، فقد جاء فى تاريخ ابن خلدون ؛ أنه لما فتح السلطان أبو يوسف بلاد المغرب وجه عزمه إلى الإستيلاء على سجلماسة سنة ١٢٧٣ م ؛ فنهض إليها ونازلها وقد حشد اليها أهل المغرب أجمع من زنانة والعرب والبربر ، ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعراضات وآلات النفط القاذفة بالحصى والحديد ؛ ينبعث من خزانة أمام النار الموقدة فى البارود بطبيعة غريبة .... إلى أن سقطت المدينة .

وتثبت لنا المخطوطات العربية أن استعمال الأسلحة النارية لم يلبث أن شاع بين العرب ، فاستعملوها على الأخص فى سنة ١٣٤٢ دفاعا عن مدينة الجزيرة التى هاجمها ألفونس الحادى عشر ؛ وكان أعراب المدينة يرمون جيشه بكرات نارية كبيرة فى حجم أكبر أنواع التفاح ، وكانوا يقذفون بها بعيداً جداً عن المدينـة حتى أن بعضها كان يمر بعيـداً من فوق الجيش ويسقط غيرها فوقه .

فلما شاهد الكونت دربى والكونت سلسبرى الإنجليزيان ، وكانا مشتركين فى هذا الحصار ، مفعول البارود ، نقلا من فورهما هذا الاختراع إلى بلادهما وهكذا استعمله الإنجليز بعد ذلك بأربع سنين فى معركة كريسى (١٣٤٦ م)

كما أن أهل الغرب لم يعرفوا أنه فى عام ١٣٥٣ كان يمر حوالى ١٢٫٠٠٠ جمل تحمل أنواع العروض القادمة من مصر ، وهى حمولة عشرات من سفن تلك الأزمان ، عن طريق بلدة تكادة فى ذهابها إلى عاصمة دولة مالى. وهذا دليل واحد على ما كانت تتمتع به الدول الأفريقية فيما وراء الصحراء من الرخاء وقوة الاقتصاد ، ويكفى أن نذكر خامة الذهب التى انفردت بها تلك البلد ، إذ كانت هى المصدر الرئيسى لذهب العام ؛ حتى اكتشفت مناجم أميركا الجنوبية والهند وأفريقيا الجنوبية وروسيا .

* * *

وكان فى هذه البلاد علماء وفقهاء وأدباء ومؤرخون وصلت إلينا ثمار قرائحهم ، وهى لا تشبه أو تعادل مثيلاتها التى أنتجها علماء أوربا المعاصرون بل إنها فى كثير من الأحوال تسمو عليها . ولا غرو لأن ذلك التراث العربى الأفريقى كان وليد التراث العربى الأندلسى ، ولذلك أخذ طابعه واستمد منه سماته .

وربما يتردد البعض فى تصديق ما اشتملت عليه مكتبة العلامة أبو العباس أحمد بابا فقيه تنبكتو ، وكانت تعتبر مكتبة متواضعة ، نهب فيها ما لا يقل عن ألف وستمائة سفر أثناء الغزو المغربى للمدينة عام ١٥٩١ ، وكانت إذ ذاك حاضرة دولة سنغاى . وقد ترك لنا هذا العالم ما يربو على الأربعين من مؤلفاته .

ويقابلنا بين مؤرخى السودان ، العلامة عبد الرحمن السعدى صاحب كتاب السودان ، ونلاحظ أن هذا العلامة لم يدون الأحداث التى مرت بها البلاد فحسب ، بل إنه كان يعلق عليها ويذكر أسبابها ويعللها ويصف سلاطين البلاد وحكامها على حقيقتهم ، وينقد نظم الحكم ويوضح آراءه وما ينبغى أن يكون عليه الحال فى وطنه . وربما يكون كتابه المذكور المرجع الوحيد فى تاريخ دولة سنغاى وغزو مراكش لها وسلطانها عليها حتى وافته المنية (١٠٦٣ هـ — ١٦٥٣) *

يوضح لنا كل هذا ، أن تلك البلاد الأفريقية تمتعت بحضارة سامية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، كما مرت مالى بدورها قبل ذلك .. حدث هذا قبل أن تطأها أقدام البرتغاليين فى القرن السابع عشر .

تنبكتو

ولقد شهد المؤرخ الفرنسى « دبوا » بأن القرن السادس عشر كان أزهى العصور التى مرت بتنبكتو ، التى وصلت فى ذلك الحين إلى أوج المجد الأدبى والعلمى ، وذلك قبل أن يدهمها الغزو المغربى . ففى ذلك الحين ، اتصلت تنبكتو بالقاهرة وهى حاضرة الثقافة العربية ، ورحل علماؤها إلى مصر للاتصال برجال الأزهر ، ودعموا صلاتهم بإمام مصر جلال الدين السيوطى وقد تحدث السعدى عن العلماء المصريين الذين زاروا تنبكتو وقضوا مدة للتدريس بمعاهدها .

---

* يذكر مرجع آخر أن وفاته كانت فى عام ١٦٥٦

وكانت هذه الحاضرة سوقاً للكتب ، تنسخ فيها المخطوطات وتوزع في البلاد ، روى السعدى أن فقيهاً يدعى محمد بن محمود بن أبى بكر اقتنى نفائس الكتب العزيزة ، وربما يأتى لبابه طالب يطلب كتباً فيعطيها له في غير معرفة . ووصل بعض علماء السودان الغربى فى علمهم إلى مستوى لا يقل عن مستوى المدارس الإسلامية الأخرى ، إن لم يكن يزيد عنها فى بعض النواحى . وذكر السعدى أن فقيهاً اسمه عبدالرحمن التميمى جاء من الحجاز بصحبة موسى سلطان ملى حين عاد من الحج فأقام بتنبكتو زمناً ، ولما رأى رجالها يتفوقون عليه غادرها إلى فاس * .

ومن علماء تنبكتو البارزين ، أحمد بابا (١٥٥٣ — ١٦٢٧) الذى ينتسب إلى أسرة جلها من العلماء ، وقد ولى معظم أفرادها القضاء وكان درس العلوم الإسلامية على أبيه وجده وكثير من أفراد أسرته . وترك ما يربو على الأربعين مؤلفاً ، يعرف منها نيل الابتهاج بتطريز الديباج (فاس ١٣١٧هـ) وكفاية المحتاج لمعرفة من ليس فى الديباج ، ومعراج الصعود وهو مصنف فى ذم الرق كتبه بمراكش ، والدر النضير ، وحمائل الزهر ونشر العبير .. وعدد كبير من الرسائل فى موضوعات مختلفة ** .

ولما غزا المغاربة تنبكتو رفض أحمد بابا الاعتراف باحتلالهم ، فقبض عليه وعلى أفراد أسرته واقتيد إلى مراكش (١٥٩٤) ، وفقد فى هذا الحادث ستمائة وألف مجلد ، كما سقط عن ظهر جمل إبان رحلته فكسرت ساقه ، ثم أطلق سراحه بعد حوالى عامين ، على أن يغادر قصبة مراكش فانقطع للتعليم فى جامع الشرفاء وكان يستمع لدروسه خلق كثير كما كان يعهد إليه بالإفتاء .

---

* تاريخ السعدى : ص ٥١ ، ٦٢

** دائرة المعارف الاسلامية

ولما ولى السلطنة مولاى زيدان أذن له عام ١٠١٤ هـ — ١٦٠٦ م بالعودة مع من بقى من أسرته إلى تنبكتو فعاد إليها وكرس حياته لتعليم الفقه. وهكذا نرى أن الثقافة الإسلامية استقرت فى تنبكتو التى أصبحت لها نفس المكانة التى للقيروان فى تونس، أو فاس فى المغرب، أو قرطبة فى الأندلس. وقد ارتبط تاريخ الثقافة فى سودان المغرب بتاريخ هذه المدينة الجليلة منذ أن أنشئت، اجتمع فيها العلماء من كل وطن « المغاربة والأندلسيون والحجازيون والمصريون، وكان يفد إليها الطلاب من سنغال ونيجر ومن إمارات الهوسا وبرنو وكانم، فيقيمون فيها زمناً ثم يرحلون أو يبقون، وكان معهد سنكرى بتنبكتو قريب الشبه من الأزهر فى مكانته العلمية فأمه العلماء والفقهاء، ونبغ منهم طائفة وصلوا إلى الإمارة وقد ذكر المؤرخ السعدى كثيرين منهم أحمد بن عمر بن محمد أقيت الذى خلف أكثر من سبعمائة مجلد *.

وقد أشار أيضاً إلى بعض الكتب التى كانت تدرس فى ذلك المعهد منها الشفاء للقاضى عياض وتحفة الحكام لابن عاصم وكتاب المعيار للونشريشى**.

تلك هى الناحية الثقافية لتنبكتو فى أزهى أيامها على عهد سلاطين سنغاى العظام من أمثال اسكيا الهادى محمد واسكيا داود الذى توفى عام ٩٣٥ هـ ١٥٢٨ م. وانتقلت تنبكتو من بعده إلى حكم المغرب بعد أن غزاها القائد محمود عام ١٥٩٠ وضمها إلى أملاك سلطان مراكش وظلت خاضعة للمغرب إلى عام ١٧٥٠ وفى ذلك العهد عمت المظالم تنبكتو وشن الطوارق غاراتهم عليها وامتلكوها عام ١٧٩٢، ثم استولى الفولة عليها عام ١٨٢٧.

---

* تاريخ السعدى ص ٣٤و٣٧و٣٩

** « « ص ٢٩و٣٣و٣٨و٤٣و٤٥

ولكن إلى متى ظلت تنبكتو بعيدة عن التبادل الثقافى أو الاقتصادى الأوربى أو إلى متى جهلها الأوربيون؟.

اتصل الأوربيون بتنبكتو فى القرن الخامس عشر فأخذت المدينة تتعامل مع الثغور الإيطالية وبخاصة فلورنسة بطريق تونس وطرابلس وكانت تخرج منها أربعة طرق كبيرة من طرق القوافل :

أحدها يقصد مصر ماراً بكانم وجاغ والثانى يقصد تونس ويمر بحجار والثالث يقصد مراكش ويمر بسجلماسة وتافيلاليت وتوات ، والرابع يقصد السودان ويمر بملى ، وقد وصف اثنان المدينة فى ذلك العصر (القرن ١٥/١٦ م) أولهما فلورنتين بنديتودى الذى زارها عام ١٤٧٠ وثانيهما الحسن بن الوزان (ليو الأفريقى) الذى قام برحلته الأفريقية فى أوائل القرن السادس عشر وزار تنبكتو وأعجب بها ، وقال عنها إنها مدينة عامرة بالحوانيت وبها معبد (مسجد) من الحجر والكلس بناه مهندس بارع من أهل غرناطة وقصر رائع يقيم فيه الملك حلى بصور كثيرة وقضبان من الذهب يزن بعضها ١٣٠٠ رطل .

وانقطعت الصلة بين تنبكتو وأوربا بعد القرن السادس عشر ومع ذلك فقد كانوا يقولون عنها إنها مدينة عزيزة المنال تكتنفها الأسرار وافرة الثروة لاتجارها فى الذهب وريش النعام والعاج والعبيد ،وقد خاب سعى الكثيرين فى جلاء سرها وقتل فى سبيل ذلك الماجور لينج ، ثم أفلح رينيه كاييه فى رفع الحجاب عنها عام ١٨٢٨ فاتضح له أنه كان واهماً فى تقدير شأنها وفضل عليها « جنى » كثيراً ، ثم زار بارث تنبكتو عام ١٨٥٣ وكتب عنها كثيراً بعدما وضع يديه على كثير من المخطوطات العربية * .

* Lieut Préfontan: Histoire de Tombucto de sa fondation àl'oeccupatiou Francaise.

جنى

تعتبر جنى من أهم المراكز الإسلامية فى سودان المغرب وتقع على مسافة مائتى ميل إلى الجنوب الغربى من تنبكتو وعلى مرحلة من الضفة اليسرى لنهر بنى (Bani) أحد روافد النيجر ، وتقوم على هضبة صخرية وسط سهل فسيح تغطيه الماء فى فصل الأمطار .

يقول بارث الرحالة الألمانى عنها إنها أنشئت عام ٤٣٥ ﻫ / ١٠٣٣ — ١٠٣٤ * وسرعان ما ازدهرت لتجارة الملح فى تغازا والتبر فى بط وقد اعتنق غالبية أهلها الإسلام فى حوالى عام ٦٠٠ ﻫ — ١٢٠٣ / ١٢٠٤ ، ثم آلت إلى مالى على أيام ملكها مارى جاطة وأصبحت أهم أسواق قبائل الفولة والولوف وزناجة والسركولة وأهالى تكرور الغربى وعرفت بعمل القماش .

وكانت جنى أمداً طويلا على جانب كبير من الأهمية الاقتصادية وقد قال عنها السعدى ** إنها سوق عظيم من أسواق المسلمين ، يلتقى فيها تجار الملح من مناجم تغازا وتجار الذهب من مناجم بط ، وإنه بفضل هذه المدينة تتجمع القوافل فى تنبكتو من جميع الجهات المجاورة . وكانت سوقاً كبيرة لتجارة الرقيق ومركزاً ثقافياً ينافس تنبكتو ، وازدهرت فيها الدراسات الدينية وكان من علمائها الفقيه « فودى » محمد ساقوا الونكرى الذى عاش فيها فى أواخر القرن التاسع الهجرى ، ولاه اسكيا الحاج محمد قضاء جنى بعد رجوعه من الحج ، والقاضى العباس كب الجنوى ، وكان فقيها عالما جليلا سخياً ، وكان قبره فى داخل مسجد جنى والقاضى محمود بن أبى بكر بفيغ والد العالمين الفقيه محمد بفيغ والفقيه أحمد بفيغ .... إلخ .

---

* جاء فى دائرة المعارف الاسلامية ان تأسيسها يرجع الى القرن الثالث الهجرى

** ص ١١

وتقول بعض المراجع أن الزعيم «كنبر» (وربما كان ملكا) كان فى طليعة الزعماء الذين أسلموا فى جنى فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى. وقد ذكر السعدى أنه هدم قصره وشيدمكانه مسجدا ظل باقيا حتى القرن التاسع عشر ولا تزال آثاره باقية إلى اليوم *

وقد احتفظت أسرة كنبر بالسلطان فى جنى حتى نهاية القرن الخامس عشر ثم غلبهم على أمرهم السنغاى، واستولى سنى على المدينة حوالى عام ١٨٤٠ بعد أن حاصرها سبع سنوات وفرض على الأهالى الجزية. وقدعاد حكم سنغاى على سكان جنى بالخير لأنهم استطاعوا أن يبلغوا بتجارتهم حتى تنبكتو وجاغ والبلاد التى تقع عند منعطف النيجر بفضل الأمن الذى عم البلاد.

كانو

ومن المدن التى امتدت إليها الثقافة الإسلامية فى إمارات الهوسا كانو وكتسينا، وقد كان ذلك منذ القرن الخامس عشر، رحل اليها بعض علماء تنبكتو فى عام ١٤٨٥، كما اجتذبت كتسينا عددا منهم؛ ولقد أقام الإمام المغيلى فيها زمنا طويلا يعلم الناس ويرشدهم ويقضى بينهم. وهناك ما يدل على أن السيوطى رحل إلى شمالى نيجرية وأقام فى كتسينا زمنا يهذب الناس وعاد إلى مصر سنة ٨٧٦هـ سنة ١٤٧١ **

وبعد ما أصاب تنبكتو من الأحداث المحزنة عقب الغزو المغربى فيما بين القرنين السادس عشر والسابع عشر؛ تضاعفت شهرة كانو وكتسينا ولازالت

---

* هناك رواية أخرى تقول أن الذى شيد هذا المسجد رجل عربي يدعى ملوم و(المعلم) ادريس وأنه هو الذى درب أهل جنى على بناء منازلهم وزخرفتها على النمط الذى لايزال مستعملا فى جنى والنواحي المجاورة لها

** آدم عبد الله الالورى : الاسلام فى نيجرية ص ١٠

كانو إلى اليوم من أهم مراكز الإشعاع الإسلامى فى غربى أفريقية وبها مدرسة للعلوم العربية وأخرى للقضاء الشرعى *

برنو

وفى كانم وبرنو توطدت الثقافة العربية منذ قرون عديدة بفضل الحجاج عن طريق وادى النيل وعودتهم إلى بلادهم واشتغالهم بتعليم الحديث والتفسير. وكان رجال العلم يتمتعون فى البلاد بمكانة ممتازة ؛ فقد درج السلاطين على إصدار مراسيم تجعل شخص العالم وولده وماله حراما لا تمس بسوء طيلة حياته ؛ وامتدت هذه الهبات إلى المهاجرين من علماء المسلمين الوافدين من الشمال أو الشرق ؛ وقد ظلت أسراتهم محتفظة بها مئات الأعوام.

وأشارت الوثائق التى نشرها المستشرق بالمر (١) إلى علماء ارتفع شأنهم مثل القاضى محمد بن الحاج أحمد والإمام طاهر بن إمام الحاج، وعبد القادر بن الحاج وغيرهم. وتفوقت مراكز الثقافة فى برنو فى القرن الثانى عشر على وجه الخصوص (٢).

وقد توثقت العلاقات بين برنو ومصر المملوكية ويشهد على ذلك رسالة تبودلت بين سلطان برنو عام ١٣٩١ م والسلطان برقوق ؛ جاء فيها « من المتوكل على الله تعالى الملك الأجل سيف الإسلام وربيع الأنام الملك المقدام القائم بأمر الرحمن المستنصر بالله المنصور فى كل حين وأوان ودهر وزمان ؛ الملك العادل الزاهد بن عمرو عثمان الملك بن إدريس الحاج أمير المؤمنين المرحوم كرم الله ضريحه إلى ملك مصر الجليل أرض الله المباركة أم الدنيا ».

---

* دكتور حسن احمد محمود: الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ، ج ١ ص ٢٥٠

(1) Palmer ;Burno Sahara anb Sudan P 33 ; 44
(2) Islam to-day

وانطوت الرسالة على شكواه من الأعراب الذين يسمون جذاما وغيرهم « قد سبوا أحرارنا من النساء والصبيان وصغار الرجال فقاموا على المسلمين فقتلوهم قتالا شديداً . وهؤلاء الأعراب قد أفسدوا أرضنا كلها فى بلد برنو كافة حتى الآن وسبوا أحرارنا وقرابتنا من المسلمين أو يبيعونهم لجلاب مصر والشام وغيرهم ...

فإن حكم مصر قد جعله الله فى أيديكم من البحر إلى أسوان فإنهم قد اتخذوا متجراً ، فنبعث الرسل إلى جميع أرضكم وأمرائكم ووزرائكم وقضاتكم وعلمائكم وصواحب أسواقكم ينظرون ويبحثون ويكشفون فإذا وجدوهم فلينزعوهم من أيديهم » .

ويشهد الرحالة الحسن بن محمد الوزان (٣) الذى يقول إنه زار برنو فى نهاية القرن الخامس عشر بما تمتعت به من شهرة ومن أدلة ذلك ظهور هذه السلطنة على الخرائط البرتغالية المعاصرة .

ولكن لماذا لم تستمر تلك الحضارة السودانية ولم تزدهر على مر الأيام ، كما حدث للحضارة الإسلامية الشبيهة بها فى شمال أفريقيا .

إن الجواب على هذا السؤال معقد لاتصاله بمشاكل كثيرة ، لعل فى طليعتها العوامل الجغرافية التى يتصل بعضها بطبيعة الأقاليم السودانية أولا ، تلك التى تمتد فى رقعة كبيرة من غربى القارة على المحيط الأطلسى إلى شرقى بحيرة شاد وتخوم وادى النيل ، ومن حافة الصحارى الكبرى الجنوبية إلى ما بعد خط الاستواء ، ويتصل العامل الآخر بطبيعة الصحارى وأهلها ، وما كان لهم من أثر ضخم فى سكان السهوب الجنوبية والمدن الشمالية فى حوض نهر النيجر .

كانت غارات الرحل من أهالى الصحراء وقطعانهم على السهوب مصدر خطر ، هدد الأمن والاستقرار بصفة مستمرة ، وكان غزو الجماعات الرحل لمن

(٣) المعروف فى الغرب باسم ليون الافريقى

يفلحون الأرض من أهم ما اتسم به تاريخ سودان المغرب . وقد رجحت كفة أهل الصحارى دوماً — على أهل السودان بسبب السلب والنهب وأسواق النخاسة مما أدى إلى قلة الكلأ والمرع ، ونتج عنه بطبيعة الظروف عدم استقرار الجموع الكبيرة العدد من الأهالى ، الذين يستطيعون مقاومة الغزاة وردهم إلى قلب الصحراء ، كما كان يحدث أحياناً ، ومن أجل ذلك لم تنجز أفريقيا السودانية حركة تاريخية كبرى ، ولم تزدهر بها حضارة متصلة الحلقات . . فى تطورها .

وسودان المغرب ، كما قلنا ، منطقة واسعة حبيسة بين عائقين عظيمين قد لا تيسر هجرة جنسية على نطاق واسع (كما حدث مثلا فى أواسط آسيا) فالصحراء الكبرى تضغط عليها فى الشمال والغابات الاستوائية فى الجنوب وتكاد تكون خالية من العوائق الطبيعية ، ونعلم أيضاً أن السمة الجغرافية التى تسودها هى مجرى نهر النيجر الكبير ، ذلك المجرى الذى لا يمكن اعتباره عائقاً فى حد ذاته ، بل على العكس فإنه يعتبر طريقاً طبيعياً للمواصلات البرية والنهرية ، كما أن مناخه عامل ذو أهمية تاريخية وتضاريسه الجغرافية ليست منوعة ... وهكذا كان عـــدم توافر الموانع الطبيعية أو المناخية من أهم الأسباب التى يسرت للأهالى أن يرحلوا إلى حيث يشاءون بسهولة فى أطراف السودان ، إما لتبادل التجارة فى أمن وهدوء مع قطعانهم وإما للغزو والسلب وقطع الطرق ، وثمة ظاهرة جغرافية أخرى ، ففى الأجزاء الغربية من القارة ، لم تتوافر المواطن الصغيرة التى جعلتها الطبيعة شبه مواطن معزولة أو منفردة ، كما كانت فينيقيا فى غربى آسيا ونيبال فى قلبها والحبشة فى شرقى أفريقية . مما يشجع على نمو الروح الاستقلالية والشعور القومى ، ورد أى تسرب أجنبى إليها واحتضان حضارة بادئة لتنمو فى ظل دويلة صغيرة ورعايتها . ويمكن القول إن هذه المزية لم يعرفها أهالى السودان الغربى .

ولم تكن الغابة تصلح من الناحية الطبيعية لرفاهية رجل السودان الغربى لأنها عائق لا يمكن اختراقه ،وربما كانت أقل وطأة من الصحراء التى كانت سبيل التجارة والثقافة بالرغم من المشاق والصعاب، وعلى أية حال يمكن القول بأن الغابة وقفت عائقاً ضد نور المعرفة والحضارة ، بينما كانت الصحراء سبيلا إليهما . ولكن ينبغى ألا نبالغ فى تقدير دور الصحراء باعتبارها من عوامل نقل الحضارة . فإن هذا النور لا أثر له فى مجتمع البداوة ، ولا مقام له مع حياة الرحل . ولا نعرف حضارة قامت فى الصحراء الكبرى قبل استخدام الجمل فى أثناء القرون الأولى من ميلاد المسيح . فكيف تستقر حضارة ما بين أقوام بدو رحل ينزعون خيامهم الصحراوية إذا ما اقتربت شهور الصيف ، قاصدين هضاب الأطلس فى الشمال أو مراعى السودان فى الجنوب !

وصحيح أن بعض تلك الهجرات الموسمية ، كان يستقبلها السودانيون بالترحاب ، فبوساطتها يفيدون ويستفيدون عن طريق تبادل المنتجات والسلع ،لكنها كانت كذلك لا تخلو من التخريب والنهب ، وفى كثير من الأحوال ، كان الرحل يفضلون الإقامة المستديمة بين خيرات السهول ونعيم المدن ، فيضطر أصحابها من السودانيين إلى الرحيل، ومن ثم تؤول الأرض إلى الجدب والخراب بعد أن يهجرها فلاحوها ، والزراعة كما هو معروف أساس التقدم المستمر فى أية حضارة ولكن فالح الأرض ينقصه الابتكار وسرعة التنقل والتبصر بالأمور والمقــدرة السياسية وهذه من صفات الرحل ، ولذلك لاحظنا أنه عندما اتحد أهالى السهوب مع الفلاحين وتآلفوا سوياً استطاعوا تكوين حكومة ثابتة ذات نزعة توسعية ، فقد كان الغزاة الرحل يمكنون صلابتهم الحديدية من دماء المقهورين ويؤثرون فيهم وإن امتصوا ثقافاتهم السامية .وبفضل هذا التآلف أو الوحدة نمت بين سودانيى المغرب ملكة التنظيم السياسى — فاستطاعوا فى بعض الأزمنة أن يشيدوا دولا منيعة السلطان ، كغانة ومالى وسنغاى .

وإذا كنا قد ذكرنا أن للرحل والرعاة مقدرة على إقامة الدول بفضل نظمهم وأخلاقهم الصحراوية ، فإننا نلاحظ ظاهرة أخرى وهى أن تلك الدول كانت دواماً قصيرة الأجل ، ويفيض التاريخ بالأمثلة على صحة ذلك، فهناك ملوك الرعاة (الهكسوس) فى مصر القديمة ، والفاندال فى أفريقية ، والنورمان فى إنجلترا ، واللغول فى أوربا وآسيا ؛ والمرابطون فى المغرب والأندلس ، والمغاربة فى السودان بعد المرابطين فى القرن الحادى عشر .

إن الإصرار والمصابرة التى اتسم بهما شعب الماندنجو وزعماؤه تستحق أن نلفت النظر إليها، بعد أن أتيح لهم السيادة والغلبة فى غربى أفريقيا ، حينما استولوا على غانة وأقاموا دولة مالى ، ثم عملوا على توسيع رقعتها ، وبنوا إمبراطورية مترامية الأطراف تجاوز الاعتراف بها حدود الصحراء إلى شواطىء البحر المتوسط ، ثم ما كان لأسرة إسكيا فى نهضة دولة سنغاى ، التى ربما كان يكتب لها البقاء مدة أطول، إذا لم تكن قد تعرضت للغزو المغربى .

* * *

وينبغى ألا نغفل عن عدة عوامل جغرافية أخرى عجلت بانحطاط الدول الأفريقية السودانية الواحدة بعد الأخرى ، فقد كان اتساع أرجاء الدولة وعدم توافر العوائق الطبيعية ممهداً فى كثير من الأحوال لقيام الثورات المحلية والخروج عن طاعة السلطان ؛ وفضلا عن هذا اختلاف الشعوب والأجناس الخاضعة له . وقد ظهر ذلك جلياً حينما كان التوسع الإقليمى سابقاً للنضج الإدارى أو السياسى للحكومة المركزية ؛ فكانت تعم الثورات وتنشب الفتن حينما يولى سلطان جديد ، فيعزل رجال سلفه ويولى آخرين مكانهم ويوجه الحملات العسكرية لإعادة الأمن إلى نصابه وكانت تلك الاستعدادات تستغرق وقتاً طويلا ، فلم تكن طبيعة البلاد تسمح

بإقامة معاقل أو حصون تتحكم فى كل إدارة أو مملكة تابعة للسلطان يستطيع رجالها أن يسرعوا للقضاء على الفتنة وهى فى مهدها .

وكانت صعوبة المواصلات والانتقال من أهم أسباب ضعف تلك الدول الأفريقية ، فكلما طالت المسافة بين الحاكم والمحكوم ضعفت السلطة وهذا ما فطن إليه الفاتحون منذ القدم ، ولعل الرومان كانوا أول من تنبه إلى تلك الحقيقة فأكثروا من شق الطرق وتعبيدها بين ممتلكاتهم ، وأقاموا الحصون والمعسكرات فى الأماكن العسكرية . ولم يعرف السودانيون نظام البريد الذى كان « معمولا به » فى العصور الوسطى ولا سيما بين الدول الإسلامية . ولا نعرف زعيماً أفريقياً أدرك أهمية الطرق فى أنحاء بلاده أو عمل على تنظيم شبكة من مخافر البريد ، ولذلك عجزت الحكومة المركزية عن الإشراف الكبير على شئون الدولة ، وربما كانت الأمطار الغزيرة التى تهطل عدة أشهر فى السنة عائقاً لا يتغلب عليه ،فلم يعن أحد بإنشاء الطرق فى تلك البلاد إلى وقت قريب * .

وإذا كانت للحدود الطبيعية من جبال وهضاب وصحارى ومسالك مائية فوائد شتى فى حماية البلاد ووقايتها فى تلك العصور ضد الغزو الأجنبى فإن عدم وجودها يسر الاتصال التجارى والتبادل الثقافى مما أفاد الدول الأفريقية فنعمت بالرخاء الاقتصادى ، وانتقلت إليها حضارة المغرب ووادى النيل .

ولا يخفى أن البيع والشراء يصحبهما دواماً تبادل الأفكار ونمو الثقافات وانتقال الحضارات ؛ ولولا طرق القوافل التى كانت تربط سودان المغرب ببلاد البحر المتوسط أو وادى النيل ، لما ازدهرت فى وقت من الأوقات تلك الحضارة الإسلامية التى عرفتها مالى وسنغاى وبرنو منذ القرن الحادى

* كانت الأمطار نعمة للعاملين فى الزراعة الذين لعتمدوا على مائها .

عشر ... تلك الحضارة التي لم يعرف السودان مثلها من الحضارات السابقة أغريقية أو رومانية أو بيزنطية .

لقد تعلم أهل السودان عن طريق اتصالهم بتلك الحضارة الزاهرة أشياء كثيرة لم يعرفوها من قبل ، ففي الزراعة كانوا لا يزرعون سوى ما يحتاجون إليه من الطعام ، لكنهم تعلموا فيما بعد زراعة القطن والنيلة كما عرفوا أساليب البناء في المساكن وأسوار المدن والمساجد ، وأهم من ذلك تلقوا مبادىء التنظيم السياسي والاجتماعي والحكم واعتنق غالبيتهم الدين الإسلامي وأجاد علماؤهم اللغة العربيــة وأسهمت طائفة كبيرة منهــم في الكتابة في شتى ألوان التأليف في الأدب والدين والعلم والتاريخ ، كما برزت منهم جماعة من المصلحين الدينيــين .. إلخ الذين عرفوا كيف يقضون على التقاليد الوحشية والعادات والمعتقدات الشريرة التي كانت متفشية بين الشعوب السودانية ، فحل مجتمع حضاري جديد مكان المجتمع البدائي القديم . ولم يقف في سبيل نشر ذلك النور الحضاري سوى الغابة ، فظلت في ظلامها موطناً للحيوان الكاسر والسحرة إلى وقت قريب .

أضف هذا ما أصيبت به في أعقــاب الاستعمار الأوربي . فذابت شخصيتها السياسية .

ومع ذلك لم يستطع المستعمرون أن يقتلعوا الروح القومي في تلك البلاد ، فنهضت من رقدتها لتعيد من جديد مقامها الرفيع وتسهم في حضارة العالم الحديث .

مراجع الكتاب

مراجع الكتاب

تمهيد

تشمل المراجع الرئيسية فى دراسة تاريخ السلطنات والإمارات الأفريقية فى خلال العصور الوسطى :

أ — ما دونه المؤرخون والجغرافيون والرحالة العرب .

ب — ما كتبه المؤرخون من علماء سودان المغرب .

جـ — ما ألفه المؤرخون والرحالة الأوربيون .

ونلاحظ أن الجماعة الأولى قد أسهمت فى أداء واجبها فيما بين القرنين التاسع والخامس عشر ؛ وتلتها الجماعة الثانية فكتب علماؤها ما ألفوه بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر ؛ أما الجماعة الأخيرة فقد دون أفرادها مشاهداتهم فى كتب رحلاتهم منذ أخريات القرن الثامن عشر إلى التاسع عشر ؛ ونلاحظ أن بعض هؤلاء نشر مجموعة طيبة من المخطوطات العربية أو ترجموها إلى لغاتهم ؛ وقد عثروا عليها فى مكتبات المساجد أو عند السلاطين والأمراء .

وترجع أهمية مراجع الفريق الأول إلى أنها كتبت فى عصور كانت أوربا فيها لا تعرف شيئاً عن أحوال غربى أفريقية أو وسطها. ولذلك نعتبرها مراجع فريدة وأصيلة . فلم يكتب أحد سوى العرب عن غانة أو ملى أو سنغاى وغيرها، ولذلك فإننا ندين بالكثير لذلك الرعيل الأول من المؤرخين والرحالة العرب من أمثال ابن حوقل والبكرى والإدريسى وابن بطوطة وابن خلدون والقلقشندى وغيرهم ...

ثم تابع فريق المؤرخين السودانيين جهود زملائهم من العرب، فوصلت الينا طائفة هامة من مؤلفات العالم أحمد بابا التنبكتى وعبد الرحمن السعدى ومحمود كعت وأحمد بن فرتوه والمغيلى والسلطان محمد بلو والحاج سعيد

وغيرهم ،ونجد إلى جانب مؤلفات هؤلاء العلماء طائفة طيبة من المخطوطات الخاصة بتاريخ نيجرية ولا سيما برنو *

وقد أسهم المؤلفون الأوربيون فى وصف المجتمعات الخاصة بغربى أفريقية فى أزهى عصور التجارة البرتغالية . وبخاصة فيما بين أخريات القرن الخامس عشر إلى نهاية القرن السادس عشر ؛ وفى طليعة هؤلاء دى باروس وروى دى بينا وبشيكو بريرا ؛ ثم تطالعنا جماعة من المؤلفين الهولنديين فى القرن السابع عشر . فاذا ما وصلنا إلى القرن التاسع عشر التقينا بطائفة وفيرة من مؤلفات الرحالة والمغامرين من الإنجليز والألمان والفرنسيين . ممن مهدوا لاستعمار القارة السوداء بدوافع شتى أهمها النخاسة والكشف عن الصحارى والأنهار ؛ وفتح أسواق جديدة للتجارة . ونذكر فى طليعة هؤلاء : بنهام وكلابرتون ؛ وريتشارد وجون لاندر ؛وليردو وألدفيلدو بارث وريتشارد برتون ومارى كنجسلى .

* * *

وجدير بنا فى مجال هذا التمهيد ؛ أن نتناول الحديث عن المراجع العربية التى تتصل بتاريخ وحضارة دول سودان المغرب ؛ تلك التى تؤرخ لتلك الفترة الطويلة من القرن التاسع إلى القرن الثامن عشر ؛ تاركين الكلام عن الفترة التالية لمن يريد أن يكمل هذا التاريخ .

فإذا مررنا مسرعين بما ذكره ابن عبد الحكم المؤرخ العربى (٨٠٣ — ٨٧٠ م) عن فتح سودان المغرب ؛ وما قاله اليعقوبى الجغرافى (خ — ٨٧٢ م) عن غانة وكانم ** أو ما ذكره ابن حوقل عن غانة فى القرن

W. E. N. Kensdale : Catalogue of the Arabic Manuscripts * preserved in the University Library, Ibadan, Nigeria

** أحمد بن واضح اليعقوبى : التاريخ ، طبعة هوتسما ليدن ١٨٨٣ ص ٢١٩

التاسع *) فلا بد أن نقف لحظة طويلة عند ابن عبيـــد عبدالله البكرى القرطبى (١٠٤٠ — ١٠٩٤) الجغرافى الذى أمدنا بمعلومات طيبة عن أحوال إمبرطورية غانة ومدنها فى القرن الحـــادى عشر ؛ وقد ترجم المستشرق الفرنسى دى سلين شطراً كبيراً من مؤلفه الجليل المعروف باسم « المسالك والممالك » الذى انتهى من تأليفه عام ١٠٦٧ م **

فإذا انتقلنا إلى كتاب « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » لأمير الرحالة العرب محمد بن عبد الله ابن بطوطة الطنجى (١٣٠٤ — ١٣٨٨ / ٨٩) لوجدناه عامراً بوصف أخبار وأحوال سودان المغرب ؛ ولا سيما مدينة مالى عاصمة الدولة الإسلامية المعروفة بهذا الإسم ، وقد رأى ابن بطوطة نهر النيجر وظنه متصلا بنهر النيل ، ثم زار تنبكتو ؛ وأخذ فى التجوال ببلاد السودان الغربى وواحاته حتى وصل تكدا وهى وقتئذ أكبر مدن الطوارق . وكانت تلك الرحلة ـ الثالثة من رحلات ابن بطوطة وقد خصها بالسودان وغربى أفريقية حوالى عام ١٣٥٢ — ١٣٥٣ م .

أما عبد الرحمن بن خلدون التونسى أعظم مؤرخى وفلاسفة العرب فى العصور الوسطى (١٣٣٢—١٤٠٦) فقدزودنا فى كتابه « العبر وديوان المبتدا والخبر » *** بأخبار كثيرة عن سنغاى وعلاقتها بالمغرب الأقصى وصلات كانم وبرنو ببنى حفص فى تونس فى القرن الثالث عشر . وربما كان انتقال ابن خلدون إلى مصر والإقامة فيها عدة سنين من الأسباب التى التى من أجلها أوجز الـــكلام عن سودان المغرب ؛ ثم يمدنا أحمد بن عبد الله القلقشندى صاحب « صبح الأعشى » (توفى بالقاهرة عام ١٤١٨)

---

* أبو القاسم محمد بن حوقل : المسالك والممالك .

** Description de l'Afrique Septentrionale, De Slane Paris 1859.

*** المجلد السادس . بولاق ١٢٨٤هـ . المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب

بصورة جلية لمجتمع مالى وثبت لحكامها قبل وبعد دخولهم الإسلام؛ ويبين لنا الصلات الوطيدة التى كانت تربط برنو بمصر على أيام السلطان الظاهر سيف الدين بن برقوق وعثمان برى بن إدريس سلطان برنو حوالى عام ٧٩٤ هـ (١٣٩١ / ٢) .

وربما يعتبر الحسن بن محمد الوزان الزياتى (١٤٩٤ — ١٥٥٢) الأخير فى ثبت الرحالة العرب الذين جابوا فى أنحاء السودان الغربى ؛ وقد عرف باسم جان ليون الأفريقى بعد أن وقع فى قبضة القرصان المسيحيين ؛ وقادوه إلى رومة ثم قيل عنه إنه اعتنق الدين المسيحى . وقد ولد الحسن فى غرناطة وتلقى علومه فى معهد فاس ، ثم رافق عمه فى بعثة سياسية أوفدها سلطان مراكش إلى بلاط محمد أسكيا امبراطور سنغاى فى جاغ ؛ وقام بعد ذلك برحلة طويلة فى أنحاء السودان لكنه وقع أسيرا فى أيدى جماعة من قرصان البحر وسرعان ماسلموه إلى البابا ليو العاشر الذى شجعه على مواصلة البحث. وقد عاش سنين طويلة فى رومه وزار فى خلالها عدة مدن إيطالية أخرى منها بولونيا ؛ ولما مات البابا عاد إلى تونس واتخذها مقاما له حتى وفاته (١٥٥٢) وقد أفاد الحسن على ما يظهر من رحلته الأولى بصحبة عمه فأمدته بكثير من المعلومات التى ذكرها فى كتاب رحلته . وكانت سنغاى حينذاك فى أزهى عصورها . ومر الرحالة بولاته وجنى وملى وتنبكتو وجوجو وكوبر وكانو وكتسنه وزنفرة وونقارة وبرنو وجاغ . . إلخ وقد وصف تلك الأماكن وصفا طيبا، وتكلم عن أحوال مجتمعاتها بإفاضة ؛ وكان ما كتبه من أهم مراجع المؤلفين عن سودان المغرب فى القرنين السابع عشر والثامن عشر *

* نشرت هذه الرحلة فى عدة لغات منها اللاتينية والفرنسية والانجليزية
أنظر : The History and Description of Africa . John Pory
Hakluy Society , 1896
وأنظر أيضاً A. Epaulard . Description de l'Afrique. Paris 1956

فإذا انتقلنا إلى الكلام عن المؤرخين الوطنيين قابلنا العلامة الفقيه أحمد بابا التنبكتى (١٥٥٣—١٦٢٧) وله من المؤلفات ما يربو على الأربعين وكتب فى معظم ألوان الثقافة فى عصره. وربما كان من أهم ما ألفه « نيل الابتهاج بتطريز الديباج » (فاس ١٣١٧ ﻫ) . وأحمد بابا فى مؤلفاته يعطينا صورة طيبة لتاريخ الحركة الفكرية فى السودان الغربى .

أما عبد الرحمن بن عبد الله السعدى (١٥٩٦ — حوالى ١٦٥٥) فهو المؤرخ الأوحد لإمبراطورية سنغاى دون منازع . وقد تناول فى كتابه تاريخ السودان التاريخ القديم لقبائل سنغاى ومالى والطوارق ،وتحدث طويلا عن جميع أحوال سنغاى أثناء حكم سلاطينها الكبار فى أسرة اسكيا وغزو مراكش للبلاد وسلطانهم عليها حتى وافت المؤلف المنية * .

وجاء كاتب مجهول ولد فى تنبكتو (١١٦٤ﻫ — ١٧٥١) وكان حفيداً من أحفاد الأمير محمد بن سودو فأتم كتاب السعدى بكتابة تاريخ عن الولاة المراكشيين فى مملكة سنغاى عنوانه « تذكرة النسيان فى أخبار ملوك السودان » . وقد نشره « هوداس » الفرنسى عام ١٨٩٩ .

وهناك مؤرخ آخر هو محمود كعت التنبكتى مؤلف كتاب « تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس » وقد ترجمه هوداس وديلافوس (باريس عام ١٩١٣) .

ولقد ترك لنا العلامة الأمام أحمد بن فرتوه رسالتين خطيرتى الشأن . الأولى تاريخ الاثنتى عشرة سنة الأولى فى حكم إدريس علوبة ملك برنو (١٥٧١ — ١٥٨٣) . والثانية حروب كانم ضد قبائل البلالة . وقد قام

---

* السعدى : تاريخ السودان ، نشره المستشرق هوداس ، باريس عام ١٩٠٠)

بنشرهما بالمر المؤرخ الإنجليزى فى لاغوس عام ١٩٢٦ * ونعتقد أن هاتين المخطوطتين من أهم المراجع العربية فى تاريخ برنو الإسلامى.

وممن كتبوا كثيراً فى تاريخ برنو الشيخ مسفرمة عمر بن عثمان فى أوائل القرن السادس عشر ويعرف مؤلفه باسم « ديوان السلاطين » وقد عثر على إحدى نسخه الرحالة الألمانى الدكتور بارث حوالى عام ١٨٥٣ **

كما نقله بالمر إلى الإنجليزية وضمه إلى كتاب ماى إدريس ملك برنو الذى أشرنا إليه . وقد نشر بالمر أيضاً مخطوطتين هامتين كتبهما محمد صالح بن المعلم أشاركو حول عام ١٦٥٨ ، تناول فى إحديهما الحديث عن الفقيه عمر بن عثمان الفلاتى الذى تلقى علومه بالأزهر وأدى فريضة الحج وزار بغداد، ثم عاد إلى وطنه بعد رحلة طويلة ، واشتغل فى بلاط السلطان على ابن الحاج فى نجازرجمو ***

وهناك رسالة هامة للحاج عبد السلام الشبينى نشرها باللغة الإنجليزية ج . جكسون بلندن عام ١٨٢٠ بعنوان An Account of Tinbuctoo and Housa وكان الشبينى مغربياً من أهالى تيطوان رافق والده فى رحلة بقصد التجارة إلى تنبكتو وبلاد الهوسا حول عام ١٧٨٧ حينما كان فى السابعة عشرة ؛ ثم وقع أسيراً فى قبضة الروس عام ١٧٩٥ فى أثناء عودته من رحلة تجارية إلى هامبورج لاشتراء الكتان وبعض السلع . ثم نزل ميناء دوفر بانجلترا واستقر بعض الوقت فى تلك البلاد .حيث حكى إلى جكسون

---

* Ahmad Ibn Fartua: A History of the First Twelve Years Of Mai Idris Alooma and the Bulala Wars-translated and edited by H, R· Palmer, Lagos, 1926

** Barth : Travels in North and Cenral Africa , vol 11 P,633

*** H. R. Palmer : Two Sudanese Manuscripts of the 17 th Century.Bull, of the School of Orinetal and African Studies, V.3 1929,PP 545 -7.

أخبار مشاهداته فى بلاد الهوسا وتنبكتو. ومع أن ماجاء فى هذه الرسالة لا يعتبر من المراجع الرئيسية إلا أنه هام من ناحية وصف أحوال تلك البلاد فى أثناء النصف الثانى من القرن الثامن عشر قبيل أيام جهاد الفولة . *

وقد ترك الزعيم المصلح عثمان الفودى وأخوه عبد الله طائفة كبيرة من الأسفار التاريخية والدينية التى تلقى الأضواء على مجتمع الهوسا والفولة وبرنو فى خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر . وقد نشر بالمر وهيسكت مختارات كثيرة منها فى المجلات العلمية الإنجليزية ** ومن أهم المراجع التى تناولت وصف النضال المرير بين عثمان الفودى ومحمد الكانمى فى الثلث الأول من القرن الماضى كتاب « إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور » الذى ألفه السلطان محمد بلو بن عثمان الفودى وجمع فيه الرسائل التى تبادلها مع محمد الكانمى ، وقد نشر هذا الكتاب فى لغته الأصيلة باللغة العربية مستر وتنج المحاضر بمدرسة العلوم العربية بكانو (نيجيرية) عن نسخة خطية وجدها بيد رجل معروف من أهل أدماوى الذى كان أسلافه من أتباع مودبوادما أحد حاملى راية الشيخ عثمان الفودى .

وقد وصف محمدبلو فى كتابه بلاد الفولة والهوسا من الناحية الجغرافية وقال عن أهل غوبر إنهم أحرار من أصلهم خرجوا من مصر وهم بقايا القبط وتوجهوا إلى المغرب ، ثم سرد أسماء علمائهم ومؤلفاتهم فى عدة

An Account of Timbuctoo and Hausa, ed. J. G. Jackson *
London , 1820 .

أنظر أيضاً : Thomas Hodgkin : Nigerian Perspectives. London 1960. P. 185-188.

** المراجع السابق ذكره ص ١٨٨ — ١٩٨

صفحات (٢٣ — ٢٩) ومنهم العلامة محمد الكشناوى الفلاتى الذى رحل إلى الشرق وحج وجاور الحرمين ورجع لمصر وتوفى بها والقاضى محمد بن أحمد التاذهى كما تكلم كثيراً عن أبيه عثمان دان فوديو *

وفى هذا العرض للمراجع المتصلة بالسلطنات الأفريقية ، لا نستطيع أن نتجاهل أخبار كانو التاريخيـة تلك التى تتناول أهم أحداث كانو والإمارات المجاورة فى القرن التاسع عشر وما قبله ،وقد أفاد المستشرقون البريطانيون منها ونقلوا كثيراً من محتوياتها إلى اللغة الإنجليزية ولا سيما المؤرخ بالمر **

Infaq al-maysur . Whitting edition. London, Luzac, 1951. *

Palmer : Sudanese Memoirs, Vol. III **

المراجع العربية

الإدريسى محمد بن عبد العزيز الشريف
— المغرب وأرض السودان ومصر والأنداس — ليدن ١٨٩٦ .
أرنولد توماس :
— الدعوة إلى الإسلام . الطبعة الثانية . القاهرة ١٩٥٧ .
ابن بطوطة : أبو عبد الله محمد (٧٧٩ هـ) .
— مهذب تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . القاهرة ١٩٣٤ .
البكرى : أبو عبد الله بن عبد العزيز .
— المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ، دى سلان . الجزائر ١٨٥٧ .
— تذكرة النسيان فى أخبار ملوك السودان ، نشرة هوداس عام ١٨٩٩ .
حسن أحمد محمود :
— قيام دولة المرابطين . القاهرة ١٩٥٧ .
— الإسلام والثقافة العربية فى أفريقية . القاهرة ١٩٥٨ .
ابن حوقل : أبو القاسم محمد :
— المسالك والممالك .
ابن خلدون : عبد الرحمن (٨٠٨ هـ)
— العبر وديوان المبتدأ والخبر . المجلد السادس ، بولاق ١٢٨٤ هـ
أحمد بابا التمبكتى ، أبو العباس
— نيل الابتهاج بتطريز الديباج . القاهرة ١٢٣٩ هـ
السعدى : عبد الرحمن بن عبد الله
— تاريخ السودان ، نشره وعلق عليه ، هوداس ، باريس ١٨٩٨
ابن عذارى المراكشى
— البيان المغرب . ليدن ١٨٤٨ — ١٨٥٠

القلقشندى : أبو العباس أحمد (٨٢١ هـ)
— صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ٦ القاهرة ١٩١٥ ر ١٩١٦
محمود كعت التنبكتى :
— تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس
ترجمة هوداس ودى لافوس ، باريس ١٩١٣
محمد بلو (المتوفى عام ١٨٣٧) ابن عثمان الفودى
— الناصرى السلاوى (الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد)
— الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى تسعة أجزاء الدار البيضاء . عام ١٩٥٤
— انفاق الميسور ، نشره هوتنج ، لندن عام ١٩٥١
إسماعيل رأفت :
— التبيان فى تخطيط البلدان . القاهرة ١٩١٥
المراكشى : محيي الدين أبو محمد
— المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، القاهرة ١٩٢٩ ، ١٩٤٢
المسعودى :
— مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ٨ أجزاء طبعة باريس
— نبذ تاريخية جامعة فى أخبار البربر فى القرون الوسطى ، منتخبة من كتاب مفاخر البربر لمؤلف مجهول الإسم ألفه عام ٧١٢ هـ ، نشرها بروفنال ، رباط ١٩٣٤ .
حسن ابراهيم حسن
— انتشار الإسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى شرقى القارة الأفريقية وغربها . القاهرة ١٩٥٧
عبد الرحمن زكى :
المسلمون فى العالم اليوم ، خمسة أجزاء ، القاهرة ١٩٥٨ — ١٩٦٠
— دائرة المعارف الإسلامية .

المراجع الأجنبية

Barth, H .

Travels in North and Central Africa. 5 Vols , London, 1857–1858 Buchanan and Pugh.

Land and People in Nigeria , London, 1955

Bevill. E. W.

The Golden Trade of the Moors. London 1958.

Burns. A C .

History of Nigeria, London, 1929

Caillie. Rene

Travels through Central Africa to Timbuctoo, and across the Great Desert to Morocco. (1824–1828). 2 Vols

Cooley. W.

The Negroland of the Arabs. London. 1941.

Davidson B.

Old Africa rediscovered. London 1960.

Fartua, (Ahmad Ibn)

History of the First Twelve Years of the Reign of Mai Idris Alooma of Bornu (1571–1583) 1926.

Fage, U. D.

— An Introduction to the History of West Africa Cambridge 1959.

— An Atlas of African History London. 1958

Hodgkin, Thomas

Nigerian Perspectives : An Historical Anthology London, 1960

J. C. De Graft– Johnson

African Glory, London 1954

Lugard Lady (Flora. Shaw)

A Tropical Dependency, London, 1905

Marty P.

L' Islam en Guineé Paris, 1921

Meek, C. K.
The Northern Tribes of Nigeria 2 Vols. London 1925.
Miner, H.
The Primitive City of Timbuctoo. Princeton 1953
Niven, C. R.
A Short History of Nigeria. London 1957
Palmer, H. R.
— Sudanese Memoirs, 3 Vols Lagos 1928
— Mai Idris Alooma of Bornu. (1571–1583), Lagos, 1926
— The Bornu Sahara and Sudan, London 1936
Ronciere, Charles :
Le Decouverte de l'Afrique en Moyen Age, 3 Vols, Cairo 1924–1927.
Trimingham, J. S.:
Islam in West Africa, Oxford 1959.
Urway Ives;
— Histoire de l'Empire du Bornu. Paris. 1947
— Histoire des Peuples du Soudan Central 1956
Ufrani, el;
Nozhet el-Hadi. Trade O. Houdas, Paris. 1889
Villard, André :
Histoire du Senegal. Dakar 1943.

فهرس الاعلام

فهرس الكتاب

صفحة

فهرس الخرائط

صفحة

مطبعة الجريدة التجارية المصرية
٤٣ شارع الشيخ ريحان عابدين ت ٢٨٢٤٣

ملتزم الطبع والنشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
١٠ شارع كامل صدقي بالفجالة - القاهرة ت ٤١٤٥٥

دار القومية العربية للطباعة
١٦ شارع النزهة (ميدان الجيش)